




Princeton University Library
32101 076415700



كتاب

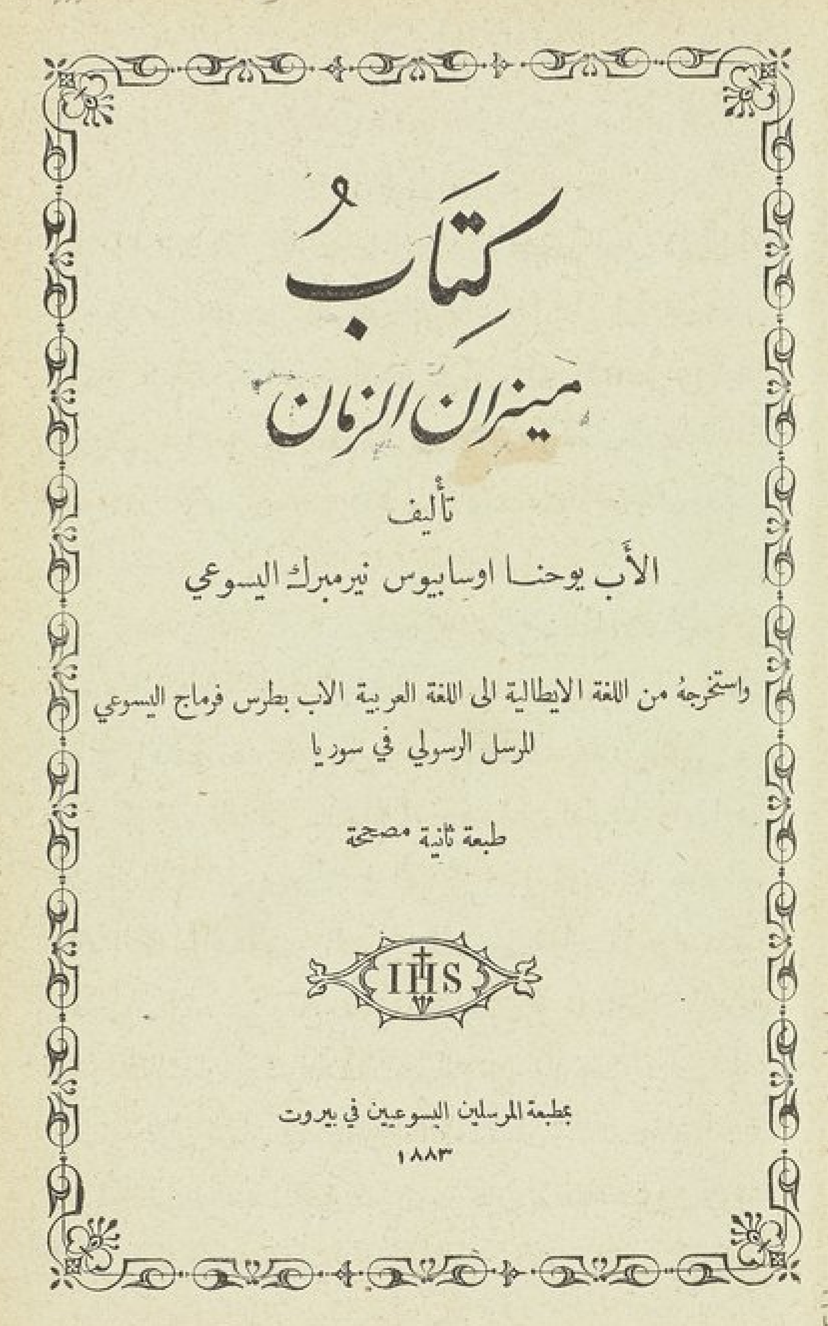
ميزان الزمان

تأليف

الأب يوحنا اوسابيوس نيرمبرك اليسوعي

Imprimatur

† F. Ludovicus arch. siun.



كتاب ميزان الزمان

تأليف

الأب يوحنا اوسابيوس نيرمبرك اليسوعي

واستخرجهُ من اللغة الايطالية الى اللغة العربية الاب بطرس فوماج اليسوعي المرسل الرسولي في سوريا

طبعة ثانية مصححة

IHS

بمطبعة المرسلين اليسوعيين في بيروت

١٨٨٣

٤

بسم الاب والابن والروح القدس
الاله الواحد

الحمد لله الذي منح الانسان ميزان الحكم العقلي لادراك صحة الاوزان ٠ وأمدَّهُ بنور المعرفة والبرهان الجلي ليفرق بين عظمة الامور الابدية وخساسة اشياء هذا الزمان ٠ حمداً يعصمنا عن الضلالة والزيغان ٠ فيما يتحيَّر بين ربح وخسران ورجحان ونقصان ٠ ويرفعنا باعتبار الامور الابدية من حضيض الاشياء الزمنية الى اوج الجنان ٠ ويكسونا رداء المحبة ويسربلنا بنطاق الرجاء بنور الايمان آمين

وبعده فانهُ لمَّا كان اجلّ ما يعتبر في إصلاح حياة الانسان ٠ وافضل ما يلزم لصونهِ من الضلال والخطاء والطغيان ٠ معرفة ما بين الاشياء الزمنية والاشياء الابدية من البون ٠ وعلى هذه المعرفة قد تأسَّس احتقار اولياء الله جميع ما يتعلق بهذه الحياة وهذه الحياة عينها ٠ واعتبارهم ما يختص بالحياة الاخرى والاشياء الابدية الفضلى ٠ وبناء على هذه المعرفة حكم الاباء المجاهدون ٠ والشهداء والمعترفون ٠ والنساك والصديقون ٠ باحتقار كل ما هو زائل مع الزمن ٠ واعتبار كل ما هو ثابت الى الابد ٠ وجب لذلك ان يُوضع افادةً للشعب المؤمن اولاً هذا الكتاب الجليل ٠ المُسمَّى بميزان الزمان وقسطاس ابدية الانسان ٠ لتضمنهِ ايضاح هذه المعرفة الضرورية جداً لتنبيه كثيرين من الذين لا يفتكرون في ماهيَّة الامور الابدية ٠ ولا ينتبهون ايضاً الى بطلان الاشياء الزمنية ٠ فدونكه

ايها المؤمن الحبيب إنهُ بمنزلة منبهٍ ضروريّ يصونك من الضلالة والانخداع فيما تلتزم بممارستهِ والتصرف بهِ من الامور العالمية ويقتضيهِ خلاصك وغايتك السعيدة من اعتبار الامور السماوية . فقد حوى من المضامين الموثرة ما ثبت ببرهان التوكيد والتحقيق . ومن الاخبار الرهيبة المرعبة ما أَيَّدتهُ ادلة عهود التصديق . فهو الدرَّة التي يجب ان يُباع ما سواها لتُبتاع . ويُهمل ما دونها لتذاع . وانهُ لأَربح تجارة للخاطى . في دعوتهِ وعودتهِ . وانهج طريقٍ للتائب في نموهِ بكمال توبتهِ



المقدمة

في مؤلف هذا الكتاب والكشف عن دعوتهِ وقداسة سيرتهِ

اعلم ان مؤلف هذا الكتاب هو راهب يسوعيٌّ يدعى يوحنا اوسابيوس نيرمبرك وهذا قد ولد في بلاد اسبانيا من والدين نمساويين سنة الف وخمسمائة وتسعين للتجسد الالهي . واذ بلغ من العمر اربعاً وعشرين سنة دخل الرهبانية اليسوعية سنة الف وستمائة واربعة عشر للمسيح . وسبب دخولهِ هذه الرهبانية أنهُ لمَّا قصد السلوك في طريق الكمال المسيحي وحسن العبادة التجأ الى والدة الله المجيدة التي كان مخلصاً لها العبادة العظمى طالبًا من مرشدتهِ الالهية ان تهديه للطريق التي تريد ان يسلكها . فاستجابت البتول الطوباوية دعاهُ واشارت اليهِ بخطاب سريّ شعر بهِ باطنًا ان ترهَّب في الرهبانية الملقبة باسم ابني القدوس . تلك ارادة الله بك . فقصد الرهبانية المذكورة وقُبل في دير المبتدئين

غير ان الروح الشرير اذ راى في حقل الرب هذا الزرع الجيد افرغ كل جهدهِ وجدهِ في استئصالهِ وقلعهِ . وذلك ان ابا اوسابيوس المذكور لمَّا علم بترهُّب ابنهِ . التجأ حالاً الى أكابر الدولة وحكام المملكة والى قاصد الحبر الاعظم . مدّعيًا بان الرهبان اليسوعيين غرّوا ابنهُ واجتذبوهُ الى رهبانيتهم مكرًا وتحيلًا . فامر قاصد البابا بان يرجع اوسابيوس الى بيت ابيهِ ريثما يتفحص عن حقيقة دعوتهِ . فعاد المبتدئ الى بيت ابيهِ . وأخذ حينئذٍ ابواهُ يخاطبانهِ ويُغريانه بكل ما تستطيع ان

تقترحهُ المحبة الطبيعية . ليلينا بذلك قلبهُ ويعطفـاهُ الى قبول طلبتهما .
بل تضرعا اليـه بدمع سخين ألا يعجل بالموت عليهما بترهبهِ . ثم كشفا لهُ
عن إرثهِ الوافر والرتب العالمية السامية المعدة لهُ إن مكث في العالم . غير
ان هذه الامور جميعها لم توثر في قلبهِ . ولم تعطفهُ اصلاً عن قصدهِ . فلما
راى ابواهُ أن عملهما حبط وقصدهما لم ينجح وتحققا ان دعوتهُ من الله هي .
ارتضيا بها وباذنهما عاد اوسابيوس الى دير المبتدئين

وحينئذٍ شرع يمارس رياضات الرهبانية بنشـاطٍ عظيم ولاسيما
رياضات احتقار النفس . وقد خدم طمعاً باكتساب هذه الفضيلة طباخ
الدير اربعة عشر شهراً في احقر امور حرفتهِ لابسـاً ثياباً رثة مكشوف
الرأس واذا خرج الى المدينة ليبتاع لوازم حرفتهِ جعـل على راسهِ غطاءً
حقيراً . وكان الرئيس قد امرهُ بالطاعة لاحد المبتدئين . فهذا اوصى يوماً
اوسابيوس بالاّ يتكلم من دون الاستجازة منهُ . فلبث المجاهد عشرين يوماً
صامتـاً لا ينطق بكلمة الاّ في اعترافهِ . فبعد مرور سنتي التجربة . نذر
النذور الرهبانية وأُرسل الى المدرسة ليتمهر في العلوم الفلسفية واللاهوتية
وقارن اجتهاده في اكتسابها رغبة جزيلة وشوق مبرَّح الى اكتسـاب
الفضائل . وذلك بممارسة رياضات الصلاة العقليـة والاماتات . لانهُ في
كل مدة اقامتهِ في المدرسة كان يصرف كل يوم في الصلاة العقلية اربع
ساعات . اما لما انقضت هذه المدة فخصص لهذه الرياضة كل يوم
سبع ساعات ولم يكن ينـام سوى ثلث ساعات او اربع غير مضَّجع على

فراش ومع تمادي الزمان كان يقصر ايضاً من نومهِ هذا القليل . حتى غدا لا يرقد سوى ساعتين او ثلث ساعات لا غير . ولم يكتفِ بذلك بل زاد عليهِ تقشفات شديدة صارمة . فكان يجلد جسده النقيَّ بحبال ذات اشواك حديدية . ومرات كثيرة كان يلبس المسح . ويضع على صدرهِ وساعديهِ وباقي اعضاء جسدهِ سلاسل حديدية ذات اشواك . وكان يضع في احذيتهِ تحت رجليهِ حصاً رفيعة قصدهُ بذلك ان يشعر في كل دقيقةٍ بالمٍ ما . وكان يواظب على الصوم في بيرامونات اعياد العذراء المجيدة كلها ويقتصر من المأكل والمشرب على الخبز والماء . وكانت قساوتهُ نحو نفسهِ لا تمنعهُ عن ان يُبدي للجميع حسن المؤانسة والحلم

وقد درَّس في المدارس سبع عشرة سنة العلوم الطبيعية واللاهوتية . وكان طلبةٌ كثيرون يلتجئُون اليهِ ويسترشدونهُ في تدبير انفسهم . وكانت الحكام والاساقفة ايضاً يقصدونهُ طلباً للرشد وكانت الملكة نفسها تنتدبهُ لذلك . ومرات كثيرة كان يطوف الجبال والقرى ليعلم المساكين . ومن اعجب الامور انهُ مع هذه الرياضات المتصلة الشاقة والاشغال المتفاقمة المتزائدة . استطاع ان يؤلف واحد وخمسين كتاباً في كل نوعٍ من انواع العلوم . ومن ثم زعم قوم ان العلوم منحت لهُ من الله بفيض خصوصيّ . فبعد هذه الجهادات والاتعاب جميعها . احب الله ان يمحص عبدهُ ويبتليهُ ويزيد فضائلهُ كمالاً بامراض اليمة احتملها بصبر عجيب مدة ست عشرة سنة قبل موتهِ المقدس واستأثر الله بهِ في سنة

الف وستمائة وثمان وخمسين للتجسد الالهي . وقد ذكر المؤرّخون اشياء
كثيرة فائقة الطبيعة شرف الله بها عبدهُ المذكور في حياتهِ وبعد مماتهِ
ايضاً ونحن نسأل الله الذي منّ علينا بهذه النعمة الخارجة . اعني بها
تعليم هذا المعلّم النبيل الفضيل . ان يمن علينا ايضاً في حالة قراءتهِ بنعمةٍ
اخرى باطنة تجعلهُ مثمراً فينا الثمار المقصودة بهِ ثمار الزهادة في الاشياء
الدنيوية . والجد في اكتساب الخيرات الروحية والسماويّة . حتى اذا
ما اتينا بهذه الثمار المفيدة . يكون للمؤلف المذكور تضاعف الثواب
العظيم . ولنا شركة الحظ الوسيم . بنعمة ربنا يسوع المسيح الذي لهُ المجد
الى الابد آمين

المقالة الاولى

في التميز ما بين الزمني والابدي وهي ثلثة عشر فصلا

الفصل الاول

في الزمني والابدي

انهُ لكي نُحسِن استعمال الاشياء ونتصرَّف بها على حسب الحكمة والصواب . يجب ان يتقدم الحكم الواجب عليها وان نسبق ونعرفها بموجب ذلك الحكم . والحال ان معرفتنا الاشياء في هذا المسكن الارضيّ هي ناقصة جدًّا وهيهات أن تبلغ الى المسكن السماوي الابدي الذي قد خلقنا لاجلهِ . ومن ثم فلا نعجب إن لم نعقل الَّا قليلًا جدًّا الاشياء المبتعدة من الحس البشري بعدًا عظيمًا . ونعلم علمًا يقينًا اننا نظرًا الى الاشياء الزمنية نفسها لعلى جهلٍ جسيم وعلى بصائرنا لحجاب غليظ . فكيف اذًا يمكننا ان ندرك امور الآخرة ان كنا لا نعقل هذه التي نحن متصرفون بها ومتقلّبون فيها وبينها . فالسبب الذي من اجلهِ يبتغي الانسان بافراط الرغبة والانهماك الغنى والتنعم والكرامات وبقية خيرات الارض هو لانهُ لا يعقلها . على ان العالم كما قال حسنًا وصوابًا القديس بطرس الرسول للقديس اكليمنضوس الحبر الروماني يشبه مسكنًا مفعمًا دخانًا . فكما ان الذي يسكن في مسكن هذه صفتهُ لا يبصر ما هو خارجهُ ولا ما هو داخلهُ لما يحول بين نظرهِ وبين تلك الاشياء من الدخان . كذلك من يستوطنون هذا العالم . فانهم لا يعلمون ما هو داخل العالم ولا ما هو خارجٌ عنهُ .

فلا يحيطون علماً باتساع الابدية الغير المحدود ولا بحقارة الاشياء الزمنية . وهكذا يجهلون الاشياء السماوية والاشياء الارضية على حدٍ سوى . واذ لم يقفوا على حقيقة الامور فتراهم يغيرون موازين حكمهم العقليّ فيزنون الاشياء الابدية بميزان الاشياء الزمنيـة ويثمّنون الاشياء السماوية الراهنة بثمن الاشياء الارضية الزائلة . وهذا الضلال الفظيع قد لحظهُ جيداً واشار اليهِ حسناً القديس غريغوريوس المعظم إذ شفق على جهل الناس الذين يعدون منفى هذه الحياة وطناً ويجعلون ظلام الحكمة الكاذبة نوراً ويحتسبون هذه الغربة العابرة مسكناً ثابتاً ومن ثم يعتبرون الشر خيراً والخير شراً

ان الملك والنبي داود طلب الى الله ان يمنحـهُ معلماً يعرّفهُ ما هي الخيرات الحقيقية قائلاً : من يرينـا الخيرات . وانما قال هذا لانهُ لم يجد احداً يعرف لا العالم ولا الخيرات التي فيهِ ولا الموجودة تحت يدهِ . وقد يتم بالأكثرين ما قيـل عن الاسرائليين انهم كانوا مالكين المن وحاملينهُ في ايديهم وناظرين اليهِ باعينهم ومع ذلك فلم يكونوا يعرفون ما هو المن . وكانوا يسألون عنهُ مستفهمين قائلين ما هو . فها نحن على اسواء حالٍ منهم . وذلك لاننا مثلهم لا نبحث ولا نستفهم . فليت شعري من ذا الذي يسأل ما هو الغنى الذي من اجل اكتسابهِ يرمي الناس بانفسهم في الوف الوف من مخاطر الموت . وما هذه المراتب والوظائف التي توعب قلوب البشر عجبـاً وحسداً هذا مقدارهما . وما هذه اللذات

التي من اجلها تنحل الانام اجسادهم ويفنون حياتهم و يقصرونها . ما هي هذه الخيرات العالمية التي لا يمكننا ان نفوز بها الّا في هذه الدنيا وتضمحل سريعاً حال ولوجنا الاخرى . كما اضمحل المن وزال حينما دخل الاسرائليون ارض الميعاد . ولهذا دعاهُ السيد المسيح في سفر الرؤيا منّاً مخفياً . لانهُ كان فيما بين ايدي العبرانيين ولم يعرفوهُ . فعلى هذا النحو نرى اشياء هذه الحياة محجوبة عن الحس حتى ولو اننا نلمسها بايدينا فمع ذلك لا نعقلها ونبابل نظام ثمنها ونصنع لاجل الزمنيات ما كان ينبغي ان نفعلهُ لاجل الابديات فنستعظم هذه ونستحقر تلك

فليفق اذاً الانسان وينعم النظر و يعقل جيداً ما بين الاشياء الزمنية والاشياء الابدية من الخلاف والبون لكي يقدر الامور حق قدرها فيحتقر ما يزول مع الزمن و يعتبر ما يدوم الى الابد . على ان هذه الابدية هي التي يجب علينا ان نبتغيها في زمن حياتنا هذه العابرة . لكي تكون لنا الزمنيات نفسها مدرجاتٍ مؤدّيةٍ الى ادراك الابديات . والحال انهُ لمن المستحيل ان نفوز بهذا الغرض ان لم نعرف هذين الامرين اعني بهما الزمنيات والابديات . هذا وان ذلك المن المعطى للاسرائليين قديماً حين كانوا في القفر متغربين كان رمزاً دالّاً على خيرات هذه الحياة التي نحن فيها متغربون . الى ان ننتهي الى ارض ميعاد السعادة الابدية التي نحن بها موعودون . ولذلك كان المن ينتن بالكلية و يتلاشى كما يحدث لاشياء هذا العالم كافةً . ولم يكن يسلم من الفساد الّا ما كانوا يلتقطونهُ بقصد

ان يحفظوهُ ليوم السبت الذي هو رمز المجد الابدي . فقد كانت نية العبرانيين هذه في التقاطهم اياهُ تقيه شرَّ الفساد كما لحظ ذلك المعلم القديم بلدونيوس . فكم يجب علينا ان نرفع الحاظنا الى العلاء ونوجه نيتنا الى الابديات لكي ننتفع من هذه الزمنيات . وباستعمالنا اياها نبلغ الى الابديات . وهكذا نصيِّر عظيماً راهناً ما هو حقير زائل

قد ذُكِر عن قوم من الفلاسفة الذين بحثوا عن هذه الحياة متغاضين عن الحياة الابدية . انهم قد عثروا على نقائص كثيرة في هذه الحياة وقد عين منها الملك والبروس انطونينوس الفيلسوف ثلثاً اي انها قصيرة ومتغيرة وفاسدة . وهذه النقائص الثلث قد جاء عبارةً صادقةً عنها المن الاسرائيلي لانهُ كان حباً صغيراً جداً كما يشهد بهِ الكتاب المقدس . وكان سريع التغيير والفساد . لانهُ بالنظر الى البعض كان يتسع متخللاً . وبالنظر الى الآخرين كان يصغر متلززاً . وبالنظر الى الجميع كان يزول سريعاً . ولم يكن يستقيم على صحتهِ يوماً واحداً بل كان ينتن . وزد على كل هذه الاعراض جزيل التعب الذي كان يقتضيهِ تناولهُ واكلهُ . لانهُ كان ينبغي اولاً ان يسحق في هاون بعناء عظيم الى ان يصير ناعماً ثم يطبخ بتعب اخر . فهذه هي صورة خيرات هذه الحياة التي لا يمكننا ان نحصل عليها ونتمتع بها الا بكدٍ وكدحٍ جسيم . فضلاً عن انهُ لم يكن كل الاسرائيليين يستعذبون المن ويذوقون فيهِ طعم ما كانوا يرغبون . فإن فم الخطأة كان ينخدع في اكل المن . وهذا يعرض لنا

حينما تغير الرذيلة ذوقنا الروحيّ وتفسدهُ كما سنورد ذلك فيما بعد . نعم ان منظر المن كان جميلًا لانهُ على ما قال مفسرو الكتاب المقدس كان يشبه البلور المتلألئ وهذه الحال هي حال خيرات هذا العالم . لانها تتلألأ لامعة بخارجها الّا انها بالحقيقة اسرع من الزجاج عطبًا وهي كنوز كاذب تُبهِر منهُ الاعين ويخدع الباصر . وتظهر لنا نحن المجتهدين في طلبها كانها خيرات عظيمة ابدية

فلنهملن الظاهر ولنغادرن الوجه الخارج . ولنمعن النظر في جوهر الاشياء وحقيقتها . فنجد هذه الخيرات الزمنية كلها شيئًا طفيفًا بل دون الطفيف . وانها غير ثابتة لكنها عابرة زائلة . اما الخيرات الابدية فنجدها راهنة باقية وعلى الاجمال نجدها آبدةً ثابتة . وفي هذا قال القديس غريغوريوس في الفصل الثاني عشر من كتابهِ في الادبيات . ان ما ليس لهُ نهاية هو عظيم بغير نهاية . وما لهُ نهاية هو يسير

فلنبتدئنَّ بازالة البرقع . ولنكشفن عن البون البعيد الذي بين خيرات السماء وخيرات الارض من حيث ان هذه ابدية وتلك زمنية . ثم بعد ذلك نتكلم عن خساسة كل خير زمنيّ وعظمة الخير الابديّ . ولعمري انهُ لقد احسن فيما قال احد الفلاسفة : انه ليس شيء اوضح من النور ولا يعتاض عنهُ . اذ قد توجد اشياء كثيرة تستبين للناس واضحة وليست كذلك . ومن جملتها الزمن والابد . ولذلك سنبذل المجهود في ايضاح هذين الشيئين بواسطة نور الايمان وتعليم الاباء القديسين

ومبادىء الفلسفة

الفصل الثاني

في ان التامل في الابدية جزيل الفاعلية لتغيير السيرة واصلاحها

اعلم ان القديس اغوستينوس في تفسيرهِ المزمور السادس والسبعين دعا التفكر في الابدية فكرًا عظيمًا. لان ذكر الابدية يورث القديسين فرحًا وابتهاجًا والخطأة خوفًا وارتجافًا. وانما كلا الفريقين يجني من هذا التامل نفعًا بليغًا. فإن ذكر الابدية من شانهِ ان يحث الانسان على ممارسة الافعال السامية واحتقار كل اشياء هذا العالم الخسيسة الفانية. فهلمَّ اذًا بنا لايضاح دناءة الزمنيّ وغرورهِ وخساستهِ. ورُسخ في ذهن المتامل صورة الابديّ الذي يجب ان نحدق فيهِ نظرنا مع المرتل ونعلق بهِ فكرنا. فهذا هو الفكر الذي كان يخوّل النبي رعبًا جسيمًا حينما كان خاطئًا. وهو الذي حضَّهُ ونشطهُ الى النموّ في القداسة حينما حصل قديسًا. ومنهُ اي من فكر الابدية اجتنى لنفسهِ فائدة لاتوصف. ومن ثم تراهُ يكرر ذكرهُ في ترنيم مزاميرهِ مرات عديدة. لا ضمن مزاميرهِ فقط حيث يُورِد كثيرًا هذه الالفاظ: دوامًا الى الابد ومن الدهر الى دهر الداهرين. بل في عنواناتها ايضًا. ومن ثم لم يكن عندهُ عنوان اكثر استعمالًا من هذا العنوان وهو الى الانتهاء او الى الانقضاء مشيرًا بذلك الى الابدية والى انهُ في حين تاليفهِ هذه المزامير

كان يتامل الابدية التي تلي هذه الحياة

فكان اذاً النبي يتامل الابدية ليلاً ونهاراً وهي التي كانت تضطره الى ان يرفع هتافهُ الى السماء والى الله • هي التي كانت تصيرهُ اصم بين الناس وتجعل على اذنيهِ وقراً • هي التي كانت تجمد دمهُ وتخبّـل مفاصلهُ عن الحركة وترعد فرائصهُ • هي التي كانت تمزج لهُ افسنتينـاً مراً في مذاق لذات هذه الحياة • هي التي كانت تجعلهُ ان يفحص ضميرهُ ويواخذهُ باشد المواخذة والتنكيل • واخيراً اقول ان تاملهُ الابدية ردهُ الى التوبة بتغيير سيرتهِ تغييراً عجيباً • واضرم في قلبهِ نشاطاً عظيماً في العبادة • وجميع هذه العواطف الصادرة من ذكر الابدية تراها في المزمور السادس والسبعين حيث يتفوه هكذا : سبقت عيناي فادركت المحارس اضطربت ولم اتكلم • ثم يورد حالاً سبب ذلك قائلاً • تفكرت بالايام القديمة وتذكرت السنين الابدية • فهذا هو الذي صيرهُ ان يسهر متواتراً بممارسة العبادة • هذا هو الذي كان يرددهُ في عقلهِ ليلاً ويستحضرهُ في مخيلتهِ صباحاً ويكررهُ بعد ذلك مرات كثيرة • وقد كان هذا الفكر على نوع ما مبيناً ومسمراً في عقلهِ مترددا فيهِ اكثر من تردد انفاسهِ • وكان يهلع مرتجفاً عند تاملهِ هاتين القضيتين وهما ان حظي سيكون اما الهلاك الابدي في دركات جهنم اما السعادة الخالدة في ملكوت السماء

فلا يتعجبن احد من ان مثل هذا الملك القديس المظفر كان يرتعد عند ترديدهُ هذا الفكر العظيم في عقلهِ • اذ ان حبقوق النبي نفسهُ اعلن

ان اعلى مناكب العالم تنحني وترتجف عنـد النظر الى طريق الابدية . حيث انهُ يقول هكذا انحنت اكام العالم من قبل مساعي ابديتهِ (٣ : ٦) . وقد ذكر عن القديس يواصف انهُ لما تصور في عقلهِ من جهة الابدية في جهنم . ومن اخرى الابدية في السماء . خامرهُ التحير واعتراهُ الذهول وخارت قوتهُ ولم يقوَ على النهوض من فراشهِ . وصار كمن اضنكهُ مرض مستطيل . بل ان الفلاسفة الوثنيين انفسهم كانوا يرتجفون من فكر الابدية . ولما ارادوا ان يصوروها استعملوا رموزًا وتشابيه مخيفة مرهبة . فبعضهم صوروها بصورة اشرّ الافاعي نوعًا اي التي بمجرد فحيحها تقتل البشر . وهكذا القديس يوحنـا الدمشقي رسم دوام الابدية بصورة تنين مخيفٍ فاغرٍ فاه على شفاء حفرة عميقة يرصد الناس ليبتلعهم احيـاء . واخرون يصورون الابدية بصورة هاوية عميقـة مريعة جدًا لها عند مدخلهـا اربع درجات . الدرجة الاولى من حديد والثانية من نحاس والثالثة من فضـة والرابعة من ذهب وعلى هذه الدرجة اطفال وقوفًا يلعبون بملاعب مختلفة . وهم غافلون عن خطر السقوط في هذه الهاوية وليس المراد بهذا المثل بيان الفزع الصادر من تامل الابدية فقط بل اظهار تفاقم جهل البشر ايضـًا مَن يتنزهون ويضحكون ويمزحون في امور هذه الحياة ولا يفتكرون انهُ قد يمكن ان يُلقوا دمورًا في هوتة جهنم . وبخلاف ذلك كان المرتل يعد من قبل الله الذين ينـامون بين هذين الحدين الابديين . اي الذين تغوص عقولهم في سبات التامل

في ابدية السماء وابدية جهنم بانهُ يعطيهم اجنحة حمامة من فضة ذات اصولٍ من ذهب وذلك لان السيرة الروحية ليست هي قائمة في ان نصنع خيرًا فقط . بل تقتضي ايضًا ان نحتمل الاسواء التي تاتينا من قبل الناس . ولهذا مثلها النبيّ بالاشياء الاكثر ثمنًا واعتبارًا عند الناس اعني الفضة والذهب . ولكن لما كان غالبًا احتمال الشر اصعب من فعل الخير . وبالتالي افضل استحقاقًا مع ان كلا الامرين جزيلا الثمن . قال المرتل ان المناكب من ذهب والاجنحة من فضة . وقد احتسب ذلك يعقوب ابو الاسباط خيرًا عظيمًا واخصهُ بابنهِ ايساخر قائلًا انهُ سيستريح بين الحدين . فكانهُ يقول انهُ سيتأمل بتانٍ حد العقاب الابديّ وحدّ السعادة السرمدية

الفصل الثالث

في ان ذكر الابدية يوثر في الانسان اكثر من ذكر الموت

انهُ وان كان ذكر الابدية وذكر الموت جزيليّ الاعتبار والمنفعة . فذكر الابدية اشد تاثيرًا وفاعليّة واغزر اثمارًا اي افعالًا مقدسة . لانهُ انما ذكر الابدية حمل العذارى الى حفظ بتوليتهنّ . والنساك الى ممارسة تقشفات شاقة . والشهداء الى مكابدة عذابات فادحة . ولم يحركهم الى ذلك الخوف من الموت كما كان يشجعهم اليهِ الخوف من الابدية والمحبة الالهية

ولما كان الفلاسفة الوثنيون لا يترجون نظيرنا حياة باقية بعد الموت . فكانوا بقوة ذكر الموت يصدُّون عن اباطيل العالم ويحتقرون عظائمه . وكان يدعوهم اليهِ مقتضى حكم العقل النطقي والفلسفة لا غير . ولذلك أوعز ابيكتيتوس الفيلسوف ان أدمِنوا فكر الموت . واعقب قولهُ بقولهِ : ان هذا الفكر يمنعكم عن ان تفكروا ابدًا فكرًا دنيًّا او تشتهوا شيئًا بافراط الرغبة والشوق . وقال افلاطون انهُ بقدر ما يتعمق الانسان في التلبُّث بالموت ويتوغَّل في التأمُّل فيهِ بقدر ذلك تَغزُر حكمتهُ وتتَّسع ولذلك كان يامر تلاميذهُ بان يمشوا حافين . مشيرًا بذلك الى انهُ في مدة سفرنا في هذه الحياة يجب ان يكون الغرض اي الموت باديًا على الدوام نصب اعيننا . الَّا ان المسيحيين المعتقدين بابديَّة الحياة الاخرة فيجب عليهم ان يضيفوا الى ذكر الموت ذكر الابدية . اما كون ذكر الابدية اكثر تاثيرًا من ذكر الموت فذلك يتضح مما بين الزمنيّ والابديّ من البون والخلاف . وانما ما كان يوجس الفلاسفة الاقدمين خيفةً وارتجافًا عند ذكر الموت كان هذا لا غير . وهو لانهُ بالموت كان ينتهي كل ما لهم في هذه الحياة الزائلة . مع انهُ بالنظر الى الاخرين قد كان الموت شيئًا شهيًّا لانهُ بهِ كانت تنتهي كل بلاياهم . فان كان الموت من شانهِ ان يرهب ويرعب لانهُ يسلبنا جميع الخيرات الارضية التي دأبها ان تُسلب منا بانواع شتَّى . بل ان تزول ذاتيًا قبل زوال من يمتلكها وهي ناقصة ومفعمة خطرًا ونجسًا ولهذا اشتاق الكثيرون بافراط الشوق الى الموت لانهم كانوا ينقذون

بهِ من البلايا الارضية . فما الذي يجب ان تفعلهُ فينا الابدية التي ترينا خيراتٍ لاقياس لعظمتها ولاحد لدوامها . وتتوعدنا بشقاء لا يحول ولا يزول

انهُ لما رام زينون الفيلسوف ان يجد واسطةً فاعلةً موثرةً لتهذيب حياتهِ وضبط حركاتهِ الحسية وحفظ واجبات الفضيلة ذهب الى صنمٍ ما ليستشيرهُ فيهِ . فقال لهُ الصنم : اذهب واستشر الاموات وما اشاروا عليك بهِ فاعملهُ انما بهِ تهذب سيرتك . لانك اذا رأيت وتاملت حال الأموات انهم قد عدموا كل ما كان لهم وبزوال حياتهم زالت كل سعادتهم . لابد من ان تستخف بالخيرات الزائلة وتحبس نفسك عن الافتخار بها . ومن ثم قد اعتاد قوم من الفلاسفة ان ياكلوا ويشربوا في جماجم الموتى . لكي يكون ذكر الموت ووجوبهُ باديين على الدوام بازاء اعينهم . وبهذا كانوا يداوون كل شهوة عالمية . فان كثيرًا من الملوك المعظمين اتخذوا ذكر الموت دواء لعزتهم الارضية . حذرًا من ان تُترفهم نعمتهم وسعادتهم فتفسد سيرتهم . وقد ذكر عن الملك فيلبوس المكدوني ابي الاسكندر الكبير انهُ امر احد خدامهِ بان يكرر لهُ في كل صباح ثلث مرات هذه الالفاظ : اذكر يا فيلبوس انك لبشرٌ وانك بالموت تترك كل شيء ولا بدَّ منهُ . ولذلك الملك مكسيميليانوس الاول صنع نعشًا لنفسهِ قبل موتهِ باربع سنين . وحيثما توجه كان ينقلهُ معهُ . وذلك لكي يسمع في نفسهِ على الدوام صوتًا غضيضًا مخفوتًا يقول لهُ بلسان حالهِ : اذكر انك ستموت

لا محالة وانك تفارق كل شيء . اما ملوك المشرق فمن جملة اعلام عزتهم
الملوكية كان لهم كتاب من ذهب يحملونهُ بيدهم الشمال عنوانهُ : البرُّ .
وكان ذلك الكتاب مملوًا ترابًا وغبارًا . وكانوا يشيرون بذلك الى ان
الانسان مائت والي الحكم الالهي القديم الذي قضى بهِ عليهِ : انك
تراب واليهِ ستعود . فحقًا انهم بحكمة اخترعوا شكل هذا الكتاب .
ايذانًا بما يحتويهِ ذكر الموت من المنافع والماعًا بانهُ لمدرسة نُصان بها من
الضلال والخديعة . وفي كون ورق الكتاب من ذهب وحملهِ باليد الشمال
التي هي الاقرب الى القلب سرٌّ . والدليل فيهِ على وجوب انطباع هذا
التعليم الكلي التقوى في القلب وعليهِ احسنوا اذ عنونوا هذا الكتاب
بالبر . لانهُ من ذا يجسر على ان يخطئ مع علمهِ بانهُ سيموت لا محالة .
هكذا ملوك الحبشة قد اجتهدوا في اقتباس هذا التعليم . لانهم لما كانوا
يكللون ملوكًا كان من جملة عاداتهم انهم يحملون وعاء مملوءًا ترابًا وجمجمة
انسان ميت . فكانوا يعلمون منذ الابتداء انهُ لا بد من ان ينتهي ملكهم
ويفنى . واقول اخيرًا ان الفلاسفة جميعهم قد قرَّروا هذه الحقيقة . بل
يسوغ لنا ان نقول ان الفلسفة كلها هي الهذيذ بالموت

والابدية هي مادة للتفلسف اعظم جدًّا من الموت . لان العذاب
الجهنمي الابدي من شانهِ ان يرعبنا ويخيفنا خوفًا اشدَّ بغير قياس مما
يخيفنا زوال اعظم ممالك العالم العتيدة ان تنقرض سريعًا . فان دوام
الشر وابديتهُ لشيءٌ أرعب من سرعة زوال الخير . وكون النفس غير قابلة

الفناء هو امرٌ اعجب جداً من كون الجسد عتيداً ان يموت . فمن اجل ذلك على المسيحيين ولا سيما الذين يرغبون الكمال ان يحسنوا معرفة الابدية افضل من أن يتعوَّدوا الخوف من الموت . ولقد كان يجب أن نردّد دائماً في ذهننا هذا الكلام المريع : الابدية الابدية . وانك سوف تموت ولا ريبة فيهِ وليس هذا فقط بل انهُ بعد الموت تنتظرك الابدية . فتذكر اذاً انهُ توجد جهنم ولا انتهاء لها . وانه يوجد مجد ابديّ ايضاً . فلا جرم ان اعتقادك بابدية المجد وابدية العقاب المعدتين لحافظيّ الناموس الالهي ومخالفيهِ وتذكرك اياهما يحثانك على حفظ الناموس افضل حثٍّ مما يمكن ان يحثك عليهِ التامل في سرعة زوال خيرات هذه الحياة . فردّد اذاً في ذهنك ذكر الابدية وليأخذ صوتها في مجامع فوادك . ولهذا قد اعتادت البيعة المقدسة ان تذكر الاساقفة عند ارتسامهم بذلك قائلةً لهم : تذكر الايام القديمة ولا تنسَ السنين الابدية . ولما يرقى الحبر الروماني الى درجة الحبرية العظمى يحرق امامهُ احد الاكليريكيين قليلاً من القطن قائلاً : هكذا يفنى مجد العالم ويتلاشى . وكان الغرض من هذه العادة اي احراق القطن بازاء عيني الحبر الاعظم ان يتذكر لهيب النار الابدية . وقد ذكر عن البابا مرتينوس الخامس انهُ امر بتصوير صورة رمزية شانها ان تشخص ناراً عظيمة ملتهبة يعلوها تاج باباوي وتاج ملوكيّ وقبَّعة كردينال . ويخيَّل فيها للرائي ان الكل يحترق ويتحوَّل الى رمادٍ سريعاً . والمع بذلك الى انهم ان لم يقوموا بواجبات وظائفهم حق قيام يحترقوا عماً

قليل في جهنم خالدين فيها . وقد اراد الحبر المتقدم ذكره ُ ان تكون هذه الصورة نصب عينيهِ على الدوام

ويجب ان تعتبر الان ان اسم ايساخر الذي باركهُ يعقوب ابوهُ اذ ارتاح الى اوسط الحدين المتقدم ذكرهما اعني العقاب الابديّ والمجد السرمديّ دليل على من يكون متصفاً بقوة ذاكرة . ويطلق ايضاً على انسانٍ ازمع ان ينال ثواباً عتيداً . وبهذا الاسم السريّ الرمزيّ رام الروح القدس ان يحرض ايساخر على ذكر الاجر الابدي . ولقد امر تعالى اسمهُ بان يُكتب اسم ايساخر حفراً في حجر الكرگهن الذي كان يحملهُ الحبر الاعظم في وشاحهِ وذلك لكي نفهم ما احبَّ هذا الذكر الى الله وأفودهُ لنا . وقد اعلن الله للرسول يوحنا الانجيلي ان هذا الحجر كان من قوائمِ وأُسس المدينة السمويَّة . وقال القديس انسلموس ان هذا الحجر يدل على ذكر الابدية التي هي اخص أُسس لبناء الكمال الانجيلي جميعهِ . ولعمري اننا اذا امعنا النظر في خواصِّ هذا الحجر نستدل بهِ على ذكر الابدية وعلى معرفة الخيرات الناجمة لنا عن تاملها . فاعتبر اولاً ان حجر الكرگهن يصيّر حاملهُ ساهراً مستيقظاً . والحال انهُ ما من شيء من شانهِ ان يجعلنا اكثر تيقظاً واحتراساً من التامل باننا سائرون بين هذين الحدّين . اعني بهما المجد الابدي والعذاب السرمدي . كيف لا ولا يمكن ان يستحوذ النُّعاس على من يجوز وادياً عميقاً جداً من طرف الى طرف اخر من فوق جسر من خشب عرضهُ نصف قدم لا غير . وتصدمهُ رياح عاصفة هائبة

من كل جهةٍ . ويكون هو في كل دقيقة على وشك السقوط وفي خطر الهبوط في تلك الهاوية المخيفة . فخطر هذه الحياة ليس باقل من الخطر المذكور لان الطريق المودية الى السماء هي ضيقة جدًّا . ورياح التجارب شديدة جدًّا وتعصف من كل جانب . واخطار اسباب السقوط كثيرة . واضرار الامثال الرديَّة وعثراتهـا عظيمة . وخداعات المشيرين مكرًا لا تحصى . اعتبر ثانيًا انهُ قد ذكر عن حجر الكركهن انهُ ليس من خواصهِ ان يجمل الانسان مستيقظًا فقط بل انهُ يدرأُ عنهُ الافكار الردية ايضًا . ولست اعلم كيف يمكن ان يدهم من يفتكر في الابدية فكرٌ ما رديّ . وكيف يمكن ان الذي يردّد في عقلهِ ذكر العقاب الابدي العتيد ان يحكم بهِ عليهِ اذا ارتضى بخطيةٍ مميتة يرخي لنفسهِ الاعنَّة لكي تتلذذ بفكر اللذات المحرَّمة . اعتبر ثالثًا ان حجر الكركهن يصون الانسان من السكر ويحفظ عقلهُ على حال صحة اصابتهِ وتمييزهِ . ولا ريب انهُ ما من شيءٍ يكفي عقل الانسان شرّ خُمار لذات هذه الحياة مثل ذكر الآخرة . اعتبر رابعًا ان هذا الحجر علاج فعَّال لمن يبتلع شيئًا مسمومًا . لانَّ الحجر المذكور يبيد قوَّة السم المميتة . ولا علاج يلاشي سم الخطيئة كما يلاشيهِ تامل الانسان في العقاب الجهنمي الذي يستحقهُ من اجلها . او ذكر الملك السماوي الذي يخسرهُ بسببها . اعتبر خامسًا ان الحجر المذكور يسكن سجس العقل . ولا شيء اشدُّ فعلًا وفاعلية لتسكين السجس الناشيء عن اشياء هذا العالم ولكبح شهوة الشح والعجرفة من التامل بالخيرات الابدية المعدة للمتواضعين

والمساكين بالروح . اعتبر سادساً ان حجر الكركهن يُوتي خصباً . هكذا هذا الفكر العظيم فكر الابدية ياتي الاعمال الصالحة بالخصب . لانهُ من ذا الذي يتامل بايمان حي ان كل الافعال الصالحة وان تمت بمدة يسيرة وتعب وقتي تستحق مجدا ابديًا ولا ينشط اذ ذاك ويتحمَّل الجهد في ان يفعل ويحتمل كثيرًا من اجل الله . فيالعظمة الاعمال التي اصدرها هذا الفكر المقدس اعني بهِ فكر المجد الابدي . ان انتصارات الشهداء والبتولات وتقشفات باقي القديسين صادرة عن هذا الفكر السماوي . فيالهُ فكرًا مقدساً وياهذا من حجرٍ رمزي يؤتي الضالين نورًا خلاصياً . ويشفي السقام شفاء تاماً ويسكن هيجان الشهوات ويثلم حدَّة الاميال ويلقي الخصب في قلوب المتوانيين الفاترين في العبادة بوفور افعال الفضيلة . فياليت المؤمنين يطبعونهُ على مصاحف قلوبهم طبعًا لا يمحى . لانهم لو فعلوا ذلك لرأينا في سيرتهم تغيرًا وتحسُّنًا سريعين وفي اعمالهم صلاحًا عجيباً . لانهُ ان كانت العواقب الاربع جزيلة التاثير في اصلاح سيرة الانسان فالابدية اكثر تاثيرًا منها . لانها اي الابدية بمنزلة امّ لها وتتضمن ما لباقي العواقب من التاثير والفاعلية

الفصل الرابع

في عظم شقاء حال الانسان المتناسي الابدية

انهُ قبل ان نشرع ببيان ماهية الابدية الكلي الضرورة لتهذيب السيرة . نكشف قليلاً عن ضلال بني ادم بنسيانهم الابدية ذهولاً

يرثى له . اذ انهم يتغاضون عنها مع انها تتهدَّدهم في كل دقيقة . وتقرب من كلٍ منهم كما قال احد الفلاسفة على ادنى من قاب قوس . لانهُ ايما بُعدٍ بين الموت والنوتي الَّا عرض دفَّة واحدة . وما البعد بين انسان سيّئ الخلق والابدية الَّا حدّ السيف . وكم يبعد الجنديّ عن نهاية حياتهِ الَّا رشق سهم او بلوغ رصاصة . وما يبعد اللص عن المشنقة الَّا مسافة السجن . واخيرًا كم تبعد الابدية عن رجل متمتع بصحة الجسم وعلى جانبٍ من القوة . لاشكَّ بعد الحياة عن الموت وهذا يمكن ان يفاجئنا بغتةً في كل دقيقة في طرق مختلفة . حقًّا ان حياة الانسان ليست شيئًا اخر سوى مسلك خطر يشرع بهِ على شفاء هوتة الابدية التي لا بدّ لكل ان يسقط فيها . فكيف اذًا نعيش متغافلين عنها

وهذا قد اوضحهُ القديس يوحنا الدمشقي بمثلٍ دقيق رقيق ضربهُ في هذا الصدد . عبَّر بهِ عن حال حياتنا تعبيرًا بليغًا . قال ان رجلًا فرَّ هاربًا من الوحش الوحيد القرن الذي كان بهدهدهِ يرجف الجبال ويسمع ضجيجهِ في الاوداء دويّ . وبينما كان هاربًا هكذا وهو لا يدري ولا يفطن لما ينتهي اليهِ اذا هو سقط في حفرة عميقة . ولحسن حظهِ مدّ يدهُ حالًا ملتمسًا ما يتعلق بهِ . واذا يدهُ علقت بشجرة نابتة في جانب الحفرة فاستمسك باغصانها استمساكًا وثيقًا . فهدأ لذلك روعهُ ومكث متعزيًا مسرورًا بنجاتهِ على النحو المذكور من ذلك الخطر المريع . ثم التفت متفرسًا باصول تلك الشجرة فابصر هناك جُرذَين ضخمين جدًّا احدهما ابيض

والآخر اسود وهما يقرضان اصل الشجرة حثيثاً بغير فتور . حتى كانت تستبين وشيك السقوط في اسفل تلك الحفرة . فاحدق بناظرهِ الى عمق الهوتة . واذا تنين مخيف تنبعث النار من عينيهِ ويتصفح فيهِ بنظرٍ مريع . متوقعاً سقوطه ليبتلعهُ حالاً . ثم صرف وجههُ الى حيث كانت الشجرة نابتة . فرأى اربع افاعي خارجات منها ينسبنَ اليهِ ليعضضنهُ ويلدغنهُ لدغاً مميتاً . ثم رفع الحاظهُ الى ورق هذه الشجرة فرأى انها تقطر قليلاً من العسل . فلما رأى الجاهل العسل خامرهُ الفرح العظيم والابتهاج الجسيم وتغاضى عن تلك المخاطر المحدقة بهِ من كل ناحية . وشرع يلعق من ذلك العسل السائل نقطة فنقطة . غير مُبالٍ بتنمر الوحش الوحيد القرن الذي ينتظرهُ من علو . ولا بشراسة التنين الذي كان يترقبهُ من اسفل . ولا بسمّ الافاعي المحدقة بجانبيهِ . ولا بضعف الشجرة القريب سقوطها . وذهل عن انهُ ان زلت قدمهُ انحدر الى اسفل الحفرة . وكان اليسير من العسل الذي قد انهمك باكلهِ كافياً لان يلهيهُ عن جميع هذه المخاطر . ففي هذه الصورة الرمزية نرى حال الذين يتغاضون عن الاخطار المفعمة منها هذه الحياة منهمكين في طلب لذات حواسهم

فاعتبر اذاً ان الوحش الوحيد القرن هو الموت الذي يناهز الانسان من يوم وُلد ولا يزال كذلك الى يوم يأون أجلهُ . اما الحفرة فهي العالم المملوكلهُ من الشقاء والشرور . والشجرة هي مدة حياتنا . والجرذان الابيض والاسود اللذان يقرضان الشجرة هما النهار والليل

اللذان يفنيان حياتنا شيئاً فشيئاً . والاربع الافاعي هي العناصر الاربعة المتالف منها الانسان . فمتى قوي احدها على الاخر او نقص عنها انهدم نظام جسدنا وانقضت حياتنا . والتنين الهائل والمرعب هو ابدية جهنم الفاغرة فاها على الدوام لتبتلع الخطاة . اما قطر العسل فهو لهو هذا العالم ومنتزهاته ولذاته . فالانسان الاحمق الغبيّ يتغاضى ويتغافل عن هذه المخاطر العظيمة المحدقة بهِ وينكبُّ على لذة وجيزة وقتيَّة . ولئن كان عدد اخطار الموت يوازي عداد اسبابهِ وانواعهِ وكل ذلك كافواه الابدية وابوابها . فترى الانسان لاهياً لاعقاً نقطة واحدة من عسل اللذات الارضية وان ازمعت أن تهوعه احشاؤهُ وتمزقها تمزيقاً الى دهر الداهرين

فيا لتفاقم جهل البشر وغباوتهم . انهُ إن دخل انسان غاباً نُصبت فيها شرك واخفيت مكامن خطرة . اذا وطيء احداها سقط حالاً على سيوف وحراب مرهفة او في فم تنين هائل مفترس . ورأى اناساً اخرين قد دخلوا معهُ فسقطوا في تلك المكامن وتقطَّعت اوصالهم وهلكوا ومع ذلك ظلَّ هو ماشياً مرحاً فيها راكضاً متغاضياً عن خطر نفسهِ . حقَّت عليهِ كلمة التوبيخ ودُعي جاهلاً غبياً . لعمر الله انك لأشدُّ جهالةً وغباوةً منهُ . لانك ترى صاحبك قد سقط في حبائل الموت . وجارك قد ابتلعتهُ الابدية . واخاك قد دسُّوهُ في القبر البلقع وحثوا عليهِ التراب وانت مع ذلك تستمر مطمئناً كانك كبرت عن ان يصيبك ما اصابهم . او كان الموت شيء غير موكد عندك . وكان يجب ان تستيقظ لكل

خطر ايًا كان وان خفيفًا . فكيف لا يجب ان تحترس كل جهدك بعد ان تحققت يقينًا انك سوف تلج جوف الابدية آجلًا او عاجلًا

لعجب ان الناس يتلافون بكل الاعتناء اخطارًا عالمية غير موكدة . فاذا شاع عن طريق أنهُ لا يؤمن فيهِ العابر من مكامن الخوارج واللصوص فلا يجوزه أحدُ الّا مدججًا بالاسلحة ومع رفقةٍ يستصحبهم . وان سمع بخبر طاعون يسعى سراعًا في تحصيل الادوية واعدَّ باجتهادٍ كلَّ ما تقتضيهِ صيانة نفسه من الخطر المفاجئ . واذا خيف جدبٌ وخشي محلٌ اذا هو يملأُ اهراءهُ حالًا . فلمَ اذًا لانحسن الحذر مع علمنا اليقين بحقيقة الموت والدينونة والجحيم والابدية . ولمَ لا نعدُّ شيئًا لذلك ولا نهبُّ ناهضين ولا نفتح اعيننا ونتشوَّف الى المخاطر المحدقة بنا . ونرى اين وكيف يجب ان نلقي خطواتنا لئلَّا تزلَّ قدمنا فنهلك . لان حال هذه الحياة هي خطرة جدًّا . وقد شبهها حسنًا احد العلماء بجسر ضيق لا يسع اكثر من قدمين . وتحتهُ وادٍ عميق مفعم حيات وحيوانات اخر سامَّة ضارية تقتات من لحمان الذين يسقطون فيهِ من على الجسر . ويحيط بالجسر بساتين ذات اشجار مورقة وينابيع متدفقة وقصور مشيَّدة مبهجة . أَما كان يدعى جاهلًا وغبيًا من كان يجتاز هذا الجسر الضيِّق وهو يلتهي متفرجًا على بهاء تلك الرياض وحسن تدفق تلك الينابيع وجمال تلك القصور ولا يحترس على نفسهِ ولا يدري حيث يضع رجلهُ وينقل خطواتهِ . او بالحري ما اجهل وأغبى اولئك الذين يعبرون طريق هذه الحياة متلاهين بملاهيها وخيراتها

الباطلة غير مهتمين باحكام خطوات اعمالهم

وقد ضاف الى هذا المثــل شيئاً اخر معلم حاذق قال : ان مُعظم الخطر في اخر الجسر المتقدم ذكرهُ . حيث المسلك اضيق ومن ثم فالنجاة من السقوط أصعب وأعسر . وهذه الخطوة الضيقة عبارةٌ عن الموت . فكن اذاً حسن الحذر والتَحفظ ما دمت حياً في الارض . وضع قدمك حيث تأتمن بهِ البلوغ الى الملكوت . حذراً من ان تزلّ رجلك عند الموت فتخسر الابدية . فيا ايتهــا الابدية ما اقل الذين يحسنون استعدادهم للقائكِ . يا ايتها الابدية ما اعظم خطركِ كيف لاتخافكِ النــاس . كيف لايعدُّون انفسهم قبل مفاجاتكِ . ان زمن هذه الحياة لقصير ووجيز جداً . ولقــد اوشكت القوة ان تخور وكادت الحواس تضعف وتوهَن . وسيُسلب الغنى ويضمحل اللهو والتنعم وسنخرج من هذا العــالم بعيداً . فلماذا لانتامل الان في ما يحلُّ بنا بعد الزوال والموت . اننا سنُرحَل الى وطن اخر . وكم ترى تكون مدة مكثنا بهذه الدنيا . فيا اسفاه على مَ لا نتروَّى هنا الان في ما سوف نفعلهُ هناك

فلكي نتفهَّم هذا المضمون حقَّ تفهُّم ونصبح بهِ فطنين . أحببنــا ان نورد مثلاً اخر اوردهُ القديس يوحنا الدمشقي قال : كانت مدينة عظيمة جداً ذات شعب لايحصى عددهُ . وكان من عادة هذا الشعب الَّا يقيموا عليهم ملكاً الَّا رجلاً غريبــاً لايعرف تلك المملكة ولا كيفيَّة تدبيرها . وكانوا في السنة الاولى من ملكهِ يتركونهُ يدبر الامور كما اراد ويصنع كُل

ما شاء . ثم بينما يكون مغبوطاً بملكهِ ظاناً انهُ يملك حياتهُ كلها. واذا الشعب يفاجئهُ بغتةً وينزعون عنهُ الكسوة الملوكيّة ويطوفون بهِ في شوارع المدينة عرياناً مهاناً . واخيراً يرحّلونهُ منفياً الى جزيرةٍ بعيدة مقفرة حيث كان يُصاب بالفقر والفاقة حتى لا يتيسر لهُ ان يجد ما ياكلهُ ولا ما يلبسهُ . وهكذا كانت تخيب امالهُ بتحوُّل سعادتهِ الى شقاء وغناهُ الى فقر وتبدُّل فرحهِ بالحزن وولائمهِ بالجوع وبرفيرهِ الملوكي بالعُري . فاتفق مرّةً انهم ملّكوا عليهم رجلاً ذا صيانة وفطنة وخبرة . فلمّا وقف من احد الوزراء على عادة هذا الشعب العديم الثبات والسريع التقلب . اخذ يفتكر في امرهِ ويتبصَّر بتدبير شأنهِ فلم يزهُ قلبـهُ عجباً بعزة العرش الملوكي الذي جلس عليهِ . بل اهتم مفرغاً جهدهُ في تدبير الامور بوجهٍ يفضي بهِ الى نوال قصـدهِ . حتى اذا حطَّ من الملك كالملوك الذين تقدموهُ ونفي الى الجزيرة المذكورة لا يموت فيها جوعاً . فلمّا استقرَّ لهُ الملك على الشعب وقبض على زمام السلطنة ارسل سرّاً الى تلك الجزيرة جميع خزائن تلك المدينة . فلمّا مضت السنة اتاهُ الشعب بغتةً واثاروا هيجاناً عظيمـاً وانزلوهُ من الكرسيّ الملوكيّ وبعثوا بهِ منفياً الى تلك الجزيرة كما فعلوا بمن سلفـهُ من الملوك . اما هذا الملك الحكيم فقد سار الى هناك بسرور وابتهـاج اذ كان قد سبق فارسل الى هذه الجزيرة كنوزاً وافرة . وفيها عاش عيش رغدٍ بعزةٍ وراحة لا كاولئك الملوك الذين اهلكهم الجوع . فهاك ما يحدث ههنا في هذا العالم . وها هوذا ما يجب ان يفعلهُ كل ذي فطنة وحكمة .

لان في المدينة المتقدم ذكرها اشارة الى هذا العالم الجاهل الباطل السريع التغير والتقلب . الذي اذا ظن احد نفسهُ انهُ جالس فيهِ على سدة الملك جلوساً ثابتاً مكيناً . يهجم عليهِ بغتةً ويعريهِ بالكلية من راسهِ الى قدميهِ ويدسهُ هكذا عرياناً في حفرة القبر . وذلك في وقت لايعلمهُ ويوم يكون منهمكاً اكثر انهماكٍ في اللذات والتنعم . متمتعاً بالخيرات الزائلة كانها خيرات راهنة دائمة متغاضياً عن الابدية البلدة البعيدة من فكرهِ بعداً شاسعاً جداً . حيث يجد نفسهُ عرياناً مجرداً من كل خير . مهملاً من الجميع . عائشاً عيش القنوط في ارض الظلمة وظلال الموت . فالحكيم اذاً من تامل بتانٍ قبل ان يخرج من هذا العالم عرياناً في ما سوف يلم بهِ بعد زمن يسير . واعدَّ نفسهُ للانتقال الى العالم الاخر . وحافظ على زمان هذه الحياة وراعاه ليجدهُ في الابدية . ورتَّب حياتهُ وزيَّنها بالافعال الصالحة المقدسة افعال التوبة والصدقة والمحبة . ونقل كنوزهُ الى البلدة التي يجب عليهِ ان يسكنها الى الابد . وقد قال القديس غريغوريوس عن تامل الابدية . انهُ قد عُبِّر عنهُ بحانوت الخمرة الجيدة حيث ادخل العروس الالهيّ عروسهُ ورتب فيها المحبة . لانهُ كما قال القديس المتقدم ذكرهُ . كل من يتامل جيداً الابدية يسوغ لهُ ان يقول عن نفسهِ انهُ يرتب في ذاتهِ المحبة . فيحب ذاتهُ قليلاً ويحب الله فوق كل شيء . ولايحب شيئاً اخر الَّا حباً بهِ تعالى . ولايستعمل ما كان اكثر ضرورة نظراً الى الحياة الزمنية الَّا بنيةٍ متجهة الى الابدية

الفصل الخامس

في ماهية الابدية على حسب ما قال فيها القديس غريغوريوس النزينزي والقديس ديونيسيوس الاريوباجي

فلنبتدئنَّ اذًا بشرح أمر لا يمكن شرحهُ وتفسيرهُ . ولنستفهمنَّ على نوعٍ ما ولنبحثنَّ بعض البحث عما يفوق طورَ كل ادراكٍ مخلوق . حتى اذا وقف المؤمنون على حقيقة الابدية . بل اذا اضحى جهلهم لها اقل يُصدون عن ارتكاب المنكر ولا يهملون عملًا من اعمال الفضيلة . قد ذكر عن اغريبينا الرومانية والدة نيرون الملك انها لما اطلعت على تبذير ابنها الذي كان يبذّر الاموال وينفق الفضة والذهب على وجه الاسراف كانهما بمنزلة التراب رامت ان تردهُ عن تفريطهِ هذا . ولما اتفق ان الملك ابنها امر يومًا بان يُعطى رجل ثلثمائة الف قرش . وعلمت بذلك اخذت المبلغ المذكور وبسطتهُ قطعًا متفرقة على مائدة وارتهُ ابنها جملةً لكي يبصر بعينهِ مقدار العطية المتجاوزة الحدّ . لعلهُ يرتد بذلك عن جهلهِ مصطلحًا . فهذا الجهل هو عين جهل بني آدم ولا دواء لهم الّا ان نضع بازاء اعينهم ما يبذرونهُ باطلًا ويخسرونهُ عبثًا لاجل شهوة تخالف ما أمر بهِ الناموس الالهي . ويذهلون عمَّا لا نهاية لهُ بغيةً لما لا يدوم سوى دقيقة واحدة من الزمن . فعليهم اذًا ان يعلموا ايَّ أمرٍ لا نهاية لهُ يستمر دائمًا . هو الابدية . الّا انهُ من يكشف لنا غوامض الابدية أو من يشرح لنا كنهها الخفيَّ وهي كبحرٍ زاخر غير محدود لا يمكن

الوصول الى قعرهِ . او كلجةٍ قائمة الاعماق تغور فيها كل قوة العقل البشري . ان الابدية هي زمن وجودي كائن دائماً ليس لهُ ماضٍ ولا مستقبل وليس فيها توالٍ . وهي دائرة متصلة مركزها في كل جزء من اجزائها . وهي سنة مستطيلة جداً دائمة الابتداء عديمة الانتهاء . واقول على وجه الاطلاق ان الابدية أمرٌ لا يتيسر لنا ان ندركهُ ويجب علينا ان ندرسهُ ونتأملهُ دائماً . فلنوردنَّ الآن ما قالهُ فيها الاباء القديسون . فالقديس غريغوريوس النزينزي عوضاً عن ان يعرّف الابدية ايجاباً (قائلاً ما هي) . اورد تعريفها سلباً مفصحاً عمَّا ليست اياهُ . قال ان الابدية ليست زمناً ولا جزء زمن . لان الزمن واجزاءهُ شيءٌ عابر . اما الابدية فلا تعبر ولن تعبر . لان جميع العذابات التي تلم بالنفس لا تُثلم حدّتها بعد الوف وربوات من السنين بل تبقى كما كانت على حدٍ سوى فكأن الايام تشحذها . وكذلك النعيم الذي تتمتع بهِ النفس في الملكوت السماوي لا تخلق جدتهُ ولا يزول منهُ شيءٌ ولئن كان الزمن من شأنهِ ان يرسخ ملكة ويزيل أُخرى ويذلّ صعاب امور ويصعّب أُخرى ويردُّ بالعادة سهلاً ما كان يبين عسراً وطوراً ييسّر للُيسر وآونةً للعُسر . فالابدية تستمر دائماً على حال صحتها وكمالها لا يزول منها شيء ولا يعتريها نقص اصلاً . لكنها تلبث كلها على هيئةٍ مستمرةٍ وحالةٍ واحدةٍ فسرورها لا يخالطهُ ضجر . وعذابها ليس لهُ علاج . وعليهِ قال القديس ديونيسيوس الاريوباجي ان الابدية شيءٌ لا يتغيّر ولا يحول ولا يعتوره فساد . ولهذا قال الحكيم

اذا سقطت الشجرة يميناً او شمالاً فحيثما تسقط تثبت . فان سقطت كعود وقوداً في عمق اللجة فتحترق دائماً كما انك تستمر على الدوام ساقطاً وليس من يقيمك أو ينجيك . وما دام الله الهاً تستمر هناك ساقطاً لا يمكنك ان تنقلب من جهةٍ الى اخرى

فالابدية غير قابلة التغير لانها لا تتحمل الانتقال من حال الى حال وهي غير قابلة الموت لكونها غير قابلة الانتهاء . وهي غير قابلة الفساد لانها لا تتحمل نقصاً . ان بلايا هذه الحياة وضيقاتها وان كانت شديدة قاسية فانها لا تخلو من أن تخف بالتغير أو تنتهي بالموت أو تنقضي بالفساد . وفي ذلك تعزية وسلوى . وليس من ذلك شيء في العذابات الابدية فلا تخف بالتغير ولا تداوى بالانتهاء ولا تعالج بالنقص . فان كان المنّ الاسرائيليّ الذي كان اكثر من جميع الاطعمة لذةً واجزل نفعاً قد كره الاسرائيليون اكله لمجرد مداومة استعماله . فما عساه يكون من اشد العذابات التي لا تحول عن حالها . فالحمى اذا حصلت على غاية اشتدادها تفتر وتنقص شيئاً فشيئاً . اما العذابات الابدية فتُستثنى من هذا القانون العام . فعذابات قاين التي تنيف مدتها على خمسة الاف سنة . هي الان كما كانت في الابتداء وستكون بعد خمسة الاف سنة اخرى كما هي الان . ودوام الامها وثباتها على حال واحدة يضاهيان دوام مجد الله وثباته الغير المتغير . فتحيا اذاً الاشقياء ولكن لكي يعاقبوا . ويموتون وذلك لئلا يتنعموا فلا يفوزون براحة هذه الحياة ولا بانتهاء

الموت . فتأمل الآن بعكس الامر ما أسعد حظ من يموت خليلاً لله .
لان مجده سيكون غير قابل الزوال والتغير . فلا يفشاه خوف من ان
ينقص مجده او ينزع عنه اكليله . ويوم تنعمه يكون يوماً ابداً ثابتاً وسروره
يبقى جديداً الى ابد الابدين . فسعادة القديس ميخائيل رئيس الملئكة التي
ابتدأت منذ ستة الاف سنة هي الآن كما كانت قدماً وستكون لديه
جديدة بعد ستة الاف سنة كما هي الان

الفصل السادس

في ماهية الابدية على راي بويسيوس الفيلسوف المسيحي وبلوتينوس

قال بويسيوس المسيحي ان الابدية هي تملك حياة غير متناهية
تملكاً كلياً تاماً . وهذا التعريف ولو انه بالوجه الاول والاخص يلاحظ
ابدية الله . الا انه قد يمكن ان ينطبق على ابدية الخلائق الناطقة المتمتعة
بها . لانها تمتلك خيرات فائقة في حياة غير متناهية امتلاكاً كاملاً تاماً .
وبالصواب ندعو ابديتهم امتلاكاً من حيث انه ما من ملك اتم وافضل
كمالاً من الفوز بالسلطان المطلق على ذلك الشيء مع امتلاكه . فانه
من أودع شيئاً على سبيل الرهن او العارية فقد يتمتع به . الا انه ليس له
ما لصاحب ذلك الشيء من السلطان عليه . وعنى بقوله امتلاك مطلق .
انها امتلاك جميع الخيرات معاً خلواً من فوات احدها . فان امتلاك هذه
الخيرات لا يقتضي تملك شيء منها بعد الآخر . اذ يتيسر امتلاكها كلها معاً .

ولا يجري الامر في حياتنا هذه على هذا المنوال الجزيل الاعتبار . لانهُ ولئن تمكّن احدٌ من امتلاك جميع الخيرات . فيستحيل عليهِ ان يتمتَّع بها كلها معاً . لكنهُ اذا تمتَّع متلذّذاً بخير واحد . لزمهُ ان يتوقَّع خيراً آخر اذا رام التمتع بهِ . فالملك اليوغابل احد القياصرة الذين سعوا في طلب اللذات الارضيــة باشدّ اجتهاد . كان يبــذل جهدهُ وجدَّهُ في ان يتمتَّع بكل الخيرات واللذات معاً . ومع ذلك فكان على الكثير وبالكد الكلّي يستطيع ان يتمتَّع بزمن واحد بثلث لذات او أربعٍ معاً . لانــهُ اذ كان يتمتَّع بلذة الأكل والشرب لم يكن بوسعهِ ان يتمتَّع بملاهي الرقص او الصيــد او اللذات اللحمية . ولذلك اذ كان يلتمس لذةً وجب عليهِ ان يترك الاخرى . فضلاً عن انهُ لم يقــدر ان يحصل على جميع اللذات اذ كان يحرم لذاتٍ خصوصية كان يتمتَّع بها اكثر الناس بل كان لا يمكنهُ ان يستمتع معاً وفي زمن واحد بالخيرات التي كان هو نفسهُ يمتلكها . اما الصديق في الملك السماوي فلا يحصل على خير بعد خير . لانهُ يمتلك جميع الخيرات ويتلذّذ بها كلها معاً . ثم ان امتلاك الصديق السعادة الابدية هو كامل ايضاً من جهة اخرى . وذلك لانهُ من الممتنع ان يكدّرهُ في امتلاكها احدٌ . لا بطريق الخصومة ولا بسبيــل الاختــلاس ولا بنوع آخر . ولهذا قال بلوتينوس ان الابدية حياة كاملة تستغرق الازمنــة واللذات كلها وتستوعبها معاً . امّا حياة السمع فتكون في الملكوت كاملة بسماع الترانيم الموسيقية . وحياة الشم فتكون كاملة باستنشاق الروائح الذكيــة .

وحياة النظر فتكون كاملة بمشاهدة اجمل ما يكون في الاشياء المخلوقة . وحياة الفهم فتكون كاملة بمعرفة الخالق . وحياة الارادة فتكون كاملة بمحبتها اياه تعالى وتمتعها بهِ وتلذذها بحضرتهِ جلّت عزتهُ . واما الحياة الزمنية فلا يمكنها ان تحصل على هذا الملء من الاستلذاذ . لان حركة حاسة واحدة تصد حاسة اخرى عن حركتها . وتلذُّذ الجسد يحول دون تمتع الروح بلذتهِ . اما في السعادة الابدية فتكون الحياة كلية تامة . والامتلاك كلياً والاستلذاذ كذلك . فلا نقص في القوى ولا عجز في النفس ولا قصر في الزمان يمنع الصديقين عن التمتع الكلي والتلذذ التام بكل قواهم معاً

اما حال الخطأة الاشقياء فعلى خلاف ما ذكر . لانهُ يغشاهم في شقائهم الابدي من الشر عين ما يتقلَّب فيهِ الابرار في سعادتهم الابدية من الخير . فان اولئك بئس الحظ حظهم انهم يلقون دحوراً جسداً ونفساً في العذابات لا كانهم في شيء اجنبيٍ عنهم او مستعار . بل كانهم في شيء يمتلك امتلاكاً ولا يمكنهم ان يتنزلوا عن هذا الملك او يحوّلوهُ الى آخر . وليسوا ممتلكين الشر والعذاب الابدي على هذا النحو فقط . بل ان هذا الشر والعذاب هو نفسهُ يستحوذ عليهم ويمتلكهم امتلاكاً لان حواسهم واعضاءهم وكل اوصال اجسادهم وكل قوى انفسهم الروحية تستحوذ عليها المرارة والالم والشقاء والرّجز واللعنة . فليس شقاء وبلاء الّا حلَّ هناك . فالذوق ثم يُبلى بالمرارة . وشهوة الاكل تمنى بالجوع . واللسان يؤلمهُ

العطاش . والنظر يغشاهُ الخوف . والسمع تعريهِ الرعبة . والشم تعذّبهُ النتانة . والقلب يغمّهُ الضيق . والمخيلة يخامرها الارتياع . والاحشاء تتلظّى على لهيب نار محرقة . وعلى الاجمال نقول ان كل جزء لا يخلو من وجع والم . وكل هذه العذابات كأنها طوفان عرمرم تهطل على الخطأة دواماً . فان كانت نقطة من الماء الساقطة على صخرةٍ مدةً تبقي فيهِ اثراً ظاهراً . وان كان طوفان اربعين يوماً كفى لابادة الارض واهلاك كل حيّ . فماذا ترى اذا انزل عدل الله على الهالك ناراً وكبريتاً لا اربعين يوماً فقط بل ما دام الله الهاً . وهذه الحال الشقية تكوّر على الهالك جميع الشرور معاً وفي زمن واحد . وكثرة العذابات هذه لا تثلم حدَّة الحس ولا ينقص الانتباه اليهِ والشعور بهِ . بل لا يزال الهالك مستيقظاً منتبهاً لكل العذابات . شاعراً بها جميعها كأنهُ في عذاب واحد . فالنار مثلاً لا تحرق العظام والقلب والحشى فقط . بل انها تحرق النفس عينها ايضاً حرقاً مؤبداً لان امتلاك النفس هذا الشقاء يكون كلياً كاملاً . فكلياً لانها تكابد جميع العذابات . وكاملاً تاماً لانها تكابدها بكل حواسها وقواها القابلة التألم

الفصل السابع

في ايراد ماهية الابدية على حسب تعليم القديس برنردوس

ان القديس برنردوس في عظتهِ الاولى لعيد جميع القديسين اوضح

ماهية الابدية على نوع آخر . قال ان الابدية تستوعب كل الازمنة ماضية وحاضرة ومستقبلة . فلا تكتفي بالايام والسنين والدهور . لكنها تستغرق كل الازمنة الممكنة . بل هي أهلٌ لان تستوعب اكثر من ذلك . هذا والابدية تشتمل كل زمان . ولهذا قد دعاها احد المعلمين زمناً ابدياً . وقال فيها احد رهباننا وهو ليونردوس لاسيوس انها لطويلة وقصيرة معاً . فقصيرة تتناول من الزمن في دقيقة واحدة كل ما يمكن ان تشتملهُ في زمن غير متناهٍ . فكما ان الزمن دقيقة عابرة سريعة الزوال اذ ليس غير الدقيقة الحاضرة العابرة . كذلك الابدية ليست شيئاً آخر سوى دقيقة واحدة تستمر ثابتةً . فجميع الازمنة بالنظر اليها تعبر وتجوز واحداً بعد واحد . اما الابدية فتستمر حاضرة لكل زمان بغير تغيّر . فالزمن وكل شيء زمني يشبهان نهراً تجري مياههُ بعزم شديد . فتتعاقب امواجهُ بسرعة عظيمة لا تنفك متحركة متغيرة . اما الابدية فهي كحجرٍ صلد او كارض تجري من فوقها المياه وهي لا تزال ثابتةً غير متحركة بينما المياه تجري فوقها ويتعقّب بعضها بعضاً وتتوارى عن النظر وتضمحل شيئاً فشيئاً . وتشبه ايضاً نقطة وسط دائرة . يُلاحَظ منها على حدّ سوى كل الدائرة وكل جزء من اجزائها . كذلك الابدية فانها مُدَّةٌ تعادل ازمنة غير متناهية . وتوازن كل دقيقة منها على حدتها وكل الازمنة المستقبلة التي سوف تكون . وتشملها حاضرة معاً على نوع عجيب

ومن ذلك ينتج امرٌ يليق بالاعتبار . وهو ان الخير المزوجة بهِ الابدية

يزداد بها ثمنا ويكتسب قدرًا عظيمًا وذلك على نوعين . كذلك الشر الملازم
ابدية العقاب يصير بهـا في نهايةٍ من الشر والبؤس . وذلك على نوعين
ايضًا واولًا ان كلاً من الخير والشر ليس لدوامهِ حدّ او نهاية . لان عظمة
الشيء تزداد بقدر ازدياد دوامهِ . ومن ثم فالشيء الذي يدوم الى زمنٍ
غير متناهٍ يكون اكثر اعتبارًا . وهكذا الشر الغير المتناهي في دوامهِ .
فانهُ مهما كان خفيفًا في ذاتهِ فيفوق كل شرّ متناهٍ في دوامهِ وإن
كان عظيمًا في ذاتهِ . فلو خُيِّر مثلًا احد بين ان يكون في وسط اتون نار
ملتهب ويبلى بكل الامراض المعروفة من الاطباء ويكابد جميع ما قاستهُ
الشهداء من العذابات ويحتمل ذلك مائة الف ربوة من السنين غير انهُ
بعد انقضاء الزمن المذكور تنتهي اوجاعهُ وعذابهُ . اوان يحتمل ألم
الصداع فقط ولكن الى الابد خلوًا من رجاء انتهـائهِ . فلقد كان يجب
عليهِ ان يختار جميع العذابات المتقدم ذكرها ولا يوثر هذا العذاب الاخير .
لانهُ ولئن كانت تلك اعظم شدةً فإنَّ هذا يفوقها دوامًا وبقاءً

فليأتِ الآن متمنو الاشياء الزمنية ومعتبروها . وليجيبوني عما اوردهُ
مثبتـًا بادلة الصواب فاقول . لو امكن الامر ان تقـاسي عذابات جهنم
القادحة بشرط ان تكون زمنية . لقد كان يجب ان نختـارها ولا نرتضي
بالمٍ ابدي وان كان خفيفًا . فلمَ اذًا لا نحتمل بصبرٍ ضيقـةً ما خفيفـة
مدة وجيزة كمـدة هذه الحياة احترازًا من ان نكـابد العـذابات
الجهنمية الى الابد . كيف لا نرتاع لعذاب جهنمي مؤبد ونخاف من المٍ

زمنيٍ . لِمَ لانمارس افعال التوبة . لِمَ لانحتمل شدائدنا بصبر . لِمَ لانقبل برضى اعظم الاوجاع في هذه الحياة خيفةً من احتمال المٍ واحد ابدي وهذا ما يمكنا ان نقولهُ في الخيرات ايضاً . فلو كان في اختيارك ان تتمتَّع بكل كنوز الارض وجميع لذات الحواس مدة ربوات من السنين ثم تنتهي وتنتهي حياتك الزمنية . فقد كان ينبغي ان نوثر عليها لذةً واحدة ابدية . فكيف اذًا تبذل جميع اللذات العظيمة المعدة لك في السماء لتتمتَّع بها الى الابد بلذةٍ عابرة ارضية . انهُ لقد كان يجب ان نبذل جميع الخيرات الزمنية لنربح بها خيرًا واحدًا ابديًّا . فلماذا لانربح كل الخيرات الابدية بصدِّنا حيناً عن خيرٍ ما زمني . ولكي نورد هذه الحقيقة ايرادًا موثرًا فاعلًا بقدر الامكان نقول : انهُ بفرض المحال لو كان كون الله زمنياً فقط لقد كان يمكن ان يفضل عليهِ كون آخر ابديٌّ . ومع هذا كله فيرضى البخيل ويقتنع بكنزهِ الارضيّ الذي يسلبهُ منهُ الموت غدًا او تختطفهُ اليوم اللصوص . ولايبالي بالفوز بتلك الكنوز السماوية الابدية . ولعمري انهُ لو يعدنا الله في الحياة الاخرى بلذة حسّ واحد من حواسنا تكون ابدية لوجب علينا للفوز بها ان نترك جميع لذات هذه الحياة . فما اعظم تفاقم جهل البشر وغباوتهم . ها هوذا الله يعدنا بلذات غير متمدّدة وغير متناهية . ولانرغب من اجلها في ان نباين لذة واحدة من اللذات الارضية

ثم ان الابدية لها خاصة اخرى وهي انها لاتحتوي على الزمان

المستقبل فقط . بل على الزمان الماضي ايضاً وان كان قد عبر . ولهذا
يسرّ القديسون الذين هم الان في السماء لا بالمجد المتمتعين بهِ الان
ولا بالذي سيتمتعون به بعد فقط . بل يفرحون ايضاً بالمجد الذي فازوا بهِ
الى الان . ولا يزالون يهنّئون انفسهم بفضائلهم وافعالهم الصالحة .
وبالنتيجة ان سعادتهم تشتمل على كل الازمنة وعلى جميع الخيرات .
ماضيةً وحاضرة ومستقبلة . فما ابعد الفرق بين هذه الخيرات الابدية
والخيرات الزمنية . لان الخيرات الزمنية من شأنها ان لا تسمح للانسان
ان يتلذذ بها . لانهُ ما من خير او سرور زمني الّا افسدهُ نقص او خالطهُ
نحس او خطر . ثم لا يقدر الانسان ان يصيب لذةً من الخير الزمني
المستقبل . لان ادراكهُ والفوز بهِ امرٌ يحوم حولهُ ريب وشك . فضلًا عن
انهُ لا يتلذذ بالخير المستقبل . فخوفهُ من الّا يدركهُ يعكر صفاء ملذتهِ
بالخير الحاضر . ويمنع القوّة الذاكرة عن التعزية بذكر الخير الماضي
بل ان الخوف من فقد الخير الحاضر من شانهِ ان يصدر الماً في النفس
يعدل في شدتهِ فرط لذتهِ

واقول بالاجمال انهُ كيفما اعتبرنا الخيرات الابدية نراها الخيرات
العظمى فيجب من ثم ان نرتاح اليها . ونفرغ جهدنا كلهُ في اكتسابها
ولو بذلنا للظفر بهِ كل خير زمني . والواسطة الجزيلة النفع لبلوغ هذا
الغرض هي ان نتأمل في الابدية في هذه الحياة تاملًا مواترًا ما استطعناه
وذلك بممارسة الفضائل الثلث المعينة من القديس برنردوس في عظتهِ

الاولى في عيد جميع القديسين حيث يقول: انه بالفقر والحلم والبكاء تتجدَّد في النفس على نوع ما صورة الابدية الشاملة كل الازمنة . لان النفس تتأهل بالفقر للمستقبلات . وتربح بالحلم الحاضرات . وبالبكاء تحصل ثانيةً على الماضيات اه . وحقاً ان من يعتبر الابدية ويستعظمها يجب عليهِ ان يبذل جهده الجهيد في ممارسة هذه الفضائل الثلث . وذلك اولاً بتجرده من كل خير زمني بواسطة الفقر الروحي وببذلهِ الزمني لربح الابدي . ثانياً بالحلم والصبر مواظباً على فعل الخير وعلى الظفر بصعوبة الفضيلة . متأملاً عظمة الاجر المعد لتعبٍ يسير . لانهُ من ذا الذي يرى السماء وجهنم مفتوحتين . ويتأمل ابدية وجودهِ المستقبل في احداهما . ولا يقوى قلبهُ متشجعاً ويختار ان يجتاز بالنار والماء حباً بخلاصهِ . قد خبرنا المعلم روفينوس ان احد الرهبان اتى رئيسهُ ليكاشفهُ بحال نفسهِ فقال ان دوام السكنى في مخدعهِ يسبب لهُ ضجراً وحزناً عظيمين فاجابهُ الرئيس الحكيم قائلاً: اعلم يا بني ان سبب ضجرك هو انك لا تتأمل العذابات الابدية التي تتهددك . ولا الافراح الدائمة التي ينتعش بها قلبنا . فلو كنت تردد في ذهنك هذه الامور لكنت تلبث في حجرتك بغير حزن وضجر وان استأكلك الدود وعلت كتائبهُ هامك . اما الفضيلة الثالثة التي يلزمنا ان نمارسها فهي التوجُّع الناشىء عن العبادة . وبهِ تجتهد النفس في ان تكفر عن خطاياها السالفة بانسحاق القلب والدموع السخينة والاسف . لاننا بالتوبة نربح ابدية الخيرات التي خسرناها

بالخطيئة . فلا نبالينَّ اذًا بالمثل الدارج القائل ان ما صار لا دواء لهُ ولا رجوع للماضي . فان قوة هذه الفضيلة اعني بها فضيلة التوبة لعظيمة جدًّا . حتى ان قوتها وفاعليتها تمتدان الى الماضي . فتمحو الخطايا الماضية وتزيلها كانها لم تكن

الفصل الثامن

في ان الابدية عديمة النهاية

ان كل ما تقدم من ايضاح حقيقة الابدية وتعاريفها . لا يكفي المتأمل مؤنةً لان يفهم سمو عظمتها فهمًا جيدًا . ومن ثم يسوغ لنا ان نقول عنها ما قالهُ سيمونيدس الفيلسوف لما سألهُ جيلون ملك سيسيليا عن هذا الامر فطلب اليهِ ان يمهلهُ يومًا يتأمل فيهِ في ما يجيبهُ بهِ عن هذا المشكل ولما انقضى اجل ذلك اليوم قال انهُ يحتاج الى اوفر مهلة فأمهلهُ يومين آخرين . فلما مضت المدة المؤجلة طلب ايضًا اربعة ايام . واذ انقضت هذه ايضًا اجاب انهُ كلما تبحر في هذا الامر اتسعت مادة التأمل فيهِ والتبست عليهِ صورة ايضاح المشكل . فهذا نفسهُ يمكننا ان نقولهُ عن الابدية التي انما هي لجة عميقة يغور في تيَّارها عقل من غاص فيها بالتأمل ويأخذ منهُ الانذهال والتحيّر . وكما ان القديس ديونيسيوس يقول في شان الله انهُ لا يُعبَّر عنهُ بكلام ايجابي واقع جوابًا لقولك ما هو . وانما بكلام سلبي واقع جوابًا لقولك ما ليس هو وما يسمو عليهِ شانهُ عزَّ وجلَّ . كذلك الابدية لنا ان نصفها في تعريفها بما لم تكنه وما تفوقهُ فواقًا فالابدية

اذاً ليست زمناً ولا مدةً ولا اجيالاً ولا ربوات من الاجيال . بل هي فوق ربوات الاجيال وكل زمن وكل مدة . فحياتك اذاً هذه التي تتنعم بها والتي سوف تنقضي بعد هنيهةٍ ليست بابدية . وقوتك هذه التي تتباهي بها ليست بابدية . كذلك املاكك وكنوزك التي تفتخر بها واعزاء العالم المقتدرون الذين تعتمد عليهم فليسوا بابديين ولا هذه الخيرات التي تسر الان بها . لان الابدية شيء اعظم من كل ذلك . والاشياء الابدية تتعالى عن هذه كلها فانها تسمو على الممالك وعلى كل سعادةٍ عالمية . ولذلك قال لاكتنسيوس وغيرهُ من المعلمين في تعريفهم اياها تعريفاً انكارياً . ان ما ليس لهُ انتهاء هو ابدي . او ان الابدية هي شيء غير خاضع للتغير . او هي شيء لاشبيه لهُ . اي انها شيء غير محدود وغير قابل التغير وفوق كل تشبيه

فنظراً الى تعريفها الاول اي نظراً الى كونها عديمة النهاية . قال الانبا كيساريوس ان الابدية هي نهار لامساء لهُ فكوكب القديسين لا يغيب ابد الابد . ونجم غبطتهم لا يميل الى الغروب . اما ابدية الخطاة فهي ظلام موت لا يضيء فيهِ نور الشمس ابداً . وأفق عذابهم لا يلمع فيهِ برق امداً ولا يبسم لهم فيهِ ثغر الرجاء . لانهم يقيمون الى الابد في ظلام مقتمٍ مدلهمٍ حيث تحترق اجسادهم وتستكلب انفسهم على الدوام . فان كان المبلو بالحمى الفاقد لذة الوسن . يحتسب كل ساعة من ليلهِ عاماً بل اكثر . وان كان على فراش ممدود ناعم . فماذا تكون حال

اولئك الذين يطرحون على فراش من لهيب في ليلة ابدية لا يرجون لها صباحاً. اولئك كانوا في هذه الحياة نياماً حين كان يجب عليهم ان يكونوا مستيقظين. وقد شبه الاقدمون عدم تناهي الابدية بحلقة الخاتم. وعليهِ اجاد المرتل بتشبيه الابدية باكليل. لان الاكليل مستدير كدائرة الخاتم لاحد لهُ ولا نهاية كما لحظ ذلك الانبا ديونيسوس الكارتوسي. وهذا دليل على ان افعالنا الصالحة واعمالنا الرديئة تُجزى ابدية لا نهاية لها. ولعمري انهُ لكان الواجب ان نرتعد فرقاً عند قرآءتنا او سماعنا كلمة لا نهاية لهُ منسوبة للجزآء المعد للافعال الشريرة. وان نبتهج متهللين اذا قرأنا او سمعنا بان ما لا نهاية لهُ معدٌّ للاعمال الصالحة. وفي بيان هذا قد ضرب القديس بوناونتورا مثلاً قال. لو ان احد الهالكين يقطر من عينيهِ كل مائة سنة دمعة واحدة وتحفظ دموعهُ كلها الى ان يتكوّن منها بحرٌ عجاج بعد الوف الوفٍ وربوات ربواتٍ من السنين. فترى كم سنينٍ ودهورٍ تمضي ولا يتكوّن من دموعهِ بحر عظيم بل سيلٌ واحد لا غير. فلو فرضنا ان تكوّن بحر كهذا من دموعهِ بمرور دهور لا يحصى عددها. فهل تكون الابدية حينئذٍ بالغةً نهايتها. كلّا. بل حينئذٍ تبتدئ. ولئن استهلّت مرةً اخرى على النوع المذكور من عيني الهالك دموعٌ تقطّر منها بحر آخر في مدةٍ توازي مدة تلك الدهور. فلا تكون الابدية حينئذٍ بلغت نهايتها. بل انما تكون في ابتدائها لا غير. ولو كرر ذلك عشر مرات او عشرين مرة او مائة الف مرة اخرى. فتقطّر من الدموع تلك مائة

الف بحر اخر . لِما بلغنا بعد الى عمق الابدية . بل انما نكون على شطّها لاغير . فيقصر علم الرقم عن احصاء سني الابدية ولا يقوى الحساب على عدها . حتى لو افترضنا ان السماوت كلها استحالت الى ورق رقٍ . ومُلِئَت كلها الى اطرافها من اعداد الرقم . لم تكن تحوى من الابدية الّاجزءًا صغيرًا . لقد زعم قوم من الفلاسفة على عهد اركيمدس ان رمل البحار غير متناهٍ . وقال آخرون انهُ متناهٍ الّا انهُ غير محصىً . فاخذ اركيمدس يورد غلط الفريقين . فألف كتاباً قدمهُ لجيلون ملك سيسيليا مبرهناً فيهِ . انهُ لو كان العالم كلهُ مملوًّا من الرمل لكان عدد حباتهُ متناهياً محدودًا ممكنًا إحصاؤُهُ . ثم قام بعد هذا الفيلسوف الانبا كلافيوس اليسوعي . فأورد برهانًا رقميًا موضحًا بهِ كم حبة رمل تملئ كل الفضاء الذي بين الارض والسماء . وقد افترض حبة الرمل صغيرةً بنوع ان كل عشرة الاف حبة منها توازي حبة خشخاش او خردل كبرًا . ومع فرط هذه المبالغة فقد احصى المعلم المذكور عددها . وحصرها جميعها في عددِ الواحد تاليًا خمسين سفرًا . فان كان اذًا خط صغير يشتمل ربوات من الحبوب الرملية . فماذا يكون مقدار السنين الغير المتناهية التي تشتمل عليها الابدية . فحقًّا انهُ لو كانت السماء كلها صحيفة واحدة . وامتلاء العالم كلهُ والسماء من صحف مملوَّة من الاحرف الرقمية على النحو المتقدم ذكرهُ . فهذا جميعهُ لم يكن يتضمن سوى جزء صغير من الابدية . ولذلك قد اجاد لاكتانسيوس بقولهِ : ترى كم سنةً يلزم لكي

تتمَّ الابدية التي لا نهاية لها. فاطرح من الابدية سنين بمقدار عددِ نقط ماء البحر وغبار الهواء واوراق الاشجار ورمل الارض ونجوم السماء. فترى الابدية بعد ذلك على حال كمالها الاول. ثم زد على الابدية المقدار المذكور من السنين فلا يلحقها زيادة البتة ولا تكون لذلك مبتعدة من نهايتها اكثر بعداً. وذلك لانها عديمة النهاية والبدائة. وهكذا تصور جبلاً رملياً اصلهُ على الارض وقمتهُ تبلغ عنان السماء. يأتيهِ كل الف سنة مَلَك ياخذ منهُ حبة واحدة. فالى كم من السنين يحتاج هذا الجبل الى ان يعود ارضاً ممهدة. ومع هذا فقد كان يقبل الوقت الذي فيهِ تنقل الحبة الاخيرة. والابدية يستحيل ان تحصل في نهايتها واخرها. فيزول هذا الجبل ولا يزول شيء من الابدية. وقد يتبين ان حبقوق النبي اشار الى ذلك بقولهِ: تطأطأت آكام الدهرِ وتلاشت من قبل طرق ابديتهِ. لانهُ يمكن ان كل جبال لبنان تتطأطأ وتعود ارضاً سهلة مراراً لا يحصى عددها في طول الزمان دون ان ينقص شيء من ابدية الخطاة. وهكذا يُقيم اولئك الاشقياء في وسط هذه النار الآكلة والعذابات المؤبدة الوفاً في الوفٍ وربواتٍ في ربواتٍ من السنين خالدين فيها بعيدين عن نهايتها بُعد يومهم الاول

فمن تراهُ يطيق ان يشوى جانبهُ مدة سنة واحدة. بل من يقدر ان يلبث سنة واحدة مضطجعاً على جانبهِ لا يتحوَّل من جهةٍ الى اخرى. فيا ليت بني البشر يتاملون ذلك كل يوم ولو نصف ساعة. فانهم لو فعلوا

ذلك لغيروا سيرتهم واصلحوها لا محالة . وقد عرفنا من الاخبار ان هذا
التامل جزيل التاثير والفاعلية . فقد ذكر برزدوس رنتاوس عن رجل عالمي
قد كان على جانب من التغاضي عما يختص بخلاص نفسهِ مستغرقاً في
الرذائل منهمكاً في طلاب كل نوع من اللذات . مترفهـاً بلذة الوسن .
فاتفق مرةً انهُ اذ اضطجع مرتاحاً الى الرقاد اذا هو استمر ليلهُ كله
متقلباً من جهةٍ الى اخرى . حتى صارت لديهِ كل دقيقة من الزمن بمنزلة
عام . واذ هو على هذه الحال متململاً على فراشهِ . خطر لهُ ببالٍ فكر خاض
في تاملهِ فقال في نفسهِ . ترى ما الذي كنت تفعلهُ وتحملهُ يا هذا احترازاً
من ان تكون مضطجعاً سنتين او ثلاث سنين في ظلام مقتم . فاقداً لذيذ
مسامرات اصحابك والتمتع بتنزهاتك ولو كان ذلك على فراش ناعم .
فلا جرم انك كنت ترى هذا عقاباً غير محتمل . فاذكر اذاً واعتقد انهُ لا
مناص لك من هذا العذاب العتيـد . فاحسن الان افتكارك . واعلم
انك ستضجع على فراش وجعك الاخير تستمر طريحاً عليهِ مصاباً بألمٍ بليغ
ليالي كثيرة . الّا ان ينزل بك الموت فجأةً فتكون حينئذٍ اشق حظاً . ثم
بعد رقادك على الفراش المذكور حيث ينتظرك الموت . سيكون فراشك
الاخير المحفوظ لك الان الارض حيث يستـأكل جسدك الدود
وترعاهُ الحشرات . اما نفسك فهل تعلم متحققاً ماذا تصير اليهِ . لعمري
انك اذا ما نظرت الى سيرتك هذه الحاضرة فلا تجد امامك طريقاً
الّا التي تؤديك الى جهنم . فيا لذاك الفراش الناري الذي تجدهُ هناك

ما ارهبهُ . فهناك وعلى ذلك الفراش يجب ان تمكث راقدًا لا سنتين فقط بل دوامًا مدى الابدية يضطرك الامر الى السكنى في ظلمةٍ مدلهمةٍ وعذابات مؤبدة . ولا تستطيع بعد الوف وربوات من السنين ان تكفِر عن احدى لذاتك القبيحة السيئة . فهناك لا تبصر شمسًا ولا سماء ولا وجه الله . فيا لسوء حظي وواهًا لشقاوتي واهًا لانني ان كنت لا استطيع ان احتمل هذا القلق اليسير على فراش ناعم . فكيف يمكنني ان احتمل عذابات مؤبدة . فالذي يجب اذًا عليَّ ان افعلهُ انما ان اعدل عن طريقي لان هذه الطريق التي اسلك فيها ترمي بي في الهلاك لا محالة . هذا فأثر فيهِ فكر الابدية تاثيرًا عظيمًا حتى لم يعُد لهُ سبيل لطردهِ من عقلهِ . فلذلك عزم اخيرًا على السلوك في طريق الرهبانية . وكان يكرر في نفسهِ مرارًا هذا القول : ماذا افعل الان في العالم الشقي . اني اتنعم واتلذذ . الَّا ان تنعمي هذا سيفضي بي الى الهلاك . لانني أكره على احتمال اشياء كثيرة قهرًا وجبرًا . واشياء اخر غيرها التمسها ولا احصل عليها . وقد تعبني خيرات هذه الحياة جدًّا . وماذا يكون ثواب اهتمامي هذا الباطل . انني لست أُصيب فرحًا تامًّا . وان اصبت فكم يدوم . ها آنذا كل يوم اشاهد الناس يموتون ويلجون باب الابدية . ايتها الابدية انكِ ان كنتِ في مكان اخر غير السماء فاينما كنتِ فانتِ مرّة مؤلمة ولو كنتِ على فراش ناعم . فلنتقنَّ بالسماء ولنأمننَّ سعادتنا فيها . ولا نشترِ القليل بالكثير . قال هذا ودخل الرهبانية

ولعمري انه كان من الواجب نخطر ببالنا هذا الفكر في كل افعالنا ويقول كل منا في نفسهِ . للثواب المعد لافعالي الصالحة ابديٌّ . كذلك العقاب المعد لاعمالي الشريرة ابديٌّ ايضاً . لانهُ بهذا الفكر يتقوَّى المؤمن على فعل الخير واحسان العمل . خبرنا اليانوس المورخ الوثني عن يسمينيا قاصد مدينة تيبس . انهُ لما قدِم الى ملك العجم يكشف لهُ عما يقصدهُ اهل مدينتـهِ . وعرف من قبل انهُ يلتزم بان يسجد لهُ . رأى ان اكراماً مثل هذا الملكٍ بربري مماً يتجاوز الحد . فلذلك حال الحيلة الآتي ذكرها . وهي انهُ نزع من اصبعهِ خاتمهُ . وكان عليهِ تمثال مرسلهِ وكانت العادة قديماً أن يكون الخاتم دليلاً على جلال سلطان صاحبهِ وجزيل اعتبارهِ فالقـاهُ بلياقة عند رجلي الملك وسجد قائلاً في نفسهِ : اني ساجدٌ لا لهذا الملك بل لرب هذا الخاتم . فهكذا نحن لو كنا في كل افعالنا نوجه فكرنا ونيتنـا الى الابدية . لم نكن نجد صعوبة في اعمالنا الصالحة البتة بل لكنا نهتف قائلين : تبـارك الله الذي يجزي باجر ابديّ عن تعب خفيف وعمل طفيف

قد ذكر عن اوريبيدوس الشاعر الجزيل الاعتبـار عند اليونان انهُ اشتكى يوماً من عقم قريحتهِ اذ لم يقدر في مدة ثلاثة ايام ان ينظم غير ثلثة ابيات . فسمع بهِ شاعر اخر يقال لهُ السيستيدس فقال : اما انا فاني انظم بسهولة مائة بيت في يوم واحد . فاجابهُ اوريبيـدوس ليس بهذا عجب . لان اشعارك لاتدوم اكثر من ثلثة ايام ثم تضحي نسياً منسياً .

اما اشعاري فانها تبقى الى الابد . ومثل ذلك قال زوكسيس المعلم اليوناني الماهر في صناعة التصوير . اذ سئل عن طول مكثهِ في اتمام ما يصورهُ قال : اني اريد في صناعتي ان اصور ما لا يزال باقياً الى الابد . فلقد ضلَّ زوكسيس المصور بقولهِ هذا . اذ لم يبقَ شيء مما صورهُ وقد فُقد شيء كثير من اشعار اوريبيدس . اما الصديق فلا يضيع فعل من جميع افعالهِ الصالحة ابداً . ولعمري ان اكتساب الابدية لا يقتضي منا تعب يوم واحد . لانهُ عن فعل واحد من افعال الندامة الكاملة نُجزى ثواباً لا نهاية لهُ . فلنستفيدن اذاً مما قال اوريبيدس وزوكسيس . ولا نكتفِ بممارسة الاعمال الصالحة فقط بل فلنحسن ممارستها ايضاً . ولنقتفينَّ بالقديس ارسانيوس . الذي بعد ان امضى في طريق القداسة سنين كثيرة . كان ينزّل نفسهُ منزلة المبتدىء . ويكرر كثيراً قول المرتل : انا قلت والان ابتدات . فلنحذرن اذاً من ان نلاحظ ونتامل ما احتملنا من الاتعاب . لكن فلنوجه عزمنا الى اتعاب اعظم من الاولى اكراماً لله . حسبما كان يفعل الرسول الذي قال عن نفسهِ انهُ كان ينسى ما وراءهُ ويتسع في فعل الخير فيما قدامهُ . وقد قال هذا القول بعد ان كان تسامى في القداسة جداً . وخدم الله فائدة للنفوس خدماً سامية حتى انهُ فاق في ذلك باقي الرسل . قال هذا بعد ان كان دخل مجامع دمشق الشام وبشَّر بالسيد المسيح ورمى بنفسهِ في خطر ان يقطع ارباً ارباً لو لم ينحدر من اسوار المدينة هارباً . وبعد ان كان انار شعوباً كثيرة في بلاد ارابيا بنور

الانجيل المقدس. واجتذب الى الايمان اناساً لا يحصى عددهم في ترسوس وانطاكية وطاف مراتٍ كثيرة مملكة اسيا المعروفة بالصغرى والجزء الاعظم من بلاد اوربا وكابد اضطهادات شاقة ورجم مراراً. وكاد مرةً ان يموت من الرجم وجُلد وسُجن مراتٍ عديدة. وبعد ان خُطف الى السماء الثالثة واجترح معجزات كثيرة. هذا وكان يعد نفسهُ انه لم يتعب بعد ولم يصنع شيئاً من اجل سيدنا يسوع المسيح. وكان كانهُ بعد في اول يوم من هُداهُ وتوبتهِ. فكان يعقد عزمهُ ويوطدهُ على الشغل والعمل والتعب ومكابدة ما لم يكابد مثلهُ في ما مضى محتسباً ذاتهُ بعد هذه الخدم جميعها عبداً بطالاً لا نفع لهُ حسب مشورة السيد المسيح لتلاميذهِ اذ قال: قولوا اننا عبيد بطالون. لاننا انما فعلنا ما كنا ملتزمين بفعلهِ. فان كان الرسول بعد فوزهِ بهذه الاستحقاقات السامية نسي ذلك وابتدأ ابتداء جديداً. فلماذا نحن الذين ما ابتدأنا بعد نظهر من انفسنا وهناً وانحطاط قوى قبل ان نبتدئ. فلنبتدئنَّ اذاً دائماً ابتداء جديداً لان الابدية العتيدة التي تنتظرنا سوف تكون جديدة دائماً وعلى حال البداءة. قال الانبا ديونيسيوس الكارتوسي في تفسير المزمور السادس والسبعين. لا نفتخرن في استحقاق حياتنا الماضية ولا نحسب انفسنا شيئاً. لكن لنمارسنَّ اعمالنا كل يوم بنشاط جديد كاننا في ذلك اليوم ابتدأنا وفيه نفسهِ نموت

الفصل التاسع

في ان الابدية عديمة التغير

اعلم ان خاصة الابدية الثانية هي انها عديمة التغير في دوامها . وقد اشار الى ذلك الاولون بامثال سرية . فمنهم من كان يصورها بصورة كرسيّ . وهكذا رأى اشعيا النبي الرب جالساً على كرسيّ عالٍ رمزًا الى عظمة ابديتهِ . والقديس يوحنا في جليانهِ يذكر مرات كثيرة كرسيّ الله . مشيرًا ايضاً بذلك الى دوامهِ تعالى الابدي . امّا دانيال النبي فقد اوضح ذلك جليًّا حينما تجلّى الله لهُ ودعا دانيال الله ربهُ قديمَ الايام ورآهُ جالساً على كرسي وشعرهُ ابيض كالثلج . وقد ذكر عن شعب من بلاد افريقية . انهُ اذ كان يشرف احدهم على الموت كانوا يجلسونهُ على كرسيّ مشيرين بصورة الجسد الجالس الى حال النفس المستقبلة وهي حال الابدية . ومن اجل هذا السبب عينهِ كانوا يحطُّون الميت في القبر جالساً . غير انهم بهذا كانوا يشيرون الى شيءٍ اخر ايضاً . وهو انهُ لا يجب ان نفتش في هذه الحياة عن الراحة بل ان نطلبها بعد الموت فقط حينما ندخل ابواب الابدية . وحقًّا ان الله لم يجعل هذه الحياة للتمتع بالراحة . واذا امعنّا النظر في شقائها عرفنا بالكفائة ان الله لم يجعلها لنعلِّق بها قلوبنا . بل لان تكون لدينا بمثابة شيءٍ مستعار او عارية تُردّ . ومن ثم لا يليق بنا ان نلتصق بها . بل الخليق بنا ان نجدّ جدّنا ونسعى سننًا لندرك جبل الابدية . وقد تعلّمنا حياتنا هذه الشقية بلسان حالها بانهُ قد توجد حياة اخرى

نجد فيها الراحة التي نتوغل في طلابها هنا عبثاً . لانهُ انما في السماء فقط تنتهي اتعابنا وفيها نكف عن دموع نريقها مدراراً في وادي شقائنا هذا . فيها نجد علاجاً وتعزيةً لهمومنا . وفيها نبلغ مقراً تقرُّ فيهِ عيننا ويهدأ فيهِ سجس قلبنا

وكان من تقدم ذكرهم يشخصون الابدية بصورة حية . مشيرين بذلك الى خاصة الابدية المذكورة اي عدم تغيرها . اولاً لانهُ كما ان الحية ليس لها حد يدين ورجلين كذلك الابدية ليس لها حد النهاية . ثانياً كما ان الحية وان كانت عديمة الايدي والارجل والاجنحة تقفز واثبةً بخفةٍ عظيمة وتسبق بعدوها وسرعة جريها بقية الحيوانات ذوات الايدي والارجل وقد نالت ذلك كلهُ بجدة ما فطرت عليهِ من الهمة والحمية . هكذا الابدية وان كانت بل توالي الايام والليالي التي هي بمنزلة ارجل يجري بها الزمان تسبق بجريها كل زمن . ثالثاً ان الحية ذات حياة مديدة كما قال فيلون الفيلسوف حتى كانها لاموت طبيعيَّ لها . ولذلك ليس في الحية ما في باقي الحيوانات من التغير كالتحول من الحداثة الى الشيخوخة ومن الصحة الى المرض . لانها تحفظ دائماً في حداثتها . ومرات كثيرة تجدد شبوبيتها بتجردها من فلوسها اي قشرها ذلك خلا انها ليس لها طول محدود كما لبقية الحيوانات بل تنشو وتطول دائماً شيئاً فشيئاً . هكذا الابدية لا حد لها في طولها ولا تغير ولا تحول ولعمري ان هذا الامر ليوجس خيفةً ورعباً عظيمين في

قلوب الخطأة الهالكين . اعني الاستمرار في العذابات خلوًّا من علاج وتبديل عذاب بعذاب آخر . قال القديس بولينوس عن القديس مرتينوس . ان راحتهُ كانت انتقالاً من تعب الى تعب آخر . فالذي لا يزال تعبًا يُصيب راحةً اذا تبدَّل تعبهُ بتعب آخر . ولعمري انهُ لامر يُرهب من يتأملهُ . أن قاين اول من هلكوا وسقطوا في جهنم لهُ الان في العذاب ما ينيف على خمسة الاف سنة ولم يخفَّ عذابهُ اصلاً ولم يشعر بعلاج ولا بتغير البتة . مع ان العالم لم يزل مشهدًا للتغيُّر في كل آن . واولاً قد طبَّق الطوفان وجه الارض كلها واباد البشر حتى لم يبقَ منهم الاَّ ثمانية انفار . ثم بعد ذلك حدثت تغيرات اخر مستغربة ولما كان الناس يعيشون بحريةٍ قهرهم الاثوريون وتسلطوا عليهم عنوةً . ثم انتقل منهم الملك الى آخرين ولم يمضِ عليهم اكثر من الف ومائتين واربعين سنةً حتى ملك عليهم ستة وثلاثون ملكًا . واستقرَّ المِلك في ايدي الماديين على اضطراب اسيا كلها . وبعد ذلك بثلثمائة سنة انتقل المُلك الى الفرس ثم الى اليونانيين ومنهم الى الرومانيين . وعلى هذه التغيرات جميعها لم يصر تغيُّر ما في حال قاين اول الهالكين . هذا خلا ما عرض في مدة الزمن المذكور من التحولات والتغيرات الكثيرة في العالم . فكم من جزيرة قد اغرقها البحر وقد قال افلاطون ان واحدة منهنَّ كانت اعظم من بلاد افريقية واوربا . والبحر اخرج من عمقهِ جزائر جديدة . وكم من عمارةٍ مشيدة زعزعتها الزلازل وهدمتها . بل كم من جبال تطأطأت وتغيَّرت .

وكم مدن هبطت في عمق الارض وتقوَّضت . وكم انهر غارت وجفَّت .
او اختلف جري مياهها وتحوَّل . وكم تغيرات عرضت في بقية الاشياء .
كم مرة تغيرت السنَة وطقوسها . كم كرَّت الايام والليالي اما قاين الشقي
اول الهالكين فانهُ ماكث الان في ليلتهِ المظلمة كما كان فيها اول
يوم سقوطهِ . وفيما هو متعذبٌ هناك قد دارت الشمس في قطبها حول
العالم العنصري مقدار عشر كرَّات وستمائة الف مرَّة ونيف . اما قاين
الشقيّ فلم يُعطَ ان يمشي خطوة واحدة من يوم سقط في دركات النار
الجهنمي . تامل ما اكثر الاتعاب التي احتملتها الناس في العالم وقد
عبرت . وما اكثر الامراض التي ادركتهم . والعذابات التي ألمَّت
بهم . والاوجاع التي اصابتهم . فهذا كلهُ قد عبر وزال . اما اوجاع قاين
الشقيّ وعذاباتهُ فلم تزُل ولم تنقص بعد خمسة الاف سنة واكثر .
فقد كان تولوماوس يتململ من ألم الزنطارية . واريستركوس من
الاستقساء . وكمبيسيس من وجع الصرع . وطوبيا البار من العماء .
وايوب الصديق من البرص الّان هذه الاوجاع جميعها انتهت وبادت .
اما اوجاع قاين فلم تنتهِ بعد ولن تنتهي فيما بعد . سكان راباد منهم من
نُشر من وسطهِ ومنهم من احترق حيًّا في اتون ملتهب ومنهم من قُطع
اربًا اربًا وقد شوي بريللس في جوف ثور من نحاس محمى . الّان هذه
العذابات جميعها قد انقضت وزالت . اما عذابات قاين الشقي فلم تنتهِ
ولن توشك ان تعبر وتنتهي . لانها بعد مائة الف سنة ستكون ايضًا

كما كانت في ابتدائها لا اكثر ولا اقل . فماذا يكون رجز يأسهِ عند نظرهِ ان جميع هذه التغيرات قد حدثت في كل شيء . وعذاباتهُ لم يصبها تغير البتة . ولعمري ان ملذات هذه الحياة لو لم تكن عرضةً للتغير لكانت عذابات مرة . فما ظنك في احتمال الهالكين عذابات عديمة التغير. فاي غضب اذًا يستحوذ على قاين الشقي اذ يرى ان نيران القديس لورنسيوس قد طفئت . وضرب القديس اكليمنضوس الانكري بالسياط قد كفَّ عنهُ . وصليب القديس اندراوس فني . واصوام القديس ايلاريون انتهت . ومسح القديس سمعان العمودي عُدِم . والات تقشفات القديس دومينيكوس تلاشت. وجميع عذابات الشهداء وتقشفات المعترفين قد زالت واستحالت الى لذات ابدية . اما عذاباتهُ فلم تعبر ولم تتغير ولا يبسم لهُ ثغر الرجاء في انها تنتهي او تتحوَّل . فحقًا ان هذا من شانهِ ان يوغر قلبهُ المًا ويفتت كبدهُ حزنًا ولاسيما اذ يرى انهُ عاد من الممتنع ان يجد علاجًا ودواء قد كان في وقتهِ متيسرًا سهلًا . وذلك كالغني الشرير الذي كان يقدر ان يشتري الافراح الدائمة بالفتات الساقط من مائدتهِ . والان يرى ابرهيم الجواد يبخل عليهِ بقطرة ماء

فلينتبه اذًا المسيحي من رقادهِ . وليفتحن عينيهِ . وليهتم في ما هو قادر عليهِ الان . اي في مداواة ما لا يقدر على مداواتهِ فيما بعد . فدونهُ الزمن الحاضر فانهُ مقبول ومناسب . الان وقت الخلاص والغفران . الان في

دقيقة واحدة يمكننا ان نكسب ما لا يمكن ان نكسبهُ فيما بعد في مدة الابدية كلها . وهذا النصُّ قام دليلًا عليهِ لهيب اتون بابل الذي ارتفع تسعًا واربعين ذراعًا حسبما يذكر عنهُ الكتاب المقدس ولم يبلغ الى الخمسين . والسرّ فيهِ ان عدد الخمسين كان رمزًا الى الغفران الاسرائيلي العامّ . فهكذا لهيب جهنم المرموز اليهِ باللهيب البابلي . فانهُ وان كان فوق كل عذابات هذه الحياة . فلا يأول ابدًا الى ربح الغفران والفرار من العذاب ولو استمرَّ ربوات من السنين . ترى كم كان يعطى الهالك لكي يستطيع ان يمارس التوبة مقدار ربع ساعة من الايام والاشهر والسنين التي يصرفها الان بنو البشر باطلًا عبثًا . فلا نبذِرنَّ اذًا هذا الشيء الجزيل الثمن . ولا نضيعنَّ الزمن والمجد الابدي معًا . ولا نلقِ بانفسنا في خطر السقوط في جهنم . ان زمن هذه الحياة لثمين بهذا المقدار حتى ان القديس برنردوس قال عنهُ مبالغًا ان ثمنهُ يوازي ثمن الله عينهُ . وذلك لاننا بهِ نكسب الله نفسهُ . فلا نبددن هذا الشيء الجزيل ثمنهُ . بل فلنربحن بهِ الابدية واله الابدية ايضًا . فالجهلة العالميون يقولون لنتنعم الان . اما الحكماء الذين حنكتهم الايام فيقولون ان الاجدر بنا ان نتخلّى عن التنعم الزائل لنربح التنعم الابدي . العالميون يقولون لنتهمكنَّ الان بملذات الحياة الحاضرة . اما عبيد السيد المسيح فيقولون لنُمت الان اجسادنا لكي نحيى الى الابد . الخطاة يقولون لنتمتعنَّ الان بتنزهات العالم . اما اتقياء الله فيقولون لنهجرنَّ هذا العالم المتغير والمتحوّل سريعًا لنكون مع

القديسين في السماء الى ابد الدهور

الفصل العاشر

في ان الابدية لا مثيل لها ولا شبيه

كما انهُ لامناسبة ولامشابهة بين المتناهي والغير المتناهي كذلك لا مماثلة بين الزمني والابدي . ومن ثم كما ان حبة الرمل والجبل العظيم يستويان بالبعد عن عزّة الله . هكذا لحظة عين ومدة الف سنة تبعدان عن الابدية على حدٍّ سوى . ولهذا قال بويسيوس ان المناسبة ما بين دقيقة واحدة من الزمن وبين الف سنـة هي اعظم من المناسبة التي بين الف سنة والابدية. وعليهِ ان المرتل لما شرع يتأمل في الزمن الماضي منذ ابتدأ العالم الى عصرهِ .لقَّب الاجيال السالفة بالايام بقولهِ تفكرت بالايام القديمـة . وليس بعجبٍ انهُ دعاها هكذا حيث انهُ في مكان آخر قال ان الف سنـة في عيني الرب كيوم امس الذي عبر. وقد احسن القديس يوحنـا الانجيلي اذ دعا جميع السنين التي تدوم من عصرهِ الى انقضاء العالم ساعة واحدة . اما دنيـال النبي فاذ تكلم عن مجد الرسل القديسين قال انهم يضئون كالكواكب الساطعة الى الابديات الدائمةِ . هكذا بقية الانبياء يدعون الابدية ابدية دائمة وسنـين ابدية ودهور الداهرين .وهذه كلها كلا شيء في ايضاح دوام الابدية الابدي . فلوان قاين عاش الى يومنا هذا متمتعًا بكل سعادة هذا العالم . ثم مات في هذا اليوم . لما كان لهُ من جميع هذه الايام شيء اكثر مما لاخيهِ هابيل الذي

قتلهُ منذ خمسة الاف سنة ونيف. ولم يكن بقي له من كل لذاته سوى فكر زوالها بينماهي زهقت وضاعت كنقطةٍ في بحر الزمن وايام الابدية التي لا تحصى. لانهُ ان كان شرّ عذاب ساعة واحدة ينسينا تنعماً عظيماً كما قال ابن سيراخ. وان كان عذاب ساعة واحدة يمحو ذكر لذات سنين كثيرة. فكيف لا يمحو عقاب ابدي ذكر لذة لم تستمر الّا دقيقة واحدة وألقي فاعلها في جهنم. وان كانت دقيقة موت الجسد تعدم الانسان كل لذة. فما الذي تفعلهُ ابدية موت النفس. فما الذي بقي للملك اليوغابلوس في ساعة موتهِ من جميع ملذاتهِ. لاشيء البتة ومنذ دُفن في ابدية اللجة لم يبقَ لهُ سوى عذابٍ فوق عذاب ووجع فوق وجع وشقاء على شقاء وويل ابدي بل يزادهُ ايضاً. ان الناس جميعهم في ساعة الموت متساوون بالنظر الى هذه الحياة. لان الذي عاش كثيراً وتنعم تنعماً وافراً والذي عاش قليلاً وتنعم قليلاً او تعب كثيراً يكونان مستويين في ساعة الموت. لا يشعر ذاك بعد بالتنعم ولا هذا بالتعب. فالقديس روموالدوس الذي اصرف مائة سنة عائشاً عيشةً قشفةً جداً لم يعد يُحسّ بعد وفاتهِ بشيء من جميع تقشفاتهِ. وهكذا القديس المعظم سمعان العمودي لم يشعر بعد وفاتهِ بشيءٍ من جميع تلك التقشفات الغريبة التي مارسها مدة ثمانين سنة فمسحهُ ذلك الخشن الذي لبسهُ في هذه المدة المستطيلة ولم ينزعهُ عنهُ ليلاً ولا نهاراً. لم يعد الان يورثهُ الماً ما اصلاً. واصوامهُ تلك المتصلة وصلواتهُ المتتابعة لم تعد تضانقهُ الان بتةً. لقد انقضت هذه وزالت ولم يبقَ منها اثر. لقد زالت جميع تلك العذابات

القادحة التي عذّب بها الملوك والقضاة المغتصبون اكليمنضوس الانكريَّ مدة ثمانٍ وعشرين سنة . والان لم يعد يشعر منها بألم اصلاً . لكنهُ من اجل اتعابهِ هذه يفوز الان بحوز المجد الابدي

فليتأمل الان المسيحي ما يجب عليهِ ان يختارهُ . وليذكر ان اللذات التي يخطأ بها الانسان والاتعاب التي يكفّر بها عن خطاياهُ ستنتهي على حدٍ سوى . واما العذاب المسبب عن الخطيئة والثواب الناشئ عن الاعمال الصالحة فلا ينتهيان ابدًا . وحينئذٍ هو بالخيار ممَّا شاء وليعلم انهُ خيرٌ لهُ ان يربح مجدًا ابديًّا بتعبٍ خفيف وجيز اعني بهِ تعب التوبة . لان التوبة وان دامت مائة سنة . فانها بالنسبة الى الابدية بمثابة دقيقة واحدة من الزمان فلا يشكونَّ من يمارس افعال التوبة من طول الحياة التي ليست بطويلة بازاء الابدية . وقد قال القديس اغستينوس قولًا حسنًا : ان كل ما لهُ نهاية فهو قصير . والحال ان الف سنة وربوات سنين لها نهاية . فهي اذًا قصيرة . وهكذا كل زمن وان بان لنا طويلًا جدًّا فهو قصير وبمنزلة دقيقة واحدة بالنسبة الى الابدية . فان كانت الارض كلها بالنسبة الى السماء ليست الّا بمنزلة نقطةٍ واحدةٍ مع ان السماء محدودة . فهل من عجبٍ ان لا يكون الزمن كلهُ سوى دقيقة واحدة بالنسبة الى الابدية الغير المحدودة . فيا لتفاقم جهل بني البشر الذين يستعظمون الزمان . ويبذلون المجهود في تحصيل اللذات الزمنية والجاه العالمي في هذه الحياة القصيرة . اخبرني يا صاح لو منحك الله نصف

ربع ساعة فقط من الحياة . واعلن لك انهُ بعد موتك ينتهي العـالم كلهُ ويتلاشى . فهل كنت تصرف ذلك الزمن في طلب الملذات والكرامات الارضية . قال القديس يوحنا البشير ان العـالم في عصرهِ كان قد بلغ ساعة انتهائهِ . مع ان السنين التي كانت من عصرهِ الى انتهاء العالم كثيرة جداً . فذلك لان هذه السنين جميعها بالنسبة الى الابدية لم تكن غير ساعة واحدة . فكما انك لم تكن تفتكر في ان تبقي لك ذكراً بعد موتك لو كنت تعلم ان العالم ينتهي بعد ذلك بساعة واحدة . فهكذا لا تفتكرن الان في ذلك ولو بقي من الزمن اجيال كثيرة

قُل لي يا هذا لو علمت يقيناً انك تعيش مائة سنة وانك لا تستطيع ان تصيب شيئاً من المأكل الضروري لمعيشتك فيهـا الا في ساعة واحدة لا غير . وقد اذن لك ملك جوّاد ان تخرج فيها من كنوزهِ ما تشاءُ لتقتات بهِ فهل كنت تصرف تلك الساعة في البـاطل . كلا . بل كنت تبادر مسرعاً وتأخذ من تلك الكنوز ما تستطيع . فلِمَ تتوانى وتتغافل وانت تعلم انهُ لا يكون لنفسـك في الابدية غير الذي تربحهُ الان وتستحقهُ في ساعة هذه الحياة الحاضرة . فاعتبر الان ما اقصر الزمن المعطى لك لتعدَّ فيهِ زاداً كافياً لابدية حياتك المستقبلة فكيف لا يهمك ذلك . لِمَ تلهو بتنزهات هذا العـالم منهمكاً بالضحك والهزء والتنعم . لِمَ لا تهتم بعكس ذلك في اقامة مأتم الندب والندامة . ولا تمزّق جسدك بصرامة تقشف التوبة . والحال انهُ كما قال حسناً القديس اغستينوس في تفسيرهِ المزمور

السادس والثلاثين • قد كان يجب ان ترتضي باحتمال تعب ابديّ رغبةً في اكتساب راحة ابدية • وان تُعثِر وجعاً ابدياً طمعاً في سعادة ابدية • قال الحكيم في سفر الامثال : في يمينهِ طول الايام وفي شمالهِ المجد والغنى • وبهذا اشار الى انهُ يجب عليك ان تفرغ كل جهدك في اكتساب الابدي وتؤثر الفضيلة على كل شيء زمنيّ • لانهُ كما ان اليد اليمنى ذات قوَّة واليسرى ضعيفة • هكذا يلزمنا ان نبذل كل قوَّتنا في حفظ الابدية لا في حفظ الاشياء الزمنية • لان اعظم خيرات هذا العالم واسمى امجادهِ ان لم تكن ابدية فلا تفيد شيئاً البتة

الفصل الحادي عشر

في ماهية الزمن على رأي اريسطوتاليس وغيرهِ من الفلاسفة وفي سرعة تغير هذه الحياة وزوالها

انهُ وان كان مما تقدم ايرادهُ قد اتضح لنا ماهية الزمن والحياة الزمنية وما يعبر ويزول مع الزمن • فينبغي الان بعد ايضاح الابدية المتقدم ان نتأمل ذلك بوجه الخصوص والتفصيل لكي نفهم حسناً خساسة الاشياء الزمنية وعظمة الاشياء الابدية • فتعريف الزمن على رأي اريسطوتاليس هو هذا : معيار الحركة او قياسها • فحيث لا حركة لا زمن اصلاً • وقد اوضح ذلك ايضاً سبوسيبوس الفيلسوف بقولهِ • ان الزمن هو قياس سير الشمس • وقال بروكلوس انهُ هو عدد دوران الاجرام السماوية وزعم الفلاسفة الفيثاغوريون ان الزمن هو الكرة الاخيرة التي

تحرك الكرات الاخريات . اي هو السماء الاخيرة التي تفوق سرعة حركتها طور العقول . وعلى حسب هذا الرأي قال البرتوس الكبير . ان الزمن هو قياس حركة المحرك الاول . فالزمن اذًا هو شيءٌ عديم الثبوت كالحركة . ولهذا قال ابن سينا ان الزمن هو شيءٌ دون الحركة ايضًا .

هل يمكننا ان نعتمد على الحياة البشرية التي هي عديمة الثبوت وجزيلة الضعف وسريعة في سيرها كالشمس ونجوم السماء التي تفوق في سيرها سرعة سير الطيور وهبوب الرياح كلها . فالباشق جزيل السرعة في انقضاضه على العصفور . واسرع منه السهم المرمي من كبد القوس . واسرع من هذا هي الصاعقة المنقضة المنحدرة من عنان السماء . الآن هذه جميعها لا تريناسرعة عدو الموت وعبور الزمن الذي يطير كنجوم السماء على حدٍّ سوى . والحال ان النجوم على حسب التحديد المرسوم من المعلم كلاوفيوس اليسوعي تقطع بسيرها في مدة ساعة واحدة اربعمائة وعشرين كرة ميل . فبهذه السرعة يسير الموت في طلبك . فكيف لا تجزع ولا ترتعد . فالقوس موتورة مشرعة اليك . وقد طار السهم منها وقرب منك فكيف لا تطأطئ رأسك قلما يكون . وكيف لا تتضع نادمًا . انك ان عرفت بان واحدًا وضع نارًا على مدفع ليطلقهُ عليك . اما كان يأخذك الخوف والرجفة والرعب . وان قيل لك ان السهم المميت قد رُشق وطار اليك اما كنت تموت من شدة الخوف والرعبة والحال انهُ من المحقق ان الموت الاتي اليك يسير في طلبك باعظم من سرعة السهم . وانهُ في

كل ربع ساعة يقطع عشر كرات من المراحل ليصل اليك ولست تعلم متى رُشق . ومن ثم عليك ان تتوقَّع حدوثه في كل دقيقة

واعتبر فوق ما اعتبرت في سرعة الزمن صفةً أُخرى له وهي التي عينها ارسطوتاليس بقولهِ . الزمن قياس الحركة . وبالتالي انهُ شيءٌ مركب من اجزاء سيالة منسربة يتبع بعضها بعضاً . وهذه الصفة على ما لاحظهُ الامام ابن راشد الاندلسي . هي من متعلقات الزمن ضرورةً وجوهراً . فيستحيل ان يأتي الزمن باشياء متحدة مقترنٍ بعضها ببعض . بل انما يأتي بشيء بعد آخر . فلا يمكن ان يكون الشيء الثاني في حيز الوجود الَّا بعد زوال الشيء الاول . فالخيرات التي يمكن الانسان ان يتمتَّع بها وهو طفلٌ تبارحهُ اذا شبَّ وتعقبها خيرات الشبوبية . وكذلك هذه تغادرهُ اذا شاخ ووخطهُ الشيب . فامعن الان النظر في ما عبر من حياتك وتأمل اين الان طفوليتك وصباك وشبوبيتك . فتجد فيك ميتات مختلفة . فافحص هكذا عن الرجولية والشيخوخة فتجد انك قد متَّ مرات كثيرة وقد اصاب الفيلسوف بقولهِ انهُ ما من دقيقة واحدة من الزمن الَّا قسمها الموت بينهُ وبيننا فأخذ منها نصيبهُ . واذا ما احسنا النظر وأطلنا الفكرة نرى اننا لا نعيش اكثر من دقيقة واحدة من الزمن . لانهُ ليس لنا من الحياة الَّا الدقيقة الحاضرة لان السنين العابرة قد ذهبت سلفاً وليس لنا الان منها شيءٌ البتة . فكاننا قد متنا نظراً اليها . اما السنون المستقبلة فلم ندخلها بعد ولم نُصب منها شيئاً . فكاننا لم نولد بعد . فنهار امس قد مضى .

ونهار غدٍ لانعلم هل نحظى بهِ ام لا . وقد عبرت ساعات كثيرة من اليوم الحاضر وزالت منّا . والساعات الباقية المستقبلة لا نعلم هل نبلغ اليها . وعليهِ فلسنا نتمتّع بالحياة الّا في هذه الدقيقة التي نحن فيها وفيها نفسها نحن ايضاً مائتون . وبالنتيجة لا يسوغ لنا ان نعبّر عن مدّة حياتنا الّا بنصف دقيقة او شيء غير قابل التجزّي بل ينازعنا الموت هذه الدقيقة الغير المتجزّية ايضاً وبكل صدق وصواب يمكننا ان نسمي هذه الحياة مع زكريا النبي ظل الموت . لان الموت ياتينا تحت ظلها . فكما ان كل خطوة يمشيها الانسان يليه فيها ظلّهُ . هكذا كل خطوة من حياتنا هذه تتبعها خطوة الموت . فالحياة اذاً عكس الابدية . لان الابدية تبتدئ دائماً وليست الّا ابتداء دائماً . اما حياتنا الزمنية فتنتهي في كل دقيقة . ويمكننا ان ندعوها انتهاء او موتاً متصلاً . ولهذا لا يمكن التمتع بخيرات حياة مثل هذه الحياة . لانهُ اية لذة يمكن ان يحصل عليها من ينظر جواداً قوياً مسوماً مزيناً بسرجهِ ان كان لا يزال جارياً راكضاً بكل عزمهِ . فهكذا الاشياء الزمنية تجري مسرعة في ميدان هذه الحياة . ولذلك لا يمكن التمتع بها

الفصل الثاني عشر

في ان قصر هذه الحياة يصير كل شيء زمني اهلاً بالاحتقار

حقاً ان الحياة الزمنية هي اسرع زوالاً من جميع الاشياء التي يتمتع

بها الانسان. لان الارزاق والمواريث والثروة وما يضاهيها تبقى موجودةً بعد موت الانسان. اما الحياة فلا. لانها لفرط لطافتها وضعفها تزول وتبيد بقليل من البرد او الحر او من قبل رائحة يسيرة او نفس شخص مريض او مقدار ذرةٍ سمًّا. فمثل هذه الاشياء اليسيرة تكفي لهدمها وازالتها. ومن يتأملها جيدًا يجدها اسرع عطبًا من الزجاج. لان الزجاج يستقيم اذا لم يلمسهُ احد. واما حياتنا فانها تبيد وتفنى ولو لم يلمسها احد. والزجاج اذا حُفظ باحتراس يدوم دهورًا كثيرة. اما حياتنا فلا يمكن ان نحفظها وان ابذلنا ابلغ الاحتراس. وهذا قد فهمهُ جيدًا اسعد ملوك اسرائيل وافضلهم اقتدارًا اعني بهِ داود الملك العظيم. الذي ضمَّ الى ملكهِ مملكتي يهوذا واسرائيل. ومدَّهُ طامحًا الى اقليم آخر. وملأ خزائنهُ من الفضة والذهب فهذا الملك العظيمة سطوتهُ والجزيلة سعادتهُ. لما رأى ان عزتهُ هذه العظيمة لها يوم تنتهي فيهِ. دعا ملكهُ وكنوزهُ حتى حياتهُ باطلًا. ولهذا قال هوذا جعلت ايامي محدودة وقوامي كلا شيء امامك (مز ٣٨: ٦) فكانهُ يقول ان كل الذي امتلكتهُ من الغنى والسطوة فهو باطل. وحياتي نفسها هي باطلة بل اكثر بطلانًا من بقية الاشياء. فهذه حال الاشياء الزمنية وان ازمعنا ان نتمتع بها الف سنة. فما الذي يجب علينا فعلهُ اذ ازمعت ان تنتهي سريعًا وقبل الوقت الذي نخالهُ. فياليتنا نفهم جيدًا قصر هذه الحياة. لقد كنا نزدري بلذتها الباطلة ونحتقر تنعمها الزائل. ان هذا الامر ضروري وجزيل الاهمية. حتى ان الله تعالى امر

احد انبيائهِ ان يخرج الى الازقة والشوارع . ويطوف المدينة صارخاً كبوقٍ حيّ . قائلًا ما اقصر حياتنا وأسرع زوالها . واذ كان اشعيا العظيم منذراً بروح النبوَّة باعظم الاسرار واغمضها اعني بهِ سرّ تجسد الكلمة الازلي . سمع بغتةً صوت الرب قائلًا لهُ اصرخ اصرخ . فاجاب النبي قائلًا : ما الذي تريد يا رب ان انادي بهِ صارخا . فاجابهُ الرب قل هو كل ذي لحم حشيشٌ (اش ٤٠ :٦) . لانهُ كما ان الحشيش الذي اخذ صباحاً يجف مساء ويفنى . والزهر يذبل بدقيقة واحدة من الزمن . هكذا حياة كل ذي لحمٍ تفنى سريعاً . ويتضمَّر وجه جمالها ويضمحل بهاؤُها في يوم واحد

وقد اراد الله بالنبي ان ينادي منذراً بقصر حياتنا حينما كان ينذر بالسرّ المحجوب عن افهام البشر وهو سرّ التجسد الالهيّ . وذلك لان ضرورة معرفة هذه الحقيقة اعني قصرِ حياة الانسان وصعوبة فهمها هي بمنزلة سرّ خفيّ . لانهُ ولئِن كانت الامثال والنموذجات اليومية تعلمنا هذه الحقيقة . فمع ذلك يظن الاكثرون ان انتهاء حياتهم لم يزل بعيداً . فلنستوعبنَّ اذاً هذه الحقيقة . ولنتيقننَّ ان كل ذي لحم حشيشٌ . وكل عمر قصيرٌ . وكل زمن وجيزٌ . وكل حياةٍ مضمحلةٌ . وانهُ مجموع السنين وان عظم في عددهِ عدمٌ

ولنتعلمنَّ ايضاً هذه الحقيقة ممَّن كان خبيراً بمعرفة هذه الحياة وان خالج قلبك انك تعيش مائة عامٍ . وخال لك انها حياة مديدة . فأصغِ

لما قاله ايوب البار الذي عاش مائتين وثماني واربعين سنة . ومن ثم امكنهُ
ان يعرف حسنًا ماهية حياتنا ويقف على ما فيها من سعادة وشقاء . قال :
ان سنيّ ليست شيئًا . فعندهُ اذًا أن الحياة التي تدوم ثلثة اجيال ليست
بشيء . وقد تكلم مراتٍ كثيرة في هذا الشان عن قصر الحياة . وفي
ايرادهِ ذلك اقام تشابيه واستعارات مختلفة . فتارةً تسمعهُ يقول ان ايامهُ
اسرع من ساعي البريد . وطورًا يخبر انها مرَّت اسرع من مرور سفينة في
بحر تكدّدها ريح شديدة او اسرع من نسر منقضّ على طائرٍ . وحينًا ان
ايامهُ انقرضت باعجل من ثوب قصَّهُ حائك . ومرة ان حياة الانسان
كزهر يداس حينما يُزهر وانها تضمحل كظلٍ لاثبات لهُ . ولعمري فلا
جرم ان ذهب مذهبهُ لا الذين عاشوا ثلثة اجيال فقط بل الذين عاشوا
اكثر من ذلك كالذين كانوا قبل الطوفان اكثرهم الان في جهنم .
اسمع ما يقولهُ هؤلاء الان ماذا نفعتنا الكبرياء ولم يُغنِ عنا فتيلًا من
عذابٍ الغنى والافتخار . لقد عبرت هذه كلها وجازت كالظل . فان كان
الهالكون هكذا يقولون ويحكمون على عمر ثمانمائة سنة انهُ ظل وانهم
كالذين توفوا بعد ولادتهم بدقيقة واحدة . فكيف يُخيَّل لك انك تعيش
عيشةً مستطيلةً وفي عصرنا البلوغ الى عمر ستين سنة شيءٌ عظيمٌ . ولذلك
شبه اوميرس الشاعر اليوناني حياة الانسان بورق الشجر الذي لا يدوم
اكثر من فصلٍ سنوي . وكان الفلاسفة والقديسون لم يجدوا عبارةً
يستوفى بها قصر هذه الحياة . ولا عثروا على تشبيهٍ وافٍ بايضاح هذه

الحقيقة. وقالوا انه لا عدو البريد ولا سرعة جري السفينة في البحر ولا طيران الباشق ولا مروق السهم في الهواء يعبر لنا اتم تعبير عن قصر هذه الحياة وسرعة زوالها. ولهذا قال فيلاميوس ان حياة الانسان ليست الّا ولادة وموتاً. واننا عند ولادتنا نخرج من قبرٍ مظلم وعند موتنا نلج قبراً اظلم وافزع. ثم اذا اسقطت من مدة هذه الحياة القصيرة ما يمضي بالنوم فتكون قد اسقطت ثلثها. وان وجب ان لا يحسب زمن الطفولية او غيرهُ مما يمنعنا عن معرفة ثمرة الحياة والتمتع بها. فلا يبقى لنا منها سوى نصفها. وهذا النصف الذي انزلتهُ في حسابك منزلة محقق اكيد. اظنهُ انا غير محقق ولا صحيحاً. وانك لضال في حسابك هذا لان الحكيم يقول ان الانسان لا يعرف يوم انتهائهِ. ولذلك كما ان السمك والطائر حينما يظنان انهما بعيدان عن الشرك يقعان فيهِ بسرعة. هكذا الموت يمشي وراء الناس ويقتنصهم حينما يكونون متغافلين متغاضين عنهُ. فتأمل اذا ما احقر الاشياء الزمنية وما اسرع زوال كل مجدٍ عالمي. لان جميع خيرات الارض لا ترافقنا الّا في زمن حياتنا. فان كانت الحياة عينها شيئاً دنياً. فالخيرات الزمنية التي ليست بخيرات الّا بالنسبة الى هذه الحياة احقر وادنى. ان ذلك التمثال الذي رآه بختنصر الملك وان كان مؤلفاً من معادن ثمينة كالفضة والذهب فكان قائماً على قوائم من خزفٍ. فلما صدمتهُ حصي صغيرةٌ سُحق جذاذاً. فما احقر وادنى هذا المجد العالمي المتأسس على هذه الحياة التي تفنيها لا قطعة حجر فقط بل بزرة

واحدة من عنقود . فحسناً قد قال المرتل ان الانسان وكل ما في حياته باطل بطلاناً . لان قصر الحياة وحده لكافٍ ان يردَّ كل خيرات الانسان دنيَّة . فالكرامات الدنيوية باطلة . وباطلة هي ثروة هذه الحياة ولذاتها اذ كانت الحياة نفسها باطلة زائلة

قد ذُكر عن الانبا غيريكوس من رهبانية القديس دومينيكوس . الذي قبل دخوله الرهبانية المذكورة كان فيلسوفاً وطبيباً ماهراً وصار بعد ذلك معلماً لاهوتياً بارعاً . انهُ اذ سمع يوماً قراءة الاصحاح الخامس من سفر التكوين حيث يورد الكتاب المقدس نسبة آدم ونسلهُ : عاش آدم تسعمائة وثلاثين سنة ثم مات . وعاش ابنهُ شيت تسعمائة واثنتي عشرة سنة ثم مات . فشرع يقول في نفسهِ : ان كان مثل هؤلاء الرجال المعظمين الذين عاشوا مثل هذا العمر المديد حدث بهم حادث الموت وانتهت حياتهم . فلا يسوغ لنا من الان فصاعداً ان نضيع الزمن في هذا العالم . بل يجب علينا ان نجعل حياتنا في حالة ذات طمأنينة وامان . لكي لا نخسرها عند انتهائها (آه) وعليهِ ترك العالم وترهَّب في رهبانية القديس دومينيكوس حيث قضى حياتهُ بعيشة مقدسة . فيا لكثافة جهل البشر الذين مع علمهم بقصر هذه الحياة يهتمون جداً في اطالتها وقال سينيكا الفيلسوف : انهُ لا شكَّ ان الجميع يستطيعون ان يعيشوا عيشةً صالحةً . وما من احدٍ يستطيع ان يعيش عيشةً مستطيلةً

فكل ما له نهاية شيء يسير دني لان مرجعهُ الى التلاشي . فلماذا تريد ان تخسر الكثير لاجل شيء يسير . وتفقد العين طالبًا بعدها الاثر . فامسك نفسك عن لذةٍ ما لئلا تعدم جميع اللذات الى ابد الابدين . احتمل الان بعض التعب احترازًا من ان تضطر الى احتمال عذابٍ غير محدود في زمن غير متناهٍ . لانهُ كما قال القديس اغستينوس . قليل من المرارة في الحلق خير من عذاب ابدي في الاحشاء . فعلمنا السيد المسيح ان كل ما يزول مع الزمن هو شيء قليل . اذ دعا زمن الامهِ وجيزًا . وان كانت الاوجاع التي كابدها فيهِ مرة وشديدة جدًّا . هكذا الزمن الذي احتملت فيهِ رسلهُ اضطهادات شديدة وعذابات قاسية وميتات هائلة دعاهُ ايضًا قصيرًا . وكذلك الزمن الذي نصرفهُ نحن في هذه الحياة هو قليل ايضًا ويسير جدًّا بالنسبة الى سني الابدية . الآن هذا الزمن القليل زمن حياتنا هذه يبين لنا كما قال القديس اغستينوس زمنًا مديدًا طويلًا لاننا نتقلب فيهِ . فاذا انتهى نعلم ما كان اقصرهُ . فلو عددنا انفسنا مشرفين على الموت لعرفنا حينئذٍ فرط قصرها . وان كل شيء فيها ولو مهما بان لنا عظيمًا هو كلا شيء بالنسبة الى الابدية

ان السيد المسيح ارسل الى الانبا كريستوفروس اليسوعي الجزيل الفضيلة والاعتبار من يقول له ان يتأمل جيدًا هتين القضيتين : ما اعظم : وما اقلَّ . فكأنهُ تعالى يقول ما اعظم الابدية التي لانهاية لها . ما اعظم الحظوة بالله الى الابد . ما اعظم الجلوس

مع السيد المسيح على كرسي مجـدٍ ابدي . وما اقل واقصر واحقر زمن هذه الحيـاة وكل ما فيها من التنعم الزمني . وهكذا القديس برزدوس لم يزل يكرر على رهبانهِ قول القديس ايرونيموس . انهُ لا يجوز لنـا ان نستصعب التعب والعذاب الذي بهِ نربح المجد الابدي ولا ان نشكو من طول مدَّتهِ . فقد استخف يعقوب البار بتعب خدمتـهِ للابان مدة سبع سنين . وذلك لافراط حبهِ لراحيل . فكيف يجوز لنا نحن ان نستصعب ونستثقل الزمن الذي نصرفهُ في خدمة الله . فاعتبر متأملاً من الذي تخدمهُ ولماذا تخدمهُ . ومن ذا الذي كان يخدمهُ يعقوب ولماذا كان يخدمهُ . فترى انك تخدم الهاً حقاً حباً بمجدٍ ابدي . وان يعقوب كان يخدم رجلاً وثنياً خبيثاً حباً بجمـال راحيل . فقابل الان خدمتك مع خدمة يعقوب . وانظر هل لك الان في خدمة الله عشرون سنة مدَّة خدم فيها يعقوب لابان خالهُ . انظر هل يمكنـك ان تقول عن نفسك ما قالهُ يعقوب عن نفسهِ . احرقني الحرّ في النهار والبرد في الليل . وكان النوم يطير عن جفنيّ . فبهذه الخدمة الحسنة خدم رجل صديق رجلاً وثنياً . فكيف يجب عليـك ان تخدم الله وانت متعبد لهُ . اما يجب ان يبين لديك قليـلاً كل ما تفعلهُ في خدمة هذا الرب العظيم رجاء اجر عظيم . فانظر ما الذي تصرف فيـهِ سنيك القصيرة التي من بهـا عليك لكي تستحق بها سعادة ابدية . وانت تدعها تجري عابرةً عبثاً . لا تجني منهـا فائدة ولا نفعاً

الفصل الثالث عشر

في ان الزمن هو فرصة الابدية

ان الزمن مهما كان قصيرًا سريع الزوال . خُصَّ بصفة جزيلة الثمن والاعتبار . وهي كونهُ فرصة الابدية . لانا بمدَّةٍ يسيرة منهُ نستطيع ان نربح مانحن مزمعون ان نتنعم بهِ الى الابد . ولهذا قول القديس يوحنا الانجيلي المحرر في النسخة اللاتينية : قد اقترب الزمن : يقرأ ايضًا في النسخة اليونانية : قد اقتربت الفرصة (رؤ ١ : ٣) . وذلك لان زمن هذه الحياة فرصة بها نستطيع ان نكتسب الحياة الابدية . فالاقدمون لمعرفتهم بضرورة نفع الفرصة وعظم فائدتها جعلوها الهًا ليبينوا بذلك الفوائد الجليلة الواصلة منها للذين ينتهزونها . وكانوا يرمزون اليها بامرأة على بكرةٍ تدور دائمًا . ولها على رجليها اجنحة كانوا يشيرون بها الى سرعة جريها . وكانت ذوائب شعرها المسدولة على وجهها تصدُّها عن النظر . وكان ذلك دليلًا على صعوبة معرفة الفرصة . واذا حضرت واستعرفت اليك فلك ان تقبض عليها بشعرها اما من وراء فلا شعر لها . بل راسها من ورائهِ اجرد . لان الفرصة اذا فاتت مدبرةً فلن تجد من ورائها ما تمسكها بهِ

اما اوسانيوس الشاعر الوثني . فزاد على ذلك ما يدل بهِ على الندامة التي تستحوذ على من يدع الفرصة ان تجتاز باطلًا قال : ان الندامة مركبة على منكبيها . لانهُ بعد مرورها لا يبقى شيءٌ اخر غير الندامة . واخرون صوروا الفرصة بايدٍ مملوةٍ هدايا واموالًا وافرة تجتذب

بها اليها اناساً كثيرين من الانام . سائرة صحبة الزمن الذي كانوا يصورونهُ بزيّ متغرب ذي اربعة اجنحة . فلو أمر ملك قديرٌ معلماً ماهراً بان يهيّئ لهُ صنيعاً يفرغ في عملهِ صناعتهُ ويعدهُ لوقتٍ يريدهُ الملك ويطلبهُ منه . وكان هذا العمل يقتضي مهلة سنة فلا امكن ان يطلبهُ الملك قبل تمام هذه المدة . واذا خالف امرهُ قضي عليهِ بالموت . هل كان هذا المعلم يتهاون في تكميل هذا العمل . فقل لي الآن يا هذا أَلسنا الذين توعدنا الله بخسارة الحياة الابدية ان لم نكن بجّنا في نفوسنا صورتهُ تعالى وثبتنا في نعمتهِ . فكيف اذاً نتهاون في هذا العمل الذي امرنا تعالى بهِ بوصية صارمة . وندع فرصة ربح خلاصنا ان تجتاز باطلاً

قال ثاوفرستوس وديموكريتوس الفيلسوفان . ان الزمن هو نفقة ثمينة جداً . وقال زينون الفيلسوف ان الزمن هو الشيء الذي يحتاج اليهِ الانسان اشدَّ احتياجٍ . اما بلينيوس فكان يعتبر الزمن عظيماً . حتى انهُ لم يكن يضيع منهُ دقيقة واحدة . واذ ابصر يوماً ابن اخيهِ متمشياً تنزهاً زجرهُ ووبخهُ على ذلك قائلاً : لقد كان يمكنك ان تصرف هذا الزمن في امرٍ افضل وانفع . ومرة اخرى اذ كان ذلك الشاب يسمع احد خدامهِ يقرأ عليهِ كتاباً واتفق ان اخطأ القارئ اوقفهُ الشاب ليصحح غلطهُ . فعدَّ ذلك بلينيوس نقيصةً في ابن اخيهِ وتضييع زمن وآخذهُ على ذلك ونبّهُ ايضاً . وكان سينيكا الفيلسوف لما وقر في نفسهِ من اعتبارهِ الزمن كان

يفضِّلهُ على كل شيءٍ . ومن ثم قال في هذا الصدد : من تراهُ يستطيع ان يقدر الزمن حق قدرهِ . فان كان العلماء الوثنيون قد اعتبروا الزمن بهذا المقدار مع انهم لم يكونوا يعلمون انهُ بهِ تربح الحياة الابدية . فما الذي ينبغي ان نفعلهُ نحن المسيحيين

فاعتبرنَّ الآن ان ندامتك ستكون ابدية ان لم تنتهز فرصة الزمن لتكتسب ملكوت السماء . ليت شعري ماذا يكون حزنك لما تفتكر انهُ كان يمكنك بقليل من الاجتهاد ان تربح هذا الملك السماوي . وقد خسرتهُ لاجل لذة وقتية . فما اشدَّ ما كان غيظ عيسو وما أمرَّ أسفهُ لما استفاق من غفلتهِ ورأى ان اخاهُ الصغير قد اكتسب بركة بكوريتهِ لانهُ قد كان باعهُ اياها باكلة عدس . فكان ينتحب ويتنهد الصعداء والزفرات من شدَّة حزنهِ . ويتململ غيظاً من فرط رجزهِ . فهذا مثلك وهذه مرآة تعكس لك عملك فاعتبر انك قد بعت ملكوت السماء لاجل لذة يسيرة زائلة . فما الذي كنت تفعلهُ لو تسقط في جهنم إلَّا ان تحزن متوجعاً بدموع ابدية على ماخسرتهُ بزمن وجيز . ولاتَ حين ندامة . ان اخوان لوط الذين كان حثهم على الخروج من المدينة والهرب معهُ كان يمكنهم ان ينجوا من النار فلم يرتضوا بمشورة لوط بل ازدروا بها . فاذا رأوا المطر الناري هاطلاً عليهم ومحرقاً اجسادهم والمدينة معاً . كم تأسَّفوا وما كان حزنهم على رذلهم المشورة الحميدة واهمالهم الفرصة الخلاصية . هكذا حنون الملك وجد فرصة مناسبة جداً لمسالمة داود الذي كان ارسل اليهِ

يفترضون عليهِ شروط الصلح يدعونهُ الى السلم فلم يرضخ لدعوتهِ. فلما شاهد الملك الجاهل مدنهُ فريسةً للنار وسكانها يُذبحون كالغنم في المجزرة. فترى ما الذي كان يتمنى ان يعطيهُ ردًّا الفرصة ينتفع بها ويوادع مثل هذا الملك العظيم ويحفظ ملكهُ في سلام. فلا مناسبة بين هذا وبين رجز الخاطئ الهالك الذي ينظر ذاتهُ وقودًا لنار لا نهاية لاضطرامها. ويلاحظ انهُ صار عدوًّا لملك السماء الى الابد. وانهُ من المستحيل ان يملك مع القديسين. فيا لهُ من حزنٍ مذيب ورجز شديد كلبي يعتريهِ الى الابد

ان اللص الشرير الذي صلب مع السيد المسيح ووجد ورفيقهُ اللص الآخر فرصة سعيدة لربح الخلاص فلم ينتفع بها. ما اعظم الان ندامتهُ على جهلهِ وما اسخن دموعهُ على غباوتهِ. وما اشدَّ تأسّي ذلك الغني الشرير الذي وجد ايضًا فرصة جيدة كان يستطيع بها ان يكفّر عن خطاياه لو اخذتهُ شفقةٌ ورحمةٌ على لعازر المسكين. فلم ينتهز تلك الفرصة بل تغاضى عنها معرضًا وظهر نحو ذلك المسكين اشدَّ قساوة من الوحوش. اذ كانت الكلاب تحنو عليهِ وتلحس جراحاتهِ مداوية لها. وهو لم يسعفهُ ولا بفتات مائدتهِ. فما الذي يقولهُ الان وما الذي يندب بهِ نفسهُ اذ قد فقد كل شيء. ولا يمكن ان يُسعف بشيء حتى ولا بنقطة ماء. وذلك لانهُ ابى ان يجود بفتات مائدتهِ على الفقراء

فاعتبر الان ان زمن حياتنا كلهُ هو بالحقيقة فرصة لربح

المجد الابدي . ومع ذلك فقد تعرض في مدة حياتنا فرص اخر يتعلَّق بها امر خلاصنا تعلقاً خصوصياً . واذا انتهزناها واستفدنا بها نلزم الله بان يعيننا عوناً خصوصياً كما عرض ليوسف الصديق حين فرَّ مدبراً عن سيدتهِ وغادر رداءهُ في يدها لئلَّا يغيظ الله خالقهُ . فانهُ بهذا الفعل العظيم جداً الزم الله بان يهتم بهِ اهتماماً خصوصياً . وينعم عليهِ بحسنات جليلة . وهكذا سوسنة العفيفة قد اغتنمت الفرصة التي عرضت لها . وفازت بها بالخلاص . لانها اذ آثرت الموت على الارتضاء باللذة الدنسة التي كان يغريها بها ذانك الشيخان . حازت استحقاقات غزيرة ونعماً جليلة . فلنحذرنَّ اذاً من ان نهمل فرصة ممارسة عمل صالح يمكن ان ندعو الله بهِ الى الاهتمام بامر تخليصنا اهتماماً خصوصياً . وفي هذا قال الحكيم لا تفوتنَّ يوماً صالحاً ولا يتعدينَّك جزء من عطية صالحة (سيراخ ١٤ : ١٤)

وقد قال شيشرون في تعريفهِ الفرصة : انها جزء زمن مناسب لفعل شيء . وقال ميتريداتس ان الفرصة امُّ جميع الاشياء الواجب فعلها . وقال بوليبيوس ان الفرصة رأس كل امر بشري . ومن ثم لما تكلَّم بعض المعلمين الروحيين عن انتهاز الفرصة لممارسة عمل صالح . قالوا ذلك دليل على الانتخاب للمجد الابدي . فانظر كيف اجتهدت راحيل مسرعة في اخفاء اوثان ابيها التي كانت استرقتها . اعتبر كيف بادرت ابيجائيل الى ملاقاة داود الملك لئلَّا تفوت الفرصة المناسبة لتسكين غضبهِ . فلو تاخرت قليلاً فلا ريب انها كانت قد غدت وزوجها واهل بيتها في

خطر فقد الحياة . لاحظ كيف جدَّ ابو الاباء ابرهيم في طلب الثلثة الملوك الذين كانوا اسروا لوط ابن اخيهِ . فلو اهمل الفرصة لم ينجُ لوط من الاسر ولم يفز ابرهيم بالظفر . وبايّما جهد وسرعة جمع شاول الملك جيشاً لينجد مدينة يابيش جلعاد في الوقت المناسب . فلا نكن اذاً في هذا الامر اي في انتهاز فرصة الخلاص اقل اجتهاداً وسرعة مما كان اجتهاد اولئك في الاشياء العالمية . فلنصغينَّ الى مشورة الحكيم القائل : ان كفلت صديقك فخلّص نفسك لانك قد حصلت بين يدي قريبك (امثال ٦ : ١) . فليتأمل اولئك الذين ابرموا عهوداً مع الشيطان ووقعوا عليها بخطاياهم . ولينظروا باية سرعة ينبغي ان يفروا من يديهِ ولا يضيعوا فرصةً وزمناً . وليتأمل ايضاً اولئك المغرمون بالله لكثرة احساناتهِ اليهم وعظمتها ولما عاهدوا بهِ الله عزَّ وجلَّ معتبرين بأيّ اجتهاد وسرعة يجب عليهم ان يفوا ما هم ملتزمون بهِ . وهذا قد نبّهنا اليهِ الرسول بقولهِ : فاقول هذا ايها الاخوة ان الزمن قصيرٌ (١ كورنتس ٧ : ٢٩)

المقالة الثانية

في ما بين الزمني والابدي من الفرق بالنظر الى نهاية الحياة الزمنية والزمان مطلقاً وفيها تسعة فصول

الفصل الاول

في نهاية الحياة الزمنية

فلنعتبرن الآن اعراض حياتنــا هذه الشقية الكثيرة المباينــة لاعراض الابدية واولها ان حياتنا هذه لها انتهاء . ولنــا في هذا الامر شيئان يجب ان نتأملهما . اولهما انتهاء حياتنا . وثانيهما كيفية انتهائهــا. فلو فرضنا أنَّ انتهــاء حياتنا في اختيارنا . وسني سكنانا هنــا منوطة بسلطاننا . او كانت كيفية خروجنا من هذا العالم من دون مرض وموت . لقد كان مجرد كون الاشياء الزمنية على وشك الانتهــاء سبباً كافياً لان نحتقرها . اناء البــلور البهي لو يدوم نظير الذهب لكان اثمن من الذهب نفسهِ . واما اذ كان سريع العطب فلا اعتبار لهُ . وليس من المستحيل ان يُحفظ زماناً مستطيلاً . وهذه الشائبة تشين حياتنا هذه . بل سرعة عطبها وزوالهــا اعظم من سرعة عطب البلور . لان حياتنا متعرضة لالوف الوفٍ من المخاطر بل وان سلمت من هذه الاخطــار جميعها وجب علينا ان نحتقرها وكل خيراتها الزمنية . لانها سوف تنتهي وتزول . واماَّ الذي يلاحظ بعد ذلك كيفية انتهائها بالموت والامراض والكوارث التي تتقدم الموت وتمهّد لهُ سبيلاً فلهُ ان يتعجب منذهلاً من

ان الانسان المولود للموت يوجه اعتباره للسعادة الزمنية وهو عارف بالشقاء الممتزج بها. فلنلاحظنَّ ما حلَّ من الشقاء بانتيوخوس الذي استولى على اقاليم جزيلة العدد. فانهُ اذ كان زاهياً بالظفر استحوذت عليهِ ماليخوليا مهلكت اماطت عن جفنهِ لذة النوم وسلبت عقلهُ. فعاد لا يُغمض جفنيهِ الوسن ليلًا ولا نهارًا واخذ يقذف أمعاءهُ من حلقهِ. وتخلعت مفاصلهُ فصار عاجزًا عن كل شيء الَّا التألم. فالذي كان قبلاً يخَيَّل لهُ ان لهُ سلطانًا على امواج البحر وانهُ ضابط في يدهِ اعلى الجبال ملكهُ العجز عن كل حركة واصبح لا يستطيع ان يخطو خطوة واحدة. والذي كان بالامس موشحًا بالخزّ والارجوان يجرّ اذيال الحلل الثمينة المزخرفة وتفوح منهُ الروائح الذكية. غدا بغتةً جيفةً مستكرهة تنبعث عنهُ نتانة لا تطاق حتى اضطر الامر خدَّامهُ الى ان يبتعدوا عنهُ هاربين. واذ كان حيًّا بعد امتلأ جسمهُ دودًا كان يستأكلهُ ويرعاهُ. الى ان فاض اخيرًا بروحهِ الشقية مجدفًا. فتأمل اذًا انتيوخوس هذا حين كان يتلألأ افضل من الذهب على خيل مسوَّمة. ترتج الارض من صولتهِ وسلطتهِ وكثرة عساكرهِ. ولاحظهُ بعد ذلك ملقًى على فراش خائر القوى كمد اللون منتن الرائحة متروكًا من الجميع فكأنهُ مزبلة او مأوًى للدود. فمن ذا الذي بعد مشاهدتهِ ما صار اليهِ انتيوخوس يحسدهُ ويشتهي ما كان عليهِ. من ذا الذي بعد تأملهِ هذا الموت يطلب سعادة الحياة الزمنية. من ذا الذي يختار وظيفة جزاؤها هذا الشقاء العظيم

فاعتبرنَّ اذًا ايها المؤمن مآلَ خيرات هذه الحياة ومثالها كمثل مياه الاردن الصافية التي تنتهي الى حمأة البحيرة السادومية المميتة . تامل كيف انتهت حياة الهيرودسين اعني الاسكالوني واغريبا . فذاك غدا مأكلًا للدود . وهذا امسى مأكلًا للقمل . لاحظ ايضًا كيف انتهى اجل احآب الملك الذي انتصر على بلاد سوريا وعلى اثنين وثلاثين ملكًا . فقد انتهى ملكهُ واعدمهُ الحياة سهم نُفذ لبّتهُ واحشاءَهُ . فخاضت مركبتهُ الملوكية بدمهِ ولحست الكلاب دمهُ كدم فريسة . ومثلهُ انتهت حياة ابنهِ يورام . فان اعداه طعنوهُ بسيفٍ اخترق ظهرهُ وقلبهُ فطرح مائتًا وتنثرت لحمهُ العقبان . ولم يُعطَ من ارض مملكتهِ ستة اشبار يدفن فيها . ومن ذا الذي عند مشاهدتهِ قيصر المظفر المكلل باكاليل انتصاراتهِ العديدة . يخطر لهُ ببال انهُ سيراهُ بعد ذلك مائتًا مثخنًا بالجراح مخضبًا بدمهِ المراق من ثلثة وعشرين كَلمًا ومن كان يعتقد ان قورش الذي اخضع لقضيب سلطتهِ اعناق الماديين والاثوريين والكلدانيين . واملأ ذكر انتصاراتهِ المتصلة في مدة ثلاثين سنة العالم دهشةً ورهبةً لمزمعٌ ان يموت بحيلة امرأة . ومن ذا الذي لا يتحير عند نظرهِ الاسكندر الكبير الذي بقوة سيفهِ انتصر على بلاد العجم والهند واستقرَّ لهُ ملك العالم . تخور اخيرًا قوتهُ كلها بحمّى يسيرة تدنفهُ ويتلاشى بها اقتدار العالم وعزُّهُ

فبالصواب اذًا قال احد الفلاسفة ان راس الاشياء هو عين الانتهاء . لانهُ كما ان الناس تُعرف من الوجه . كذلك يجب علينا ان نعرف الاشياء

من انتهائهـا . ولما كانت الحياة تنتهي بالشفاء كانت الحياة كلها لا تكون الَّا شقيـة . فلا ينخدعنَّ امرؤٌ بعافيتهِ وقوتهِ وثروتهِ وسلطتـهِ وعزتهِ وعظمة بلاطهِ وكثرة اصدقائهِ وجمال بردتهِ وسمو رتبتهِ او درجتـهِ . لانهُ بمقدار سمو سعادتهِ يكون عظم شقائهِ . لان انتهاء كل سعادة هو عين الشقاء . ولهذا لمـا سمع اجيزيلاوس الملك اناساً يمدحون سعادة برياموس ملك العجم . قال لهم : كفُّوا عن هذا الامتداح لان حياة برياموس تنتهي بالاوجاع وقد ايَّد هذه الحقيقة ماغون قائد جيش قرطجنة واخو انيبال المظفر فانهُ اذ سقط مُصـاباً بجرحٍ مميت . اخذ يخاطب اخاهُ انيبال قائلاً : ما هذا الانتهاء انتهاء الحياة والسعادة العالمية . فما اعظم جهـل الذين يرغبون القيام في مكان شامخ سامٍ . ان حال المقتدرين من شأنها ان تجلب العواصف . وعند الانتهاء يرون انفسهم على شفير الهاوية ووشك الاستغراق . فيا لعظم خطر قمة الكرامات الساميـة ما اخدع رجاء اصحابها وما ابطل مجدهم المبني على الغرور والكذب . ويا لشقاء حياةٍ قد حُـكم عليها بتعب متصل . فمـاذا تنفعني تلك الحروب التي احرقت فيها افخر القصور واحصن المدن التي هدمتها وفتكت بشعوبها . وماذا تفيدني الان تلك المنازل التي شيدتها وزينتها بالذهب والفضة . وانا الان جريحٌ على الارض اموت آيساً في هذا القفر . فما اكثر المقاصد التي تردها الان يا اخي في عقلك وتعتقد عليها قلبك . ولست تعلم ما يكون انتهـاؤها المرّ . ولئن تراني الان منطلقاً عنك فاعلم انك سترحل بعدي

وتتبعني سريعاً . هذا ما قالهُ ماغون لانيبال اخيهِ

فلنكتفينَّ بهذا ولنضربنَّ صفحاً عن كل انواع الموت . بل فلنلاحظنَّ ما تعدهُ الناس موتاً سعيداً . اعني ان يموت حتف انفهِ لا قتلاً ولا فجأةً . بل بمرض يعتريهِ . فاقول هل من شقاء اعظم من شقاء من يُعدُّ سعيداً لكونهِ شقياً . وما اكثر اوجاع من يموت على هذا النحو . فكم تضايقهُ اعراض هذا الموت من حرارة حمَّى تحرق احشاءهُ . وعطش مذيب ينشف شفتيهِ وييبسهما ويصدُّهُ عن التكلم . ووجع رأس يمنعهُ عن الفهم . وانقباض قلب تمزقهُ ويبلغ بهِ الى غشيٍ مميت . وغير ذلك من الاوجاع التي هي اكثر عدداً من اعضاء الجسد ولا علاج لها الَّا الادوية المرَّة المستكرهة التي لا تؤلمهُ اقلَّ من الوجع . وضف الى ذلك سجس افكارهِ اذ يكرهُ على مفارقة من يحب وما يحب . فضلاً عن انهُ لا يدري ايَّ مكان ينتهي اليهِ أجهنم ام السماء . فان كان مجرد ذكر الموت مراً فماذا يكون مخبرهُ والاجتياز بهِ . ان شاول الملك قد كان بطلاً باسلاً ذا قلب شجاع . ومع ذلك لما سمع وتحقق انهُ سيموت في الغد سقط على الارض مغشياً عليهِ من شدة خوفهِ . فما من امر ارهب للخاطئ وافزع من ان يقال لهُ : انك الان تموت وتباين كل لذاتك . وتكره على ان تؤدي لله حساباً عن جميع حياتك . فلو ضربت قرعة لرجل مذنب مستوجب الموت على اية ميتة يموت . أقتلاً بالسيف ام خنقاً . وهل يكون ذلك بتمزيق اللحم ام برضيض الاعضاء . فكيف يكون حال قلبهِ

وهو منتظر نهاية امره وما نصيبهُ من تلك القرعة. قُل عن حال رجل يفتكر
وهو في نزع الحياة انهُ بعد ساعة او اكثر قليلًا يبرز الحكم عليهِ بالابدية
إما في جهنم واما في السماء. لعمري ان حالة هذه لاسواء واشق حال.
فما هي اذًا الحياة التي ندعوها سعيدة. فان كان مثل هذا الانتهاء يتراءى لنا
سعيدًا ولم نرد ان نعتمد على رأينا هذا. فلندنُ ممن هو في حال النزع ولنسألهُ
عن رأيهِ في هذه الحياة. ولنستخبرهُ عن ذلك حين يضيق صدرهُ
وتغور عيناهُ. ويصفرّ انفهُ وتيبس رجلاهُ وتبرد ركبتاهُ. ويكمدُّ لون
وجههِ وتسترخي مفاصلهُ وتكاد أن تسكن حركتها وتضيق أنفاسهُ
ويكون ماسكًا باحدى يديهِ ايقونة السيد المسيح. وبالاخرى شمعة
مكرَّسة. والكاهن يساعفهُ في ان يموت موتًا صالحًا ويحثهُ على فعل
الندامة. فاذ ذاك سلهُ لتعلم ماذا يقول عن حياتهِ فلا شك انهُ بمقدار
ما كانت اوفر سعادة. بقدر ذلك يراها حينئذٍ اكثر خداعًا وغرورًا
لانتهائها على النحو المذكور. فما الذي كان حينئذٍ يبدله بجميع خيرات
الارض. إني لاظنهُ انهُ يهبها كلها مجانًا. بل يعطي ما هو اثمن منها لكي
لا يكون امتلكها قبلًا ان كانت قد صارت لهُ سببًا للخطيئة. ولقد كان
يُبذل كل شيء لكي يؤَهَّل الى اعترافٍ جيد. قال فيلبس الثالث ملك
اسبانيا التي كانت لا تغرب الشمس عن حدود ملكها إني لاشتهي ان
اكون استلمت بدلًا من هذا الحكم العظيم مفاتيح وظيفة بوابٍ في
رهبانية حقيرة. فحقًا ان الموت يأتينا بنورٍ عظيمٍ نكشف بهِ عن خداع

العالم . تعلَم انك عند الموت تفرح لو عملت . الا يقدر الموت على سلبهِ . فافعلهُ اذًا الان وانت قادر عليهِ . فلو تمتع امرؤٌ بجميع لذات العالم الى ساعة موتهِ . فما الذي يبقى لهُ منها في تلك الساعة . لا شيء البتة . بل انما يبقى لهُ انقباض قلب أليم ويأس مميت . مثلهُ قُل عن افعال التوبة والسيرة القشفة . فلو احتمل امرؤٌ حباً بالسيد المسيح ما احتملهُ الشهداء جميعهم فلا يشعر عند حلول المنون بشيءٍ من ذلك . بل انما يفوز باوفر سرور واعظم عزاء

ناشدتك الله يا صاح أصغِ وتامل قليلًا ما هي الغاية التي خلقك الله لها وتركك لاجلها في هذه الحياة وكان قادرًا ان ينقلك الى السماء . ألعلَّ قصدهُ تعالى بذلك كان ان تفرغ جهدك في ان تضيع الزمن كوحش يتلطخ بحمأة الشهوات الحسية اللحمية او ان تسعى في طلب كرامات خيالية . لا لعمر الله . بل انهُ تركك على الارض لكي تمارس افعال الفضيلة وتستحق بها ملكوت السماء . فاعلم انهُ امرٌ مقضيٌّ عليك بهِ لبارئك . ان تظهر اماتتـك ولا تأبى في خدمتـهِ احتمال مشقة . لهذا ادخلك تحت رايتهِ لتحارب عنهُ وتغار على كرامتهِ . ولهذا قبلك في جندية هذه الحياة كما يدعوها ايوب الصديق . فما رأيك في جندي يخلع عنهُ الاسلحة اذا شبت نار الحرب وبدلًا من ان يحارب مكافحًا يلهو ويمزح لاعبًا . وما قولك عن رجل حُكم عليهِ بالموت وهو يمزح ضاحكًا فيما هو ذاهب الى القتل . فالانسان منذ خروجهِ من مستودع امهِ لا يزال ساعيًا الى

الموت الذي حُكم بهِ عليهِ . ولا يدري هل يُساق بعد موتهِ الى موت ابدي في جهنم . الّا انهُ في الاقل يعرف ان ذاك لا يستحيل . فكيف اذًا ينبسط في لذات هذا العالم لاهيًا . لو عرف التاجر انهُ عند وصول مركبهِ الى المينا يدركهُ الغرق . فهل كان يشحنهُ شيئًا ثمينًا . فيا ما اكثر الذين بعد أن بلغوا جانبًا عظيمًا من الخيرات الزائلة هلكوا عند الموت . لانهم لم يريدوا ان يبارحوها وان بارحتهم هي

قد خبر امبرتوس عن رجل كثير الغنى انهُ اذ ناهزهُ الموت امر بخدامهِ ان يأتوهُ بكل انية بيتهِ الذهبية والفضية . فلما وضعوا ذلك تجاه عينيهِ طفق يخاطب نفسهُ قائلاً : انظري يا نفسي هذه كلها . اني اعاهدكِ بان امتعكِ بجميعها بل باكثر منها جدًا ان كنتِ لا تفارقين جسدي . قال : فاشتدت عليهِ اوجاع مرضهِ . فصرخ حينئذٍ برجز عظيم قائلًا : ايتها النفس العديمة الوفاء . اذ لا تريدين ان تفعلي ما ارغبهُ منكِ وهو ان تستمري مقيمة في جسدي فاذهبي الى الشيطان . قال هذا ففاضت نفسهُ الشقية . فمن هذا الخبر يمكننا ان نفهم بطلان الاشياء الزمنية والضرر الناشيء عنها لمن يعلّق قلبهُ فيها بمحبة مُفرطة لانهُ هل من بطلانٍ اعظم من بطلان شيءٍ غير نافع عند الاحتياج الكلي . وهل من شرّ اعظم من كون شيءٍ مضرًّا بالنفس

قد ذكر المعلم روبرتوس ليسيوس انهُ اذ كان يحث مريضًا على الاعتراف بذنوبهِ والاهتمام في خلاص نفسهِ . كان اهل بيتهِ يتراكضون في دارهِ من جهة الى اخرى مجتهدين ومجدين في اختلاس ما تصل اليهِ

يدهم . فلما شاهد ذلك المريض . وجه افكاره من امر خلاصهِ الى ما يُسرَق من امواله ومتاعهِ . فأخذ يتنهد الزفرات ويصرخ قائلاً : الويل لي ثم الويل لاني كثيراً ما عُنيت بربح هذا الغنى الغزير والان تضطرني الضرورة لا الى تركهِ فقط بل الى مشاهدة اختلاسهِ مني ايضاً. فيا أموالي ويا ذخائري أهكذا تنتقلين مني الى ايدٍ غريبة . واذ كان يشكو امرهُ ويلوم نفسهُ على ذلك قضى نحبهُ وهو متغاضٍ عن خلاص نفسهِ ومات موت وثني . وقد خبر المعلم فيسنسيوس عن رجل كان اقرض واحداً اربعة دنانير بشرط ان يردها لهُ اثني عشر ديناراً بعد اربع سنين . فقبل انقضاء هذه المدة حضرت ساعتهُ الاخيرة . فافتقدهُ كاهن وشرع يجتذبهُ الى الاعتراف الّاان المريض لم يكن يجبهُ الّا بهذه الكلمة لا غير . لي عند فلان اثنا عشر ديناراً . واذ كان يقول هذا فارقت نفسهُ جسمهُ ومات .

وخبرنا القديس برزدينوس انهُ اذ كان احد الكهنـة يحرّض مريضاً على التوبة كان المريض يسأل الكاهن عن سعر الحرير وثمن الجوخ . فمع ان الكاهن كان ينبههُ بغيرة عظيمـة قائلاً لهُ : دع عنك هذه الامور جانباً وافتكر في خلاص نفسك . فلم ينتصح المريض بل كان يكرّر سؤالاتهِ المتقدم ذكرها مستخبراً عن التجارة والارباح الدنيوية . ولما كان الكاهن يشدّد عليهِ التنبيه مستحثاً اياهُ على الاعتراف بالحاح أجابهُ المريض من فورهِ يا ابانا غير ممكن لي ان اعترف . فهذا كان اعترافهُ . ولم يقل هذا حتى توفاهُ الله وهلك

فما كم الثواب الذي تكافئُ بهِ الخيرات الارضية الذين أحبُّوها . فآهاً من جهل بني آدم . انهم قد رُزقوا هذه الحياة القصيرة ليربحوا بها الخيرات السموية الراهنة . وهوذا هم يصرفونها في ربح الخيرات الارضية الزائلة . التي لافراط حبهم اياها فهي مزمعة ان تهلكهم الى الابد

فهات الان نتمادَ في القول . متأملين انساناً يموت في اسعد حالةٍ . وحسبنا ان ننظر كيفية هيئتهِ عند انفصال النفس من الجسد . فما اشنع ما تكون جثتهُ حينئذٍ وما ارهبها . فترى محبيهِ واصحابهُ جميعهم يبتعدون عنهُ هاربين . ولا يطيق احدهم ان يمكث وحدهُ لديهِ ليلةً واحدة . واما اقرباؤهُ فيجهدون في ان يخرجوهُ سريعاً في كفن خَلَقٍ وبعد دفنهم اياهُ بيومين ان تذكروهُ احياناً فذلك امرٌ عظيمٌ . فهوذا الذي كانت اوسع المنازل ضيقة لديهِ . قد حُطَّ وامتدَّ كلهُ في مكان طولهُ عشرة اشبار . والذي كان يضطجع على الفرش الوثيرة الناعمة قد غدا مهادهُ السوس وغطاؤهُ الدود كما قال اشعيا النبي . واذ يكون مرعىً ومستأكلاً للدود والحيّات تكون اقرباؤهُ مبتهجين بموتهِ متنعمين بميراثهِ فتفرس ان استطعت في جثتهِ بعد موتهِ بثمانية ايام . ما اكره منظرهُ وارهبهُ . فهل من فرقٍ بينهُ وبين كلب ميت مدود ملقًى على المزابل . فهذا حال جسدك الذي تعزّهُ الان وتنعمهُ . الذي ربما يكن بعد اربعة ايام مرعى ومأكلاً للدود والحشرات

خبرنا المعلم اسكندر انه فتح يوماً قبر احد الامراء. فابصر الحاضرون ضفدعةً ضخمة جداً تستأكل وجه الامير. ومعها حشرات كثيرة مختلفة الانواع تقرض لحمه بانيابها. فلما اخبر به ابن الامير. وكان اذ ذاك شاباً في عنفوان صبوتهِ. بادر مسرعاً ليرى ما سمع بهِ. واذا ابصر ذلك قال. متنهداً ومتأسفاً. أفهذا اذاً حبيبنا الذي نربيهِ في التنعم. ونضجعهُ على الفرش الوثيرة في المنازل المبهجة. ونغذيه بالذ المآكل واثمنها ونعلّله بالطف المشارب وأروقها. ونكسوه افخر الملابس وانعمها. فالاولى بي أن اعاملهُ الان بصرامة. وأميتهُ بافعال التوبة حتى اذا مات وانا حيٌّ لا يضطهدني وانا ميت. قال هذا وعزم على خلع الامارة وأباطيل العالم. واختار حال الفقر حباً بالسيد المسيح. فذهب مختجباً الى رومية. وهناك اخذ يعذّب جسدهُ باصرم التقشفات. ممارساً افعال القداسة. وكان يقيت جسده مما يربحهُ من صناعة عمل الفحم. فاخيراً اتفق يوماً وهو ماضٍ الى رومية ليبيع فحمهُ. أن اعتراهُ بغتةً مرض عضال فاحتملهُ بصبر عجيب. ثم اسلم نفسهُ المباركة بيدي سيدهُ. وفي حين موتهِ صوّتت كل اجراس رومية من ذاتها. فاندهش من هذه الاعجوبة الحبر الاعظم وكل اكابر بلاطهِ. فاخبرهُ راهب بسبب العجب. وكان ذلك الراهب معلم اعتراف ذلك الامير المتوفي. واتفق أن كان وقتئذٍ في رومية جنود وقواد مرسلون من بلادهِ ليفتشوا عن اميرهم المذكور. فنقلوا جسدهُ الى مدينتهِ بكل اكرام وتوقير

وذكر ايضاً عن القديس فرنسيس بورجيا اليسوعي الذي كان قبل ترهبهُ نائب ملك اسبانيا في بلاد كاتالونيا انهُ بعد موت الملكة اليصابات امرأة كارلوس الخامس . سُلِّم لهُ جسدها ليدفنهُ في مدينة غراناتا . وكان جسدها محفوظاً داخل تابوت من رصاص . فلما وصل الى المدينة وفتح التابوت ليسلِّم جسد الميتة امام شهود . فرأى الجسد قد تغير تغيراً تاماً وصار منظرهُ مُستكرهاً مُريعاً . حتى انهُ لم يعد يجسر أن يُثبت بقسمٍ كمألوف العادة ان هذا جسد تلك الملكة التي كانت غرَّة دهرها بهاءً وجمالاً . واذ ابصر ذلك الملتئمون ارتدوا عنهُ راجعين ولم يقدروا ان يشاهدوا هذا المنظر الشنيع وقاموا نافرين من النتانة المنبعثة منهُ . فمن ذا لا يستدل من هذا على بطلان العالم . لانهُ هل من شيءٍ افضل شرفاً واكراماً من شخص الملك او الملكة في حياتهما . فها هوذا بعد موتهما تهرب منهما كل حواشيهما متمازّين منهما ومُستكرهين منظرهما . واذ كانا في قيد الحياة من يفوز بالقرب منهما ويكلمهما جاثياً امامهما يعدّ حظهُ سعيداً . الَّا انهُ بعد وفاتهما يفرُّ منهما كل احد ويتركهما الجميع قوتاً للدود او الكلاب وهذا كان من حال اليصابات الملكة . فلنعُد الى صددنا ان نائب الملك المتقدّم ذكرهُ اعني بهِ فرنسيس بورجيا . اذ تفرّس في هذا المنظر المخيف . اخذ يتأمل في ما كانت عليهِ الملكة وهي حية وما صارت اليهِ وهي ميتة . وكان يقول في نفسهِ : اين ذلك الوجه البهي . لقد استحال الى مادّةٍ منتنة ومرعًى للدود . اين تلك العزّة والهيبة المتلألئة قبلاً في كل جسدها .

وهادَ قلبهُ الى الله من تأملهِ ذلك وعزم على ترك الاشيا الزمنية رغبةً في الاشياء الابدية . وعقد من ثم ضميرهُ على الَّا يعبد ربًّا الَّا الذي لايعتريه الموت

ولقدكان فلاسفة الهند المعروفون بالبراهمـة يحفرون امام ابوابهم قبورًا مفتحة لكي يتذكروا الموت آن دخولهم وخروجهم على الدوام لانهم كانوا يعلمون ان ذكر الموت يفيد جدًّا لاصلاح السيرة . وما قالهُ افلاطون في هذا الصدد هو عين الصواب الحقيقة هي: ان الحكمة التأمُّل في الموت . وقد خبرنا المؤرخون عن رجل سيّئ السيرة اعترف للحبر الاعظم بخطايا ثقيـلة جدًّا ولما فرغ من اعترافهِ قال انهُ لايقوى على ممارسة الصوم او فعل من بقية افعال التوبة القشفة ومن ثم طلب الى البابا الَّا يكلفهُ قانونًا ثقيلًا . فوهبهُ الحبر الاعظم خاتمًا محفورًا فيهِ هذه الكلمات : تذكر الموت . وامرهُ بان يقرأ تلك الكتـابة ويتذكر الموت كلما وقع نظرهُ على الخاتم . فلما فعل هكذا مدة بعض ساعات . اثر ذكر الموت في قلبـهِ تاثيرًا عظيمًا حتى انهُ رجع الى الحبر الاعظم متصديًا لمكابدة اشقّ القوانين واصعبها . فالعدوّ الجهنمي يبذل كل جهدهِ في ان يلهينا عن ذكر الموت والتأمل بهِ . اني لاتعجب حقًّا من ان فكر ضرر زائل او خسارة زمنية من عادتهِ ان يسلب من الناس الرقاد ويحرمهم لذة الوسن . واما حقيقة الموت الذي هو ارهب من كل الاشياء المرهبة فلا تؤثر في قلوبهم ولا تحركهـا الى التوبة

الفصل الثاني

في صفات نهايــة الحياة الزمنية

انهُ ما عدا ما يلتحق بالسعادة العالمية من الشقاء . توجد اعراضَ اخر باهظة تقترن بنهاية حياتنا يجب علينا كل الوجوب ان نعتبرها لكي نحتقر جميع خيرات هذه الحياة . وعليه فمدار كلامنا الان . اولًا على ان الموت محقق اكيد الحدوث ولا حيلة في صدّهِ ولا سبيل الى الهرب منهُ . ثانيًا ان وقت حدوثهِ مبهم ولا وسيلة الى معرفة كيفيتهِ . لانهُ ما من احد يعرف متى يأتيهِ الموت ولا كيف يأتيــهِ . ثالثًا واخيرًا ان الموت يحدث مرّةً لا غير . فيمتنع من ثم ان نصلح بموتٍ ثانٍ نقص الموت الاول . وفي اول الامر نقول ان لزوم الموت هو اكيد محقق

ان الله لم يسنّ قط شريعة ثابتة مقرّرة لا يشوبها انحــلال نظير شريعة الموت لانهُ تعالى حلّ مرارًا نظام الطبيعة وشرائعها . الّا انهُ لم يحلّ قط شريعة الموت ولن يحلهــا ابدًا . وهذا الحكم الالهي لم ينفذ في الذين كانوا يستحقون الموت فقط . بل في من كان يقتضي العدل ان يكون بريًّا منــهُ ايضًا . قد انحلت في الحبل في سيدنا يسوع المسيح الشرائع الطبيعية القديمة ان يكون التناسل البشري بواسطة رجل وفقد بتوليــة الوالدة . فلكي لا يكون هذا في ولادة السيد المسيح قد اضطرّ اله هذه الشريعة الطبيعية الى اعجوبتين مذهلتين فولد ابنهُ الازلي من أمّ بتول . اما شريعــة الموت فلم يبرّئهُ تعــالى منها وان لم تسنّ عليهِ فانهُ كان

واضع الشريعة وبريًّا من كل خطيئة حتى الاصلية التي توجب علينا الموت بل كان يحق لجسدهِ الاقدس عدم الموت وهو احد الاربعة الكمالات المجيدة. ذلك لان نفسهُ القديسة كانت تشاهد الجوهر الالهي. فمع هذا كلهِ لم يدع ابنهُ يتمتع بحقهِ هذا الكلي الصواب والعدل بل بقوّة يدهِ الضابطة الكل حبس في نفسهِ المجيدة تلك الكمالات السعيدة وصدّها عن ان تبرز منها في جسدهِ كما كان ينبغي. وهذا كلهُ لكي يموت. وان قال قائلٌ ان ابن الله اذ كان قد ضمن بفداء الجنس البشري لاق لذلك بجلال حنوهِ ومحبتهِ ان يموت موت الصليب. أُجيب ان هذه الحجة لايصح ايرادها عن والدتهِ المثلثة الغبطة. لانها اذ كانت برية من الخطيئة الاصلية لم تكن خاضعة لشريعة الموت. ومع هذا لم يرد الله ان يبرئها من الشريعة العامة. فما اذًا هذا السحر الذي يُفتن عقولنا ولا يصدنا عن ان نتحقق جيدًا ضرورة الموت مع انها محققة غاية التحقيق

ولعمري لو كان الموت امرًا غير محقق لكان مع ذلك من شانهِ ان يجعل الانسان مستيقظًا محسنًا الحذر على الدوام. لانهُ على فرض انَّ الله خلق العالم واملأهُ بشرًا. وقبل ان يموت احدهم عُرف ان واحدًا من الناس اعترتهُ حمَّى وبائية. وشوهد طريح الفراش يتقلَّب في اوجاع المرض المميت من انقباض قلب وغُشي مرعب وعطش مذيب. وسجس مخيلة واضطراب. وانحلال قوى الى ان يبلغ اخيرًا امرأى من الجميع الى

حال النزع . ويكمد لونه وتنقطع انفاسهُ ويموت . ويعود جسدهُ باردًا
عديم الحركة . اما كان الجميع يندهلون من هذا المنظر متحيرين . أو اما
كان يأخذهم الخوف والرعب بزيادة اذا ما شاهدوهُ بعد ذلك بثلثة او
اربعة ايام منتخامتنًا وقد ابتدأ ان يدود . فلا شك انهم كلهم كانوا يرتجفون
فرقًا من ان يصيبهم ما اصابهُ . وان الله قال لهم : اني لست اريد
ان جميع الناس يموتون بل البعض منهم . ولم يقل تعالى من هم الذين لا
يموتون افما كان يلبث كل واحدٍ منهم قلقًا في غاية الانزعاج . خائفًا من ان
يكون حظهُ مع الذين يدركهم شقاء الموت والحال ان هذا يصيبنا جميعنا بلا
شك ونحن لا نفتكر بهِ . فان كان الموت الذي يحوم حولهُ شك
وارتياب من شانهِ ان يخيفنا هكذا . فكيف لا يخيفنا الموت المحقق عندنا
والمؤكد غاية التوكيد . فلو قال عزَّ وجلَّ ان لا يموت من الجنس
البشري جميعهِ الَّا واحد فقط . لكان الجميع يفزعون . فلِمَ لا تفزع انت
اذ قد اضطرَّ الجميع الى الموت . ولست تدري هل لا يفاجئك قبل الجميع .
فلو ان الله عيَّن الشخص المزمع ان يموت قبل الجميع . ومع ذلك عاش
هذا ملتهيًا متغاضيًا عن الموت . فما الذي كانت تقولهُ بقية الناس عنهُ .
أفما كانوا يندهشون من غباوة تغافلهِ عن هذا الامر المرهوب . فبلا شك
انهم كانوا يزدرون بهِ ويوبخونهُ شديدًا عن لهيَّهِ الفظيع في هذا الامر
الباهظ قائلين لهُ : كيف وانت عتيد ان تعود الى تراب تنعم جسدك
الذي عمَّا قريب يدفع مأكلًا للدود . كيف وانت انسان سوف

تمثل بإزاء عرش الله لا تفتكر في الحساب الاخير الذي سيطلب منك .
كيف لا تزدري بكل هذه الاشياء الزمنية وتحتقرها وقد حُكم عليك بالموت وانت عتيد ان تفارقها . اما نحن فيحق لنا ان نهتم في تشييد المنازل وجمع الاموال لان حياتنا لا تنتهي . وانت حياتك مستعارة مضطرٌ الى ان تردَّها غداً فما بالك مهتمًّا في بناء القصور واحتشاد الاموال التي لا تحتاج اليها . فكيف لا تختار لسكناك كوخاً تُعدُّ فيهِ نفسك للسكنى في القبر المعدّ لك

قد ذكر احد المعلمين خبراً من شانهِ ان ينكب بنا عن الضلال هذا قال . ان جندياً خدم سيده خدمة نصوحاً سنين عديدة . وحلَّ عنده بمكانةٍ من الكرامة والاعتبار فاتفق ان ذلك الجندي مرض مرض الموت . فاذ علمَ سيده بذلك اتاه حالاً باطباء حاذقين يعالجونه ابتغاء الشفاء . وطلب اليهِ بالحاح ان يكاشفهُ بكل ما يهواهُ قلبهُ وقال اني لمستعد ان ارضي خاطرك في كل ما ترغب وتشاء . ولا ابالي بالاسراف ولا يشق عليَّ تعب ولا أعبأُ بنصب . واسهب في الكلام في هذا المعنى . فاجابهُ المريض اني ابتغي منك احد امور ثلاثة اما النجاة من الموت الذي قد ناهزني . واما تخفيف اوجاعي الشديدة مدة ساعة واحدة لا غير . واما ان تهيئَ لي بعد الموت منزلاً حسناً آوي اليهِ واستريح فيهِ ليلة واحدة فقط . قال سيدهُ ان هذا كلهُ منوطٌ بارادة الله وحدهُ وقوتهِ الضابطة الكل . فتمنَّ غير ذلك مما اقوى عليهِ اهبك اياهُ مهما كان ثميناً فكل غرض لك مقضيٌّ ان

استطعت اليهِ سبيلًا فقال الجندي لقد ذهب اذًا باطلًا كل ما تكبدت في خدمتك من التعب ولم اجنِ نفعًا من كل ما فعلتهُ لاجلك في جميع ايام حياتي . ثم اقبل بوجههِ على الحاضرين المحدقين بهِ وقال لهم بتأسفٍ ودموع منهلّةٍ انظروا يا اخوتي كيف بذّرت الزمن باطلًا في خدمة هذا السيد . لقد انجزت اوامرهُ بما بي من الاجتهاد والحرص وغرّرت بنفسي مطوّحًا بها في خطر الهلاك الابدي . فتأملوا الان ضيق درعهِ عن اسعافي . فانهُ لايستطيع ان يمدّ لي يد الغوث ولا يضطلع على مساعدتي ساعة واحدة في ضيقتي هذه الشديدة . فاني انصحكم واحضكم ايها الاخوة بالمسيح ان تمعنوا النظر منتبهين مصغين لنصحي وتتعظوا بضلالي وتقوموا بنجاةٍ من مثل هذا الخطر العظيم . فاجتهدوا ان تخدموا في هذه الحياة سيدًا يقدر ان يكفيكم شرّ الشقاء الزمني ويكلّلكم باكليل المجد في الملك الابدي . ليت صحتي تعود اليّ ساعةً باذن الله فآلي بهِ ان لا اخدم من الان وصاعدًا اصلًا سيدًا عاجزًا عن مكافاتي على خدمتي . بل افرغ جهدي كلهُ في ان اكرم من وسع كل شيء علمًا وهو القدير ان يسترني ويستر العالم جميعهُ . قال هذا وندم المريض ندامةً شديدة وتوفي وابقى لنا نموذجًا فاعلًا يدعونا بهِ الى ان نصرف حسنًا الزمن الموهوب لنا من الله ونربح بهِ الثواب الابدي

فهات الان نعتبر ما اوردناهُ ثانيًا وهو ان الموت مُبهم . فنقول حقًّا ان الموت شيء مؤكد . الّا ان وقت حدوثهِ هو غير معروف ويحوم

حوله شك . لانه من ذا يعلم هل يموت شيخاً او شاباً . بمرض ام صعقاً بصاعقة او بسيف . بخور القوة شيئاً فشيئاً ام فجأة . هل يموت بين الناس ام في البراري المقفرة . فالموت لايزال بابه مفتوحاً . وهذا العدو لايبرح مشهراً حرابه ليصمي بها فوأدنا يوم لاندري . فان الرعاة لايزالون متيقظين حرساً على رعاياهم مع كلابهم المتنبهة وان لم لايترجح عندهم ان الذئب يطرقهم ويفترس شيئاً من رعيتهم فلا يستحيل وقوع الامر المحذور . كذلك المدن الحصينة فحراسها يسهرون ليلهم ناضين الخفارة عليها حتى في ازمنة الصلح والسلام حيث لايخشى هجمة الاعداء . ذلك احترازاً من ان يغتالهم عدوٌ على حين غفلة . وان سمعت يا هذا بلصوص يخرجون عليك ليلاً . تأرق ليلك تهجداً لئلا يفاجوك وانت نائم فينهبون امتعتك . والحال ان طروق الموت لايرتاب فيه . بل هو امر في غاية التحقيق فلِمَ لاتلبث ساهراً مستيقظاً على نفسك . ولست تعلم متى تموت . فلو كنت جالساً تحت سيف مرهف ثقيل معلق فوق رأسك بخيط رفيع . اما كنت تتحذره كل الحذر ولا تغافل عن هذا الخطر . فكيف يمكنك ان تستمر دقيقة واحدة من الزمن في حال الخطيئة المميتة وانت معلق فوق لجة جهنم بخيط رفيع خيط هذه الحياة السريع انقطاعه والممكن جزمه في كل وقت بانواع كثيرة . منها قطع عرق في الصدر او انفتاح دمل في الاحشاء . او تصاعد بخار الى الدماغ او انحدار نقطة على القلب . او غير ذلك من الحوادث الجزيلة

العدد التي كل منها كافٍ لان يجرعك كأس المنون

ان الاسرائيليين اذ كانوا يجهلون وقت سفرهم . استمروا مستعدين على الدوام للسفر مدة الاربعين سنة التي مكثوها في البرية . فكن اذًا مستعدًا دائمًا . فما ادراك متى يكون رحيلك . فان عزمت على السفر يومًا واحدًا تُعدّ بحرص كل اهبتهِ . وان بالغت في التأهب يتفق غالبًا انك نسيت شيئًا مما يلزم فهوذا انت على وشك الرحيل الى الابدية فهل تظنّ انك ان لم تؤهل نفسك له تكن قد احسنت الاستعداد . فمن ذا لا يشتهي ان لا يوافيهِ الموت الّا بعد المواظبة على خدمة الله قلّ ما يكون سنتين والحال انهُ ليس لك ولا سنة واحدة مؤكدة . فحتامَ التمهل والتقاعد عن خدمتهِ تعالى فلا تثقنَّ بشدة باسك وصحة مزاجك وعنفوَ شبابك . لانهُ يتفق مرارًا ان يثب الموت بغتةً في حين لا تفتكر بهِ . ويوم الرب ياتي كاصٍّ في الليل كما قال الرسول ولا يعلم احد باتيانهِ ولربما يجيء ساعة يكون رب البيت مستغرقًا في نومٍ ثقيل . انهُ في اليوم السابق يوم خروج بني اسرائيل من مصر كان عظماء المصريين يجهدون الفكرة في عظيم الامور ويعزمون على انجازها بعد يوم او سنة . فلم يبلغ احدهم الى صبيحة الغد

قد اخبر غيدو المؤرخ عن رجلٍ حكيمٍ قال دعاهُ صاحبٌ لهُ ان يؤآكلهُ في الغد . فقال : لِمَ يا صاح تدعوني ان آتي الى وليمتك في الغد وانا منذ سنين كثيرة لا اتجرأ ان أعد نفسي بهِ . لكني اتوقع

الموت في كل ساعة . وما المراد بما قالهُ النبي : غربت الشمس وقت الظهيرة (ارميا ١٥: ٩) . انما يراد بهِ انهُ لما يخيَّل للنـاس انهم في نصف طريق حياتهم وفي ريعان صبوتهم وعليهِ يترجون سنـين واموالاً غزيرة وعرساً معتبراً وكرامات عالمية يفاجئهم وقتئذٍ الموت وتاعب بهم ايديهِ وتحول بينهم وبـين متنزهاتهم المعدَّة وتحبط آمالهم في يوم اعدوهُ للملاهي . كما حدث في قصةٍ رواها اسكندر فايا قال : ان لاديسلاوس ملك اونغاريا وبوهيميا كان قد خطب لابنهِ ابنة كارلوس ملك فرنسا . فلما حان وقت زيجتهما . بعث موكباً من اشراف مملكتهِ ليرافقوا في الطريق عروس ابنهِ ابنة ملك فرنسـا . وكان من اعظم المرسلـين شرفاً اسقف مدينة باسو . وكان المبعوثون ستمائة شريف وكانوا متوشحين بافخر الملابس الملوكيـة وارسل من جنس الاناث اربعمائة بنت من اجمل بنـات الدولة . وكنَّ كلهنَّ مزينات باثمن الحـلل وابهى الحلى . وكانت مركباتهنَّ مصفَّحة بصفـائح الذهب وزفَّ معهنَّ هدايا ثمينة الى الخطيبة . فلما دخل هذا الموكب العظيم مدينة بـاريس وقبل ان يصلوا الى البلاط المعد لهم . اذا بريدٌ بعث بهِ ملك اونغـاريا وفد عليهم على فرس يعدو سَنَناً وبيدهِ مكتوب من الملك المذكور فيهِ ان ابنهُ العروس قد مات . فيا لهُ من حزن عظيم وغم جسيم استحوذ على قلب المرسل وعلى قلب ملك فرنسا ايضاً . فاخذ الكرب من نفسهِ اشدَّ مأخذ حتى لم يستطع ان يواجههم . فارتد المرسلون الى بلادهم وبأُوا بالويل والثبور .

هكذا يردُّ ربك الفرح غمًّا ويحيل نهار البهجة والفرح الى ظلام الكره والكدر كما قال النبي (عاموص ٨ : ١٠)

فقل لي الان يا من توَّجل توبتك وانت متكل على الرحمة الالهية أنَّى تعلم انك تُعطى زمنًا لتستغيث بها . واذا أُعطيتهُ . فمن اين تعلم انها تستجيب لك . وكيف تقول تخاف العدل الالهي وانت توَّخر توبتك الى اجل غير محدود من السنين ولا تترك الرذائل الآن تتركك هي . ان بعض الناس يعاملون الله سبحانهُ كما عامل ديونيسيوس الملك صنم اوفولو . ان هذا الملك نزع عن الصنم ثوبهُ المصفح بالذهب وقال لهُ : ان هذا الثوب لا يناسبك في زمن الشتاء لانهُ بارد . ولا يصلح لك في زمن الحرّ لانهُ ثقيل جدًّا . كذلك هوُلاء لا يجدون نسقًا مناسبًا لخدمة الله . لانهم في زمن الصبوة والشبوبية يقولون انهُ لم يأتِ الزمن بعد . فاذا اقبلت الشيخوخة واشعلت رأسنا شيبًا حينئذٍ نعتني بممارسة الفضيلة . اما الان فلسنا نريد ان نوهن قوانا ونذيل نضارة عمرنا ونكدر كاس رغدنا بافعال التوبة حذرًا من ان يقعد بنا العجز في ما يتبقى من حياتنا عن ان نشرع بعمل . فاذا بلغوا سن الشيخوخة يتعللون بغير ذلك قائلين اننا ممنوُّون بسقام ولا نقوى على ممارسة افعال العيشة القشفة . كذلك يخادعون الله ولا يخدعون الَّا انفسهم . وقد رذل القديس يعقوب الرسول قول من يقول : اننا ننطلق اليوم او غدًا الى مدينة كذا ونقيم هناك سنة ونتجر ونربح (٤ : ١٣) . فان كان

القول : انا نستطيع كذا في الغد . لا يصح نظراً الى الاشياء الزمنية . فكيف لا يكون قول جهالة وغباوة بالنظر الى خلاص النفس الابدي و بهِ نعد انا بعد عشر سنين او عشرين سنة او في حين الشيخوخة نعتني في ما يتعلق بأمر خلاصنا . لانهُ يمكن انا لا نبلغ الى هذا الزمن . فلِمَ نؤَجل الى الغد امراً جزيل الاعتبار يجب علينـا ننجزهُ باسرع ما يكون . وان لم نفرغ من عملهِ اليوم فيمكن الآ نبـلغ الى الغد لننجزهُ . وهذا عين ما كان منخدعاً بهِ القديس اغستينوس قبل توبتهِ ولذلك اخبر عن نفسهِ قائلاً : اني كنت اشعر بان نفسي كانت مسيكةً لخطاياي ولاصقـةً بها . وكنت اصرخ متنهداً قائلاً الى مَ اقول غداً غداً . ولِمَ لا ينقطع دنس سيرتي في هذه الساعة . هذا ما كنت اقولهُ وانا مذرفٌ دموعاً سخينةً بقلب منسحق .
(آه)

اما في بيان ما اوردناهُ اخيراً عن الموت من انهُ لا يحدث الّا مرةً واحدةً حتى لا يستطيع ان نصلح بموتٍ ثانٍ نقص الموت الاول . فنقول ان الله قد جعل الانسان من كل حس شَفْعاً كالعينين والاذنين واليدين والرجلين . اذ فقدت الواحدة تُغني الاخرى غناءً . اما الموت فاخصَّ بهِ موتاً واحداً . فان صالحاً نجونا وان شريراً اهلكنا الى الابد . فما ارهب وحدة الموت هذه وما ارعبها فان اجلَّ الامور واجزلها اعتبـاراً اي الموت . لا يجرَّب ولا يختبر ولا يعـالج . بين ان امر الابدية منوطٌ بهذا الوقت الاخير . لم نكن لنموت الّا مرة واحدة . وسوءُ هذا الموت الوحيـد لا

اصلاح له اصلاً . خبرنا بلوتركوس عن قائد يدعى ليسيمكس . انه امر بالمواخذة يوماً على جندي عن زلةٍ زهقت منه في الحرب . فوعده الجندي ألّا يعاودها اصلاً . فاجابهُ القائد الحكيم : ما هذا الكلام . الست تعلم ان الحرب لا يزلُّ فيها احد مرتين (اه) . فلو تعطى قوس لرجل فلاح لم يبصر قط سهماً حياته كلها . ويومر بان يرمي الغرض المبتعد عنهُ جداً بسهم نافذ . وان زلَّ المرة الاولى واخطأ الغرض يحرق حيًّا . وان اصابهُ يعطَ اموالاً غزيرة وهبات جليلة . فمن لنا ان يصف ضيق هذا الرجل وخوفهُ حين يضطرَّ الى فعل امر مستصعب جدًّا لم يباشره في حياتهِ قط وهو يعلم انهُ ليس له ان يصلح خطأ الرمية الاولى برمية ثانية . فهذه الحال حالنا . فاننا لما نمت ولا مرة واحدة . ولما نجرّب قط هذا الامر العسير . ونحن مزمعون ان نموت مرة واحدة . وبهذا الموت الاول والوحيد تنوط اما ابدية العقاب الجهنمي واما ابدية الثواب السماوي

فحتامَ التغاضي عمّا يؤهلنا الى ان نموت ميتة صالحة ولها انما قد خلقنا الله . فدأبك من الافعال البشرية الممكن تكرارها ان تصلح ما ركبتهُ وتحسن فعلاً اسأتهُ قبلاً . ومن ثمَّ فما نخسرهُ اولاً يعوض منه ثانياً . فالتاجر اذا غرقت لهُ مركبة موسوقة في البحر فيمكنهُ ان يربح بمرة اخرى ما خسرهُ بالمرة الاولى . اما الموت فان كان مرة شريرًا فلن يمكن ان يُصلح ابداً . ولقد احسن احد المعلمين العابدين اذ قال . نرى ان

الذين يريدون ان يباشروا صناعة او يدخلوا في امر عالمي ذي اهمية
يطيلون الفكرة في اخذ الوسائط المناسبة والمؤدية بهم الى بلوغ ما
ارادوا . فكيف اذًا يتغاضى الاكثرون عن التروّي في ما يفضي بهم الى
الموت ميتةً صالحةً وهو اصعب الامور الدنيوية كلها واعظمها وحقيق
بان تجهد فيهِ البصيرة . فليكن اذًا سلوكنا على الارض سلوك اناس
مزمعين ان يموتوا . ولنعتقدنَّ يقينًا باننا سنموت حقًّا مظهرين بافعالنا اننا
عارفون بماسيصيبنا. الَّا اننا نجهل متى يوافينا. فليجتهد كلٌّ منا في ان يمارس كل
عمل من اعمالهِ كانهُ العمل الاخير . وكانهُ عند فراغهِ منهُ تنتهي حياتهِ .
ولا سيما اصلاح سيرتهِ فلا يتمهل فيهِ . ولا يتأخر عن قمع اهوائهِ المنحرفة .
وتجريد افكارهِ من الارض ورفعها مع قلبهُ الى السماء . وذلك بتوجيه
عواطفهِ الى الله خالقهِ . ان الشجرة المعوجة ان قطعتها تسقط حيث
كانت مائلة . فان كنا ما دمنا احياء على الارض معرضين عن السماء
غير مائلين اليها . فما هي الجهة التي نسقُط فيها . فلنخف ثم فلنخف من جهنم

الفصل الثالث

في الدقيقة التي بين الزمن والابدية وفي ان هذه الدقيقة مخيفة جدًا لانهُ بها تنتهي حياتنا

فيا ايتها الدقيقة دقيقة حياتنا الاخيرة وبدء الابدية ما ارهبك
وارعبك . لاننا بك نفارق الحياة وحينئذٍ نكره على ان نؤدّي حسابًا
عن حياتنا . وان نلج بلدًا غريبًا لا نعرفهُ . انهُ بدقيقة واحدة تزول حياتي .

وفي هذه الدقيقة نفسها امتثل امام الديان . وحينئذٍ تنتصب نصب عيني جميع خطاياي الجزيلة العدد والفظيعة جداً . ويقضى عليَّ بالخلود اما في السماء واما في جهنم . ولم يكن لهذا الامر الذي هو اعظم الامور اكثر من دقيقة واحدة . فلا يعود سبيل لاحتجاج او اعتذار ولا سيلة لرفع الدعوى الى محكمة اخرى ولات ساعة اجتهادٍ ولا استشفاع . فيا لها من دقيقة مفزعة نيطت بها كل هذه الامور الباهظة . ويا لها من دقيقة عظيمة انها اعظم من جميع دقائق الزمن والابدية . يا لها من دقيقة ليست زمناً ولا ابدية بل مدار الزمن والابدية . وبها يتميز الزمن من الابدية . يا لها من دقيقة يسيرة ضيقة وعظيمة جسيمة . تقضى بها اعظم الامور وتستوعب امورٌ جسيمة

فلكي نفهم جيداً ما اخوف هذه الدقيقة التي لا يستطيع الخاطي ان ينجو بها من عدل الديان الغضوب . لا تجزي عنهُ شفاعة القديسين ولا تغني عنهُ صلوات الكهنة . ينبغي ان نورد ما ذكرهُ القديس داميانوس في رسالتهِ الى البابا اسكندر الثاني مما كانت تنقبض منهُ فرائص هذا القديس ويقشعر بدنهُ خوفاً ورعباً كلما كان يتذكرهُ قال : ذهب رجلان الى حرشٍ ليحتطبا . فخرج عليهما تنين ضخم جداً ذو رأسين يدلع لسانيهِ وكانهما سهمان . وعيناه تُوريان شرراً . فبرز اليهِ اشجع الرجلين ولما دنا منهُ بادرهُ بضربةٍ بفأس كانت بيدهِ فقطع احد رأسيهِ . غير ان الفأس افلتت من يدهِ بعد الضربة . فلما شعر التنين بالم جرحهِ . هجم على الرجل

وأنشب فيهِ أنيابهُ . فشرع يصرخ المسكين طالباً من رفيقهِ ان يسرع الى عونهِ أو يناوله الطبر ليتخلص من ذلك التنين الذي كان يسحبهُ الى وكرهِ . الّا ان رفيقهُ العديم الشجاعة لم يقوَ إلّا على الهرب . فقرَّ مغادراً رفيقهُ في يد التنين الذي سحبهُ الى وكرهِ وافترسهُ هناك . قال القديس داميانوس : انني لا اقدر ان اصف كم يرعبني هذا الخبر . وانني اتامل مرات كثيرة حال هذا التنين وحال هذا الرجل في تلك المغارة . حيث لم يكن من يقضي بينهما ويحسم النزاع . فلا معين ولا منقذ . ولا تغني عن الرجل فريسة التنين شجاعتهُ ولا قوتهُ ولا صراخهُ . فان كان تأمّل القديس حال انسان ايس من كل معونة في خطر موت زمني قد افعم قلبهُ رعباً وحزناً هذا اعظم مقدارهما . فماذا يكون رعب الخاطي وخوفهُ في تلك الدقيقة المرعبة التي فيها يحكم الله عليهِ حكماً لا يردّ . وفيها لا يعود للشقي رجاء عون او علاج او خلاص ويسلّم لانياب التنين الجهنمي الذي يقبض عليهِ حالاً . ويغلّ نفسهُ ويسحبها الى اللجة المظلمة الجهنمية . فردّد بخوف في ذهنك ما قالهُ النبي عن الشيطان : لئلّا تخطفوا مثل الاسد نفسي حيث لا منقذ ولا مخلص (مز ٧ : ٣) . فيا ما ارهب الوقوع تحت مخاليب اركون الشياطين حين يكون الخاطي متروكاً من جميع البشر والملئكة . ومن ملكة البشر والملئكة ومن ابي المراحم

قال الانبا الياس : ثلثة تريعني وارتعد فرقاً عند ذكرها . الدقيقة التي فيها تفارق نفسي جسدي . والدقيقة التي فيها امثل امام الله

للدينونة . والدقيقة التي فيها يبرز القضاء عليَّ . والحال ان هذه الثلاثة تتم في دقيقة الموت . فيا لها من دقيقة مرهبة تقطع خيط الزمن وتمد سدى الابدية المنوطة بالموت الذي سيفاجئنا اذ نكون مهتمين في اطالة حياتنا . وفي هذا الصدد قد اورد بولس اميليوس خبرًا عن كارلوس ملك نافارا . قال : ان هذا الملك اذ خارت قوتهُ من افراط انهماكهِ في اللذات اللحمية الدنسة . امرت الاطباء بان يلحف جسمهُ ملاءةً مبتلةً من مياهٍ مستقطرة من عصير العنب . فلفهُ احد خدامهُ وخاط عليهِ الملاحف المبتلة بالماء المذكور . واذ لم يجد لديهِ مقصًا يقطع بهِ الخيط . احرقهُ بشمعة متقدة . فعلق اللهيب بالخيط ثم بالملاحف المبتلة بالعرق وغدا الملك مستغرقًا في اللهيب فمات لساعتهِ . فكأن حياتهُ متعلقة بخيط . فقدها بمثل هذا الموت المرثى لهُ . ولعمري ان خيط حياتنا لاسرع قطعًا من خيط كتان . ومن ذا يقدر ان يحصي كثرة الاسباب والطرق التي يأتينا منها الموت وبها . وما اصغر واحقر الاشياء المنوطة بها حياتنا اذ انها تنوط بخيط رفيع بل بشعرة واحدة . كذلك انقضت حياة فابيوس احد القضاة الرومانيين القدماء . علقت شعرة بحلقومهِ اذ كان يشرب حليبًا فاختنق بها ومات . والموت لا يجد بابًا مغلوقًا دونهُ . بل يخترق مسامَّ الهواء ويصادم الحياة ويقتنصها . لقد صدقتنا الاخبار ان اناكراون الشاعر مات من حبة عنب . واخر يقال لهُ دروسوس اذ كان يلعب بتفاحة صغيرة وقفت في حلقومهِ وخنقتهُ . فلا جرم ان شهوات النفس ولذات

الجسم تمهد الطريق للموت وتوسعهُ . وهكذا اوميروس اعظم شعراء اليونانيين قتلهُ الم الماليخوليا . وقيل عن شاعر اخر يدعى سوفوكليس انهُ توفي بغتةً من افراط فرح . وديونيسيوس الملك مات من افراط فرحهِ لما بلغهُ من خبر انتصار عسكرهِ على الاعداء . واوريليانوس الملك قضى اجلهُ وهو يرقص في يوم عرسهِ مع ابنة دوميسيانوس الملك عروسهِ . وكورنيليوس غالوس وتيطوس اتبيروس وغيرهما كثيرون ماتوا وهم يرتكبون فعل الزنى . فلينتصح كل قارئ . ويتعظ ولا يقل اني لست اموت اليوم . لان من ماتوا بغتةً لم يظنَّ احدهم انهُ يموت في ذلك اليوم . فما عرض لغيرك يمكن ان يعرض لك ايضاً . وما طرأ على غيرك لربما يطرأ عليك فاحذر وانتبه

الفصل الرابع

في السبب الذي من اجلهِ يكون انتهاء الحياة الزمنية مخيفاً

فان كان الموت من شانهِ ان يُرعبنا جداً لان بهِ ينتهي كل ما لنا في هذه الحياة . فما يكون ارعبهُ اذا حملنا قهرةً على ان نؤدّي حساباً عاماً لذاك الديان العادل يوم لاتاخذمنهُ شفقةٌ وقد مات لكي نحسن استعمال كل شيء . فكان ايوب الصديق يحسن حساب حياتهِ . ومن اجل ذلك افتخر الله بهِ انهُ خليلهُ . وقد شهد الروح القدس انهُ لم يزرِ وزراً في كل ما قالهُ آن مضايقهِ . ولم يعذبهُ الله من خطيئة صدرت منهُ . بل

قدمهُ لنا مثالاً للصبر وقدوة للفضيلة . وهو قال عن نفسهِ ان ضميرهُ لم يبكتهُ على نقص وقع فيهِ (ايوب ٢٧ : ٦) . ومع هذا فقد اشار الى ان تادية الحساب الاخير لله لرهيب جداً . حتى انه لفراط خوفهِ من صرامته قال : من يعطيني ان تعضدني في الجحيم وتسترني حتى يجوز غضبك (ايوب ١٤ : ١٣) . ومجرد النظر الى الرب يوم يغضب ويوم يكون تعالى هو الشاهد والديان معاً سيكون مرهباً مرعباً جداً حتى ان الذهبي فمهُ قال في عظتهِ الرابعة والعشرين على انجيل متى . خير لنا ان تنقضَّ علينا الصواعق من ان نرى ذلك الوجه الوديع المحبوب قد استحال الى وجهٍ غضوب يرذلنا ويقصينا عنهُ وتصعقنا السماء خير من ان نشاهد تينك العينين المملوءتين حنواً ورافة تشزران الينا وترمقاننا رماق الغضب

وقد اتفق يوماً في هذه الحياة حيث تسود الرحمة . ان ايقونة سيدنا يسوع المسيح المصلوب اصرفت عينيها بغضب عن جماعة من الاشرار اذ كانوا ينظرون اليهـا . فما عتمَ ان صعق منهم ثلثمائة نفس على الارض وخروا مغشياً عليهم ولبثوا على هذه الحـال ساعاتٍ لا يستطيعون نهوضاً . فما عساهُ يحلُّ بالخطأة من الخوف اذا نظروا لا الى ايقونة ابن الله المصلوب بل الى اقنومهِ الالهي نفسـهِ . وما اذ شاهدوهُ ليس على حال اهانة الصليب . بل في منبر عزتهِ وسدة عدلهِ . وما يغشـاهم من الرعب اذا رأوهُ لا في زمن الرحمة . بل في محـل الصرامة القصوى . ليس عرياناً وبايدٍ مسمرةٍ . بل متسلحاً مشرعاً الى الخطاة سنان رجزهِ وغضبهِ ليدينهم

ويثأر بهم وينتقم من معاصيهم . ولعمري ان حُقن نهر عظيم وحُبس عن جريهِ السريع مدة عشرين او ثلاثين سنة يجمع في باطنهِ مقداراً عظيماً من الماء . فان اطلقت بعد ذلك تلك المياه فيكون عظم جريها عظيماً حتى انهُ لا جسر ولا حاجز حصين يقوى على الثبوت امامهُ . وعدل الله المدعو من دانيال النبي نهراً نارياً . كانهُ حقين ومحبوس مدة عشرين او ثلاثين سنة اعني مدة حياة الانسان . فما اعظم ما تكون لجة هذا الغضب المجموع وما اشدَّ ما يكون عزم جريهِ على الخاطي . في ساعة الموت . فهذا هو عين الغضب الشديد الجزيل الصرامة الذي سوف يبصر الهالك الشقيُّ لوائحهُ على وجه الديان فيأخذهُ منهُ عظيم الخجل وكبير الرعب . ولافراط خجلهِ وخوفهِ يخرُّ مغمياً عليهِ ويسقط آيساً . ومن ثم قال دانيال النبي ان النار تتطاير من وجههِ تعالى وعرشهُ يكون من لهيب وبكراتهُ من جمر نار (دانيال ٧ : ٩) . لانهُ تعالى يكون ملتهباً ناراً وصرامةً وعدلاً . وان بكرات عرش الله الديان الرهيب يكنى بها عن سرعة جري قدرتهِ الضابطة الكل في ادراك ثارهِ من الخطأة وانتقامهِ من اوزارهم . فاما هوشع النبي فمثلهُ تعالى بوحشٍ غضوب . وجعل على لسانهِ تعالى هذه الكلمات : انا امضي الى ملاقاتهم مثل الدبِّ الذي خُطف جروهُ . وامزق احشاهم واهشمهم وافنيهم كالاسد (هوشع ١٣ : ٨) . وحقاً انهُ لا يوجد بين الوحوش اشرس طبعاً واسنى خلقاً من الاسد والدب اذ خُطف جرو احدهما .

فانهما يثبان برجز مفرط على كل من مرَّ ابهِ والويا عليهِ . تامل الانبا اغاتون على الحقيقة وهو مشرف على الموت . فاستحوذ عليهِ التحير ولبث في هذه الحال ثلثة ايام فاتحاً عينيهِ شاخصاً . ومن شدة خوفهِ لم يستطع ان يتحرك يميناً ولا شمالاً . فان الله الذي تكلف الصبر عليكم اياماً كثيرة فانهُ سوف يصيح بكم في ذلك اليوم الذي تكلم عنه على لسان اشعيا النبي قائلاً : اني حتى الان لبثت صامتاً وصابراً فالان اتكلم مثل الطالقة وأبدد وأبتلع معاً (اشعيا ٤٢ : ١٤) . فذلك اليوم اذاً وتلك الساعة يكونان زمن عدل محضاً لا تمازجهُ رحمةٌ . فلا يكون لاحدٍ رجاء شفقة او عون ولا يشفع فيهِ الَّا اعمالهُ الصالحة

فيا ايها الانسان الذي لم تزل بعد في قيد الحياة . اذكر متأملاً انك ستعرف يوماً حال هذا الزمن الذي لا يكفِّر فيهِ عنك دم السيد المسيح ولا صلبهُ ولا تنفعك شفاعة مريم الكلية الحنوّ . ولا صلوات القديسين . ولا رحمة الله بل مراحمهُ السالفة تدعوهُ تعالى الى ان يشدد عليك لا في عدلهِ . يوم لا يكون لك من نصير وساعة اذا استشفعت فيها يشفع لك . بل يقوم الجميع عليك . والعذراء امُّ الرحمة نفسها بل رحمة الله عينها ودم المسيح مخلصك . وملكك الحارس والقديسون جميعهم يخاصمونك ويقامونك ويهملونك ولا يدافع عنك او ينتصر لك الَّا اعمالك . فانظر الان كيف يجب ان تُعدَّ نفسك لهذا اليوم . فاجتهدنَّ الان في ان تنتفع بدم السيد المسيح وتصيرهُ مفيداً لخلاصك . والَّا عاد

سبباً وداعية لهلاكك . فان صدقنا القول وما من امر اصدق منه . فلم لا نتأمله ولِمَ لا نتجنب كل ما يصدُّنا عن تامله ولِمَ لا ننتصح بنصيحة الانبا امون : انهُ لما استشاره راهب حديث مستخبراً عمَّا ينبغي ان يفعلهُ لكي ينمو في الفضيلة . قال الشيخ : اذهب وكن مردداً في ذهنك الفكر الذي يردّدهُ في عقلهم المجرمون المسجونون فلا يزالون يسألون عن القاضي اين هو ومتى يجيء . واذ يترقبون ساعة العذاب لا يبرحون مذرفين الدموع . كذلك يجب على الراهب ان يستفزّه على الدوام الخوف والرعبة ويونب نفسهُ قائلاً : ويلٌ لي انا الشقيُّ ترى كيف يكون وقوفي امام منبر ابن الله . وما يكون الحساب عن افعالي . فانك ان تاملت هذا تاملاً متصلاً . يتيسر لك الخلاص . ولعمري انهُ ولو مهما اجتهدت في البلوغ الى هذه الحال . فلا تكون قد بالغت بهِ

وساعة الموت سوف يرى فيها الانسان مشهداً اخر مريعاً يجعل هذه الساعة مخيفة كل الخوف . سوف يرى بشاعة الخطيئة ويقدر حينئذٍ جسامة قبحها حق قدرها . واليهِ اشار دانيال النبي اذ قال : ان منبر الله من لهيب نار (دانيال ٧ : ٩) . فضلاً عن ان النار تحرق انها تبرق وتضيء وتنير . كذلك في الدينونة الالهية لا يحكم الله بصرامة العدل فقط بل يكشف تفاقم خباثة البشر ايضاً كقول المرتل . انك قد اقمت اثامنا امامك ودهرنا في ضوء وجهك (مزمور ٨٩ : ٧) . فالخشبة ان طفت في الماء وركدت فيتمكن صبي من تحريكها بسهولة وان ثقلت

وضخمت . وما ذاك الّا لان نصفها مستغرق في الماء . فاذا اخرجت منهُ علم انها ضخمة وجزيل ثقلها . ويحتاج الى اناس اقوياء في تحريكها لانهُ يبين كل جرمها كذلك لانشعر الان بثقل آثامنا ما دامت مستغرقة في مياه هذه الحياة الكدرة المتموجة ونصفها محجوب عن بصرنا . فاذ بارحنا هذا العالم فاننا نجدها غير محتملة لافراط ثقلها وكبير جرمها يملأنا من الخزي والخجل . وضمير الخاطي يطعن بسيفين . احدهما يرشق بهِ اذ يشاهد كثرة خطاياهُ التي لا يحصى عددها . والاخر اذ يرى عظم قبحها واولًا يندهل متحيرًا اذ يبصر خطاياهُ كثيرة لم يفطن اليها قبلًا . وامرٌ من هذا ان ما كان يظنهُ صلاحًا يجدهُ حينئذٍ اثمًا . لانهُ اذا آن الاجل المسمى من الله للقضاء الاخير . فيقضي حينئذٍ قضاء عادلًا على الاعمال الصالحة كقولهِ تعالى بفم النبي . اذ اخذت انا دولة قضيت بالعدل (مز ٧٤ : ٣) . فما ابعد الخلاف بين حكم الله وحكم البشر . لان الروح القدس يقول عن احكام الله انها تشبه لجة عميقة . وان افكارهُ لبعيدة عن افكار بني البشر كبعد الارض من السماء . فان كان الناس الروحيون المتصفون بعقل ثاقب حاذق يجدون ناقصًا ما يتبين لبقية الناس كاملًا . ويرذلون صوابًا ما يمدحهُ اولئك توهمًا فما انفذ نظر الله وهو نفاذ بذات الصدور ولا تتنزه امامهُ عن شائبة ولا نقص طهارة تضاهي طهارة الملئكة فان كان تعالى اكتشف شرًّا في الملئكة كما قال الكتاب المقدس . فكيف يمكن ان تحجب عنهُ ذنوب البشر . وان كان يفحص عن اورشليم المقدسة

بتدقيق بليغ . فاي فحص يفحص عن بابل الدنسة . وان كان قد عامل الابرار بصرامة المعاملة فباية معاملة يقصد اعداءهُ

فهناك تظهر عياناً جميع الاعمال التي مارسناها وتلك التي اهملناها . هناك يأثمك الله ليس في الشر الذي ارتكبتهُ فقط بل في الخير الذي اهملتهُ وكان يجب عليك ان تفعلهُ . والخير الذي وان فعلتهُ لم تحسن فعلهُ يُعدُّ عليك اثماً . ويقام الفحص على كل امر ويرفع عنهُ كل حجاب ويشتهر ويقوم الشيطان المشتكي وينقّر عن عيبك وسرك ويفشي بكل ما عرف من ذنوبك . وما لا يعرفهُ الشيطان لا يواريهِ ضميرك ولا يكتمهُ بل يشكوك بهِ ويقاومك فيهِ وان فات ضميرك شيء من اثامك . فملكك الحارس الذي هو الان معينك ومعضدك يكون حينئذٍ خصمك . والذي لا يكشفهُ الشيطان ولا يعترف بهِ الضمير ولا يشهد بهِ الملك الحارس فلا يمكن ان يحجب عن الديان الذي سيكون حينئذٍ هو الشاهد والخصم معاً . فانهُ تعالى عليم بذات الصدور فيكشفهُ ويشهرهُ بحكمتهِ الغير المتناهية لان عينيهِ عزَّ اسمهُ احدق من عيون القطا . فتنفذ الى اعمق مخدع ارادتنا وترى هناك اشياء كثيرة ردية كنا نعدها حميدة . فيالها من محاكمة عظيمة غريبة حيث لا منكر ولا جاحد والجميع مشتكون حتى المذنب عينهُ . فيا لهُ من حكم مريع ليس لك فيهِ من شفيع او نصير . والمشتكون ثم اربعة الشيطان وضميرك وملكك وديانك نفسهُ . فديانك انما يشتكي حينئذٍ عليك موردًا

لك اشياء كثيرة كنت تعول عليها في تزكية نفسك

فما يكون حزنك وخجلك اذا عدَّ عليك الله شرًّا ما اعتقدتهُ خيرًا ·
قل لي نشدتك الله من ذا الذي لم يكن يظن ان عزرا الاسرائلي قد احسن فعلًا لما دنا من تابوت العهد وسنده بيدهِ اذ كان مشرفًا على السقوط · الّا ان الله لا يرى فيهِ مثل الذي رأيت بل عدَّ فعلهُ هذا اثمًا وصعقهُ بالموت من اجلهِ ايذانًا بان احكامهِ الالهية تباين جدًّا احكام البشر · ومن ذا لا يستصوب ما فعلهُ داود ان رام ان يعرف عدد شعبهِ ويظنهُ ضربًا من الحكمة وحسن التدبير والله يحسب هذا العمل اثمًا · ومن اجلهِ عاقبهُ بطاعون لم يرَ مثلهُ الى يومنا هذا · ولما تبطأ صموئيل في الحضور ضحَّى شاول الملك لله القرابين واستحسن فعلهُ وظنهُ عملًا حسنًا ناشئًا عن تقوى وخلوص عبادة · اما الله فحسب هذا العمل نفسهُ خطيئة ورذلهُ من اجلها · كذلك عُدَّ غفران اخاب لبنهداد ملك سوريا بعد انتصارهِ عليهِ فعلًا صالحًا حميدًا جدًّا وكبُر مقتًا عند الرب فعلهُ هذا وتغيظ الله منهُ شديدًا · فارسل الى الملك اخاب نبيًّا يبشرهُ بالموت عقابًا بذنبهِ · وينذرهُ بان ما حُقَّ على اهل سوريا وملكهم من الاذى يلحق بهِ وبشعبهِ · فان ظهرت في هذه الحياة احكام الله مختلفةً عن احكام البشر ومباينةً لها · فماذا يكون في تلك الساعة المرهبة التي قد اعدَّها الله لابراز كل صرامة عدلهِ هي ساعة تظهر فيها جسامة شرّ الخطيئة ومناقضتها للعقل النطقي وتتضح بليغ شناعتها التي تورثها للنفس

عظمة الاسية الى الله رب البرية . ويتجلي عدم الوفاء والكفران بجميل دم سيدنا يسوع المسيح اللذان سبَّبتهما هذه الاسية وجزيل الضرر الذي وصل منها الى الخاطي نفسهُ . وماهية جهنم الذي يسقط فيها لاجلها . والمجد الابدي الذي يخسرهُ بسببها ويجد الخاطي في كل مما ذكر داعيةً للحزن والغم والقنوط مما من شانهِ ان يجري من عينيهِ الدموع مدرارًا وبدون انقطاع . فماذا يأتي لهُ من كلها معًا . فان كان النظر الى شيطان واحد يخيف اخافة شديدة . حتى ان كثيرين من النساك فضلوا ان يكابدوا جميع عذابات هذه الحياة على ان يبصروهُ خزاهُ الله دقيقة واحدة . ولم تصدر شناعتهُ المستهجة الَّا عن خطيئة واحدة فقط . فكيف تكون حينئذٍ حال الخاطي اذ نظر ليس الشيطان فقط وسماجته بل ذاتهُ الشنعة نظير الشيطان . بل لربما تكون اكثر بشاعة من بشاعة شياطين كثيرين . فلينتصح اذًا كلٌ منا وليتعظ . فسوف نساق جميعنا الى منبر الديان الرهيب . الذي يكشف لنا كل شيء ويحاسبنا على ادنى ما يكون

وهذا الحساب الاخير الرهيب لا يجري على وجه العموم والاجمال بل بالتدقيق عن كل شيء فردًا فردًا بالتفصيل والتصريح . ويقيم الرب على قهرمانهِ حسابًا عن تصرفهِ بكل فلس من ارزاقهِ . فالشريعة البشرية رسمت الَّا يقبل الحاكم في محكمتهِ دعوى على شيء دني طفيف . اما في المحكمة الالهية فتقبل الدعوى على شيء باهظ ودني على حدٍ سوى . واثباتًا لذلك خبرنا مؤرخون كثيرون عن راهبين سائرين سيرةً مقدسة

وكان يحب احدهما الاخر محبةً خالصةً ويخلص له المودة . فمات احدهما .
واذ كان الاخر خارًا مصليًا لله عليهِ . تراءى له الميت بمنظر حزين كئيب
لابسًا اثوابًا حقيرة رثة . فسأله الراهب الحي عن سبب ذلك . فاجابه الميت
قائلًا ثلث مرات : ليس يصدق احد . ليس يصدق احد . ليس يصدق احد .
فطلب منه الحيّ شرح هذه الكلمات . فأجابه الميت قائلًا : لا يستطيع
احد ان يدرك ما يستعمل الله من الدقة اذا اقام الحساب على كل شيء
وان صغيرًا وما اعظم ما يوقع الله من العذاب بالانسان لاجلهِ . قال هذا
وتوارى عنهُ

ولعمري يمكننا ان نفهم ما ارهب ما يكون الحساب في ساعة الموت
مما حدث لكثيرين من عبيد الله قبل خروجهم من هذه الحياة . خبرنا
القديس يوحنا كليمكوس عن راهب يقال له استفانوس قال : ان هذا
بعد المواظبة على الرياضات الرهبانية اعوامًا كثيرة . نال من الله موهبة
الدموع ومواهب اخر جزيلة جليلة . فتاق الى كمال الوحدة والانفراد
فابتنى له قلايةً في منحدر جبل حوريب حيث رأى ايليا النبي تلك
الرؤيا العظيمة . ثم بعد ذلك رغب ان يصرف ايامهُ في سيرة اكثر تقشفًا .
فذهب الى مكان يدعى سيدن وهو منفرد للمتوحدين ويبعد عن المدن
واهل العالم زهاء سبعين ميلًا . فمكث هناك زمنًا مديدًا بعيشة ضيقة
وتعب عظيم . ثم انكف عنهُ الى ديرهِ الاول المقدس وكان له تلميذان
راهبان من بلاد فلسطين . فمكث معهما زمانًا يسيرًا . ثم اعتراهُ مرض

عضال واذ كان في نزع الحيـاة بُهت بغتةً واخذهُ الاندهاش . وشرع ينظر ذات اليمين والشمال مشيرًا الى ان اناسًا اتوا ليحاسبوهُ وكان يجيبهم مرةً قائلًا : اي نعم اني صنعت هذا لكنني صمت تكفيرًا عنـهُ سنينًا . واخرى : لقـد كذبت لانني لم اقترف هذا ابدًا . ومرة اخرى قال : انني لست انكر هذا الّا انني ندمت عليهِ وكرهتهُ ونحت عليهِ وبكيتـهُ زمنًا مديدًا . وكثيرًا مامارست من افعال المحبة نحو القريب . ثم بعد ذلك قال : اما هذا الذي توردونهُ الان عليَّ فليس لي ما اجيب بهِ عنهُ غير اني اتـكل على الرحمة الالهيـة وهي حسبي . لعمري انهُ كان منظرًا مخيفًا يرثى لهُ . ثم يعقب القديس كليمكس قولهُ بقولهِ . ويلٌ لي ويلٌ ماذا تكون حالي والى مَ مصيري ومثل هذا الناسك المتوحّد يقول انهُ ليس لهُ ما يجيب بهِ اعتذارًا عن نفسهِ . مع انهُ قد امضى في الرهبانية اربعين سنة . واعطى من الله موهبـة الدموع . وقد شهد لي بعض ان هذا الناسك كان في البرية يطعم بيدهِ نمرًا بريًّا شرسًا . فمع جميع هذه العلامات الدالة على برهِ وقداسة سيرتهِ جرى الحساب عليهِ في وقت موتهِ بصرامة وتدقيق عظيمين . حتى ارتاب في ما تكون حالهُ ومنقلبهُ . وقد جاء ايضًا في تواريخ رهبنـة القديس فرنسيس عن راهب مبتدئ . انهُ لمـا مرض وقارب الموت . صرخ صراخًا مريعًا قائلًا : ليتني لم اخلق اصلًا . ثم قال : اعدلوا باوزانكم . ثم قال : اضيفوا من استحقاقات الام سيدنا يسوع المسيح . ثم بعد ذلك ببرهـة قال : احسنتم الان . اما

الرهبان الحاضرون لديهِ . فاذ سمعوا ما كان ينطق بهِ هذا الشاب الفاضل بصوت مرهب مرعب . امتلاوا دهشةً ورهبةً . فلما استفاق سألوهُ عمَّا قالهُ وعن سبب صراخهِ الرهيب . فاجابهم قائلًا : انني في هذه الرؤيا رايتني في مكان الدينونة الاخيرة . ورأيت الحساب عن ادنى شيء وعن كل كلمة بطالة دقيقاً صارماً بنوع ان استحقاق الانسان بالنسبة الى الخطايا هو كلا شيء . ولهذا صرخت ذلك الصراخ الاول المرعب . وبعد ذلك رأيت ان شرور الانسان توزن بحرص عظيم . واما افعالهُ الصالحة فتعتبر قليلاً . ولذلك قلت الكلام الثاني . واذ ظهر لي ما فعلتهُ من الخير كانهُ امرٌ لا يعتدُّ بهِ . قلت الكلام الثالث تبرئةً لنفسي . فأضيف استحقاق الام سيدي الى اعمالي الصالحة فرجحت لي كفَّة الميزان ومالت . فحكم لي حالًا بالنجاة والخلاص ولهذا قلت حسن . قال هذا وتوفي فائضًا بروحهِ راجعةً الى خالقها

وللخطاة منظرٌ اخر مرعب جدًّا يشهدونهُ اذا انقضت حياتهم فانهم يقفون على عظمة المواهب الالهية وعدم وفائهم بها بل كفرانهم بالجميل . وقد اشار الى ذلك دانيال النبي بقولهِ : انهُ يخرج من أمام الديان نهر ملتهب (دانيال ٧ : ١٠) . فبلفظة نهر يشير الى كثرة الحسنات الالهية التي يفيضها الله ذاتهُ فانهُ يشركنا بخيراتهِ . وبقولهِ ان هذا النهر العظيم يكون في ذلك اليوم من نار يدل على شدة الصرامة التي بها يطلب الله ان نوفيهُ هباتهِ وهو حقٌّ علينا ويدلُّ ايضًا على اننا نعرف جليًّا مبلغ هذا

الدين وعلى ما سوف يخامرنا من الاندهاش والخجل اذ نذكر ازدراءنا بهذه الحسنات ومكافأتنا الجود الالهي بالخيانة . ولعمري ان الخطأة يعتريهم من افراط الخزي والخوف اللذين يستحوذان عليهم عند نظرهم سموّ جلال الخيرات التي منّ الله عليهم بها . وانه تعالى فعل لاجلهم ما كان بوسعهِ ان يفعلهُ . وهم لم ينتفعوا اصلًا

فتأمل الان هذه العطايا الالهية مفصلًا . فالعطية الاولى انهُ خلقنا من تراب ومنحنا الوجود. وقد اشار الى ذلك سيدنا يسوع المسيح اذ ضرب مثلًا عن رب البيت الذي غرس كرمًا . فما الذي كان يمكن ان يصنع الله في ذلك اكثر من الذي صنع . لانهُ جلَّ سخاؤهُ منحك بذلك الاحسان كل ما انت عليهِ من حيث الجسد والنفس . فلو كنت تحتاج الى يدٍ واحدةٍ لكنت تشكر فضل من يعطيكها . فكيف لا تشكر فضل الله الذي خولك يدين ورجلين وقلبًا ونفسًا وكل ما لك . فماذا كنت قبل ان يبدعك . لم تكن شيئًا . والان انت على كيانٍ ليس شيء افضل منهُ في العالم العنصري . قالت الفلاسفة ان بين الوجود وعدمهِ بعدًا بعيدًا لا يتناهى . فانت اذًا ممنونٌ لله على نوعٍ غير متناهٍ لا بما خولك من الكيان الشريف فقط . بل لانهُ منحكهُ بمحبةٍ غير متناهية . واختارك بهِ وفضلك على خلق لا يحصى عددهم كان قادرًا ان يبرأهم ولم يبرأ واصطفاك من بينهم ولم يدعهُ اليهِ استحقاق منك . ولم يكتفِ تعالى بذلك اي انهُ خلقك ومنحك هذا الكيان الشريف . بل انهُ خلقك لسعادة فائقة الطبيعة . وجعل لك غايةً

اجلَّ غايةٍ وهي الحظوة بخالقك الى الابد . ومن المحال ان توجد خليقة تسموك قدرًا وشرفًا من حيث هذه الغاية السامية . فما الذي كان يقدر الله ان يفعلهُ لاجلك افضل من ذلك . حقًّا انهُ لاجل هذه العطيـة فقط كان يجب عليك الَّا تحرك يدك ولا تميل طرفك الَّا ابتغـاء وجه الله . فالذي يغرس شجرة يحق لهُ ان يتلذَّذ باثمارها . فالله خلقـك وبرأك فلهُ حقٌّ في كل افعالك لانها بمثابة ثمار الانسان

الَّا ان موهبة الوجود ولئن كانت عظيمةً جدًّا فليست باعظم من الموهبة الثانية التي هي حفظ الوجود موهبة . بها حفظ الله حياتك حتى الان وصبر عليك بطول اناةٍ ولم يُلقِك في جهنم كما استحققتهُ مرارًا وتستحقهُ بخطاياك . انظر كم من الناس لم يحفظهم الله في هذه الحياة . ولم يحتملهم بعد ارتكابهم الخطيئة مرة واحدة لكنهُ طرحهم في دركات الجحيم . ولو نال بعضهم ما نلت من الصفح والمغفرة لاحسنوا الوفا واسدوا لله شكرًا جزيلًا واجزل منك . فانظر كم من الملئكة قد طردهم الله حالًا من السماء ولم يقترفوا الَّا خطيئة واحدة . ومن ثمَّ فانت ممنونٌ لله بحفظـه اياك اكثر مما انت ممنونٌ لهُ بتكوينك . لانهُ وان كنت عدوًّا لهُ تعالى فقد حفظ حياتك واحتملـك . نعم لم تستحق ان يخلقك . الَّا انك لم تكن فعلت شيئًا حملهُ تعالى على ان يمسك عنك هذا الاحسـان . اما الان فقد استحققت مرات كثيرة ان يعدمك هذا الوجود . ويسلب منـك هذا الاحسان

ان الاحسان الثالث هو احسان التجسد الالهي ويسمو على الاحسانين المتقدم ذكرهما سمواً لا يحدّ . ويشير الى ذلك السيد المسيح بقولهِ : ان رب الكرم ارسل اليهم ابنهُ (متى ٢١ : ٣٧) . فهل كان ممكناً ان يفعل الله لاجل خلاصك اكثر من انهُ يرسل الى العالم ابنهُ الوحيد ليصير انساناً . لعمري ان قدرة يد الله الضابطة الكل تعجز عن ان تصنع لاجلك افضل من هذا . فاعتبر انهُ تعالى لم يفعل لاجل الملئكة ما فعل لاجلك . فكيف تدع ان يحبهُ الساروفيم اكثر مما تحبهُ انت . تامل ايضاً انهُ تعالى كان يقدر ان يفديك بصيرورتهِ ملاكاً وبمجرد صلاتهِ عليك . الّا انهُ احب ان يصير من اجلك انساناً لئلا يفوتَ طبيعتك هذا الشرف الوسيم . وقد ذهب قوم من العلماء اللاهوتيين الى ان سبب سقوط الملئكة هو لانهم ابوا ان يخضعوا لمن كان دونهم من حيث الطبيعة . فانهُ اذ فتح الله لهم علم الغيب واوعز اليهم ان سوف يلتزمون بالسجود لانسان يكون الهاً معاً ويتقلد سلطاناً مطلقاً على جميع مراتبهم فتكبروا وتمردوا . فان كان هذا الرأي مصيباً فتامل كم تكون ممنوناً لله بهذا الاحسان العظيم اذ احب ان يصير انساناً لاجلك لئلا تهلك . مع ان احسانهُ هذا كان مزمعاً ان يصير سبباً لهلاك جميع اولئك الملئكة وهم افضل منك طبعاً

واعلم انهُ بهذا الاحسان قد انقذك من الخطيئة وانتشلك من الجحيم حينما كنت آيساً من خلاصك وما من معين او نصير . تامل انهُ

تعالى بلغ بك غاية من فضلهِ ونعمتهِ واقامك وريثًا لملكهِ . تامل انهُ انجز
احسانهُ هذا الوسيم اليك بمحبــةٍ لاتحدّ وتكلف لا يُقدَّر . لانهُ كما قال
الرسول أخلى ذاتهُ اخذًا صورة عبدٍ لكي يرفعك . فأخذ طبيعتك اختياريًا
وبدون اضطرارٍ . ولم يقصد في ذلك الآن يمنّ عليك باكرام لم يمنحهُ
للملائكة . فانظر هل استطاع الله ان يصنع لاجلك افضل مما صنع . وهل
كنت تقدر انت ان تسيء اليهِ اكثر مما اسأت

وتناسب هذه الموهبة او تضاهيها الموهبة الرابعة وهي موهبــة
الفداء الذي افتدانا بهِ السيد المسيح بالامهِ وموتهِ . وقد اخبرنا عن ذلك
قبل موتهِ قائلًا : ان الابن المرسل من رب الكرم قتلهُ الكرامون . فهل
تيسر لابن الله ان يفعــل لاجلك اكثر من ان يموت ويريق دمهُ الزكيّ
فداءً عنك وحبًا بخلاصك ولم يكن هذا لازمًا وضروريًا لخلاصك . نعم
انهُ كان من الوجوب ان يصير الله انسانًا او ملاكًا لكي يفتديك بكل ما
تقتضيهِ صرامة العدل . الّا انهُ لم يكن ضروريًا ان يتالم ويموت . والحال
انهُ اذ اثر التالم . لم يرتضِ بهِ صغيرًا . بل اراد ان يتالم بافراط الألم حتى
اتضح جليًا انهُ ما من اوجاعٍ على الارض اعظم من اوجاعــهِ . فتشخص
نصب عينيك سيدنا يسوع المسيح مصلوبًا على جبــل الجلجلة . هل يمكن
ان يصيب احدًا ما اصابهُ من الهوان . فانهُ تعالى صُلب بين لصين بعد
ان حكم عليــهِ بظلمٍ كلي انهُ رجلٌ مفتنٌ عاصٍ على قيصر . مبتدع
تعليمًا مخالفًا . والحــال ان هذين الاثمين اللذين قرفوا بهمــا السيد

المسيح فرية واعتداء من شانهما ان يشينا عرض المثلوب بهما اكثر مما تشينه بقية الاثام . لانهما يلحقان الهوان والاحتقار . ليس بالمثلوب بهما فقط بل بنسلهِ ايضاً جيلاً فجيلاً . ثم تامل ما ارقَّ حاله فقراً عند موتهِ . فانهُ لما كان متردداً في الناس لم يكن له ما يسند اليهِ رأسهُ . بل كان متردياً باثواب لسترة جسدهِ . اما في حين الامهِ وموتهِ فتُرك عرياناً ولم ينل نقطة ماء لاطفاء غليل عطشهِ . تامل ما اشدَّ اوجاع موتهِ الاتراه مثخناً بالجراح مخضباً بدمهِ حتى لاتجد من هامتهِ الى قدميهِ عضواً من اعضائهِ لا يتالم شديد الالم . لاحظ يديهِ ورجليهِ انها مثقوبة بمسامير حادَّة ورأسهُ مكللٌ بالشوك . ترَ فتجد انهُ تعالى مصاب بما عظم من الآلام ومتململ على صليب اوجاع قادحة و بعث بهِ اليهِ فرط محبتهِ اياك . واحبَّ ان يقاسي من اجلك ما استطاع . فتامل الان ما الذي يجب عليك ان تفعله انت وتحتمله حباً بابن الله الذي قبل مثل هذه الآلام فداء عنك . ولاجلك صنع كل ما كان قادراً عليهِ وهو القدير على كل ما يشاء

وضف الى هذه الاحسانات جميعها الموهبة الخامسة وهي الاحسان الالهي الفائق الذي بهِ منحك الله تعالى ذاتهُ مأكلاً ومشرباً في سرّ القربان المقدَّس . ولعمري يتراءى لي ان الاقانيم الالهية الثلثة قد اعتصبت يداً واحدةً غيرةً على حب الانسان . فالاب الازلي بتسليمهِ ابنهُ الوحيد للموت حباً بالبشر قد اقترح فعلاً لايبارى فضلاً وعظمةً . وابن الله اقترح ما يفوق ذلك ورسم السرّ الاقدس الذي بهِ بلغت

محبتهُ الى اقصى مبلغ . وانتهت على نوع ما احساناتهُ الالهية الى غاية كمالها. اذ انهُ تعالى بهذا الاحسان يهبنا ذاتهُ ويدخل الى قلبنا لكي يكتسب محبتنا . فالذي لايحبهُ تعالى لاجل هذا الاحسان فما اعظم ما تكون دينونتهُ . فلذلك قد قال حسناً الرسول الالهي : ان من يأكل جسد الرب ويشرب دمهُ وهو على خلاف الاستحقاق . انما يأكل ويشرب دينونةً لنفسهِ (١ كو ١١ : ٢٩) . اي انهُ يبتلع كأس رجز غضب الديان المرهوب

فبم يجيب الخاطي حين يحاسب عن جميع هذه الحسنات . ولعمري ان القاتل مثلاً اذا حضر موت انسان شرير حكم عليهِ بالموت اذا هو يداخلهُ الخوف ويرتجف فرقاً من ان يقبض عليهِ ايضاً ويحكم عليهِ بمثلهِ . فكيف لا يخاف من هو سبب موت الله . وبماذا يعتذر حينما يشتكي منهُ عليهِ بهذا الاثم الجسيم . لان السيد المسيح كما قال الذهبي فمهُ يخاطبهُ قائلاً : انني برأتك ولم تكن في حيز الوجود وسلطتك على ما في الارض طرّاً مما خُلق . ومن اجلك ابدعت السماء والجوّ والبحر والارض وجميع ما في العالم . واما انت فقصدتني بالاهانة وسوء المعاملة ونزلتني منزلة احقر الاشياء وعددتني دون الشيطان نفسهِ . ومع هذا فقد ضاعفت احساناتي الاولى اليك واضفت اليها احسانات اخرى جديدة . ومن اجلك اخترت انا الاله والرب والسيد ان اصير عبداً واسيراً . وقد لُطمت وبُصق على وجهي كاسير مجرم . وقد ارتضيت

بالموت موت الصليب لكي انقذك من الموت . ثم من بعد هذا جميعهِ فقد قمت لك شفيعاً في السماء فمنحتك الروح القدس . ودعوتك الى الملك السماوي . واحببت ان اكون لك رأساً وعروساً وثوباً ومسكناً ومأكلاً ومشرباً وراعياً واخاً واصطفيتك الى ميراث المجد الابدي . وانتشلتك من ظلام الموت الى نور حياة الابد . فاذا سرد لنا السيد المسيح مورداً ما حماته محبتهُ المفرطة على عملهِ . فباي جواب نجيبهُ وكيف تكون لنا معذرة . حقاً انهُ ليشملنا حينئذٍ الخزي المميت من عدم وفائنا . ومن كوننا قد جعلنا للشيطان سبيلاً لان يستهزئ بخلاصنا قائلاً نحوهِ تعالى مزدرياً . انت قد خلقت هذا الانسان ولاجلهِ صرت بشراً وقضيت حياتك على الارض في مشاق الاتعاب . ولاجلهِ مت من شدة الآلام والاوجاع . اما انا فبخلاف ذلك لم افعل لاجلهِ شيئاً اصلاً . بل لم ازل راغباً لهُ كل يوم الف جهنم . ومن شدة بغضي لهُ كنت اودُّ لو فنيتهُ . ومع هذا كلهِ فقد افرغ جهدهُ كلهُ في ان يرضيني ولم يفتكر في رضاك اصلاً . انت هيأت لهُ المجد الابدي اجراً وثواباً . وانا عقدت قلبي على ان اسومهُ شرَّ عذاب في لجة جهنم . وخدمني بامانة مجاناً . انت اعددت لهُ اجراً عظيماً . وهو قد كافأك بالخيانة . فلو كنت انا خلقتهُ وبذلت نفسي دونهُ لكنت عددت ذلك احتقاراً لي منهُ . فالان اذ قد فضلني عليك واحب ان يكون لي من ان يكون لك . فحقَّ لي ان استرقَّهُ لانهُ عاهدني في نفسهِ مرات كثيرة وعلى اوجهٍ مختلفة

ان الحساب الاخير لا يقام علينا عن المواهب العامة فقط بل عن الخاصة ايضاً . ومنها الامثلة الصالحة التي كانت تدعونا الى الصلاح . والمذاكرات الحميدة التي سمعناها . والالهامات الالهية التي اوحيت الينا وشعرنا بها فلنرتعدنَّ اذاً عند ذكرنا هذا الحساب الصارم الدقيق الذي من اجلهِ كان الانبا تاليلاوس يرتعب ويبكي بكاءً مرًّا واذ سئل عن سبب ذلك قال : اننا قد اعطينا هذا الزمن فان اهملناهُ واغفلنا عنه فيكون الحساب عنهُ عظيمًا ويطلب منا كثيرٌ

الفصل الخامس

في ان الله يحكم بصرامة شديدة في هذه الحياة ايضاً

انهُ لكي نفهم جيدًا صرامة حكم السيد المسيح على الخاطي حين انقضاء هذه الحياة نورد شيئًا قليلًا من صرامة حكمه تعالى عليهِ في هذه الحياة نفسها حيث يعاملهُ برحمة . ونستدل من ثم على كيفية حكمهِ تعالى عليهِ حين يعمل بالعدل فقط . فقد خاطب الله شعبهُ بفم حزقيال نبيهِ قائلًا : اني عن قريب اسكب عليك غضبي . واتم فيك رجزي . واحكم عليك بحسب طرقك . واضع عليك جميع آثامك (حز ٧:٨) . ولعمري انهُ ليس بعجب ان يصيب الخطاة الذين تباعدوا عن الله وتركوهُ مثل هذا المصاب . اذ انهُ تعالى يعامل بهذه الصرامة نفسها الذين يغارون لمجدهِ . فلننظرنَّ كيف يصور لنا زكريا النبي هذه الديونة

الالهية في شخص يشوع بن يوصاداق الحبر الاعظم . الذي كان عائشاً في ذلك العصر . فالنبي راى الحبر الاعظم ماثلاً بازاء ملاك الرب والشيطان قائماً من عن يمينهِ يقاومهُ . وقد ظهر الحبر المذكور في هذه الديتونة كجمر جهنمي ملتهب مسودّ الاثواب من الدخان . لان الكتاب المقدس يدعوهُ قبساً منشولاً من النار باثواب مدنسة (زكريا ٣ : ١) . فان كان مثل هذا الحبر الغيور على مجد الله بغيرة مضطرمة خجل امام ملاك الرب وبان على هذه الحال . فترى كيف يظهر الانسان الخاطئ امام الاله الذي احتقر ناموسهُ اذا احسّ بأسهُ وانتقامهُ

وهذا المعنى قد اوضحهُ السيد المسيح في سفر الرؤيا حيث حكم على اساقفة اسيا السبعة وهم احياء . وقد كان منهم قديسون معتبرون معظمون كالقديس تيموتاوس تلميذ الرسول بولس . والقديس بوليكربوس . والقديس كوادراتوس . والقديس كاربوس . والقديس ساغاريوس . فلننظر اولاً كيف كان سيدنا يسوع المسيح جالساً حينما دانهم وباية صرامة حكم عليهم . قال الكتاب المقدس اولاً انهُ تعالى كان جالساً بين منارات متقدة ينبثق منها نور عظيم . وكان في يده سبعة كواكب نيرة جداً . ووجههُ يلمع كالشمس في رابعة النهار . وكان ينجلي بنورهِ عن كل امر ظلام الجهل ويشقّ حجاب الستر . وعيناهُ كانتا متقدتين كاللهيب (رؤ ١ : ١٤) . فهذه جميعها تشير الى دقة الحساب الالهي وجلاء ظهور جميع الخطايا . وانهُ تعالى لا يمكن ان يخفى عليهِ شيء .

ثم انهُ يقول ثانياً وكان في فمهِ سيف ذو حدين (رؤ ١ : ١٦) . وبهذا يشير الى ان فعله يكون اكثر صرامة من قولهِ . ثم يقول اخيراً انهُ عزَّ وجلَّ قد كان في كل اوجه هذه الرؤيا مرهباً مريعاً . حتى ان القديس يوحنا صاحب الجليان وان لم يكن من جمهور المدانين ارتعب فرقاً وسقط على الارض مغشياً عليهِ (رؤيا ١ : ١٧) . فان كان التلميذ الحبيب الذي لم يكن الله ليسخط عليهِ خرَّ صعقاً اذ علم التهديدات الالهية على اناس آخرين كان يريد سبحانهُ ان يعاملهم برحمةٍ . فماذا يكون بعد هذه الحياة اذا ظهر ابن الله وتجلَّى للخاطي بكل رجز غضبهِ وليس ثم رجاء رحمة . فحقاً انهُ لو امكن الانفس ان تموت لماتت الف مرة عند مشاهدتها هذه الرؤيا المهيلة المرعبة

فلننظرنَّ ثانياً ما رأتهُ عينا السيد المسيح الناريتان لما فحص عن اعمال الاساقفة المتقدم ذكرهم . الذين وان كان قد دعاهم تعالى ملئكة . فمع ذلك وجد عليهم سبيلاً ورأى فيهم ما يوجب التوبيخ . وذلك ليتم قول ايوب الصديق ان الله وجد شرًّا في ملئكتهِ (ايوب ٤ : ١٨) . فمن ذا الذي كان يمكن ان يخطر لهُ ببال ان السيد المسيح ينتهر القديس تيموتاوس المحبوب والممدوح من القديس بولس الرسول . وانهُ جلَّ اسمهُ يتوعدهُ بالطرد من الكرسي الافسسي ان لم يتب ويصلح سيرتهُ بالارتداد الى نشاطهِ الاول . وانهُ تعالى يجد في القديس كاربوس اسقف برغاموس وكذلك في اسقف تياتيرا ما يستلزم الندم والتوبة . وان اسقف نيرديس

المعروف بالقداسة بجده تقدس اسمهُ في حال خطيئة مميتة. وان اسقف اللاذقية الذي لم يبكته ضميرهُ على شيء يدعوه رب المجد شقياً وفقيراً فاقداً كل فضيلة واعمى وعرياناً. فما اصدق ما قالهُ الحكيم ان الانسان لا يعرف هل يستحق المحبة او البغضاء (جامعة ٩: ١). ولهذا كان الملك والنبي داود يطلب من الله ان ينقيهُ ويطهرهُ من الخطايا المجهولة منهُ قائلاً: من خفاياي نقِّني مز ١٨: ١٣

فيا ايها الرب القدوس والديان المرهوب. كيف لا تخافك الناس لاجل خطاياهم المعروفة منهم. مع انهُ كان ينبغي ان يخافوا جداً من اجل خطاياهم الخفية عنهم. فالله اذا يداقّ بالحساب مداقة هذا حدها. حتى انهُ من سبعة اساقفة مشتهرين بالقداسة وجد ستة غير منزهين عما يوجب اللوم والتوبيخ. اذ وجد في احدهم التواني. وفي الاخر عدم الثبات في الخير. وفي الثالث الجبانة. وفي الرابع الكسل. وفي الخامس الخوف والفزع الباطل. وفي السادس الجهل وعدم الافراز. وكان اثنان منهم في حال الخطيئة. فان وجدت عين الله زلات في مثل هؤلاء الملئكة. فما الذي تجدهُ فينا نحن الخطأة

وقد جنى هؤلاء الاساقفة جزيل نفع من علمهم بدينونتهم من الله. واقد ثبت ان الذين عرفنا اسماءهم. قد توفوا قديسين وحُرّرت اسماؤهم في سنكسار الكنيسة. كذلك يفيدنا جداً علمنا باننا سندان بهذه الصرامة وتصدنا معرفتنا هذه عن ان نأسي الى المحسن الينا بحسنات لا حدَّ لعددها

ولا تقدير لعظمتها . وعن ان نباشر خدمتهُ تعالى بتوانٍ وكسل . وتحرضنا على ان نمارس افعالاً صالحة مملوءة كمالاً . فلا يسمع احدنا ما قيل لاحد هؤلاء الاساقفة ليتك باردٌ او حارٌّ . لكن لانك فاتر لا بارد ولا حار فسابتدئ ان اتقاءك من فمي (رؤيا ٣ : ١٦) . فلنحذرنَّ من ان نجعل للسيد المسيح سبيلاً لان يتقاءنا . اي ان يبغضنا ويرذلنا . ولننظر هل محبتنا خالصة . لانها لا تخلص ان كنا نحب هذا ولا نحب ذاك . اذا اشتهينا خيراً للمحسن الينا وبغضنا من اساء الينا . ان كنا نصنع الخير ولا نريد ان نحتمل الشرّ . فانظر هل تحتمل القريب كنفسك . الا تؤثر مرغوبك على رأي الغير ومرغوبهِ . اعتبر هل محبتك لله تحملك على تجشم صعاب الامور برضىً . ألست ربما تحبهُ تعالى بالكلام لا بالافعال . تامل هل اتضاعك كامل . وذلك ليس بالهرب من الكرامات الزمنية فقط . بل بابتغاء الاهانات والسعي بطلبها ايضاً . لا بالّا تستأثر لنفسك الاعتبار دون غيرك . بل ان تحل نفسك محلاً دون غيرك ايضاً . انظر هل صبرك جميلٌ . اعني هل تحتمل ما يطرأ عليك من جهةٍ او من اخرى على حدٍّ سوى . هل تحتمل ذلك كمن لا يسأم من صعوبة . افتكر هل طاعتك حسنة . فلربما تطيع في الاشياء الخفيفة السهلة لا في ما تجدهُ ثقيلاً وعسراً . او تطيع من هو نظيرك لا من هو دونك وتلاحظ فيهِ كونهُ انساناً لا كونهُ نائب الله . ومن ثمَّ تخضع قهراً لا بطيبة القلب . فاعتبرنَّ قولهُ تعالى لاسقف ساردیس : فاذكر كيف نلت وسمعت واحفظ وتب (رؤيا ٣ : ٣) . فلا

يقول لك الرب اذكر ما نلت وقبلتهُ بل كيف نلته . لاننا لسنا ممنونين لله بجوهر الحسنات الالهية فقط . بل بنوع منحها ايضًا واعراضها . فاذ قد تكلف الله لاجل خيرك فعلًا ناشئًا عن قدرتهِ الضابطة الكل . فابذل انت ايضًا لقاء ذلك كل ما بك من الجدّ في تمجيدهِ تعالى وخدمتهُ

الفصل السادس
في انقضاء كل زمن

اذا انقضى زمن حياتنا فسوف ينتهي كل زمن ايضًا ومعه كل شيء سوف ينتهي . فما اعظم بطلان الاشياء التي يريد الناس ان يبقوا فيها من بعدهم ذكرًا مخلدًا . ويشيدون المنازل الملوكية وما شاكل ذلك . والحال انهُ ستهدم المدن وتدكُّ منازل الملوك . وينتهي كل شي . لان كل زمني ينتهي . فما اكثر ما كان يرغب المجد العالمي شيشرون القنصل الروماني والخطيب الفصيح ومعلم الخطباء وامامهم . فهذا كتب رسالة مطنبة الى احد اصحابهِ يذكر فيها واقعةً كان اثارها حبًّا بتشريف اسمهِ وابقاء ذكرهِ مخبرًا عمَّا فعل الَّا انهُ اذ تامل ذلك ان الزمن سوف ينتهي مع العالم علم حينئذٍ وتحقق انهُ لامجد ولا ذكر يدوم في العالم . ولذلك قال انهُ لاجل حريق الارض الذي لا بد ان يكون في وقت معيَّن . لا يمكننا ان نكتسب مجدًا لا ابديًا ولا مديدًا

قال التلميذ الحبيب في جليانهِ انهُ ابصر ملكًا شديد البأس منحدرًا

من السماء . ملتحفًا بسحابة ومكللًا بقوس قزح . ووجههُ منيرٌ كالشمس . ورجلاهُ كعمودي نار . فالقى احداهما على البحر والاخرى على البر . وصرخ بصوت عظيم مرهب جدًّا كاسدٍ زائر . فارتجفت الارض بسبعة رعود هائلة . وللوقت رفع ذلك الملاك العظيم يدهُ الى السماء (رؤيا ١٠ : ١ـ ٥) . فان قلت وما سبب هذه الامور المرهبة والحوادث المرعبة وما هو مدلولها . اجبتك ان الله اراد ان ينادي هكذا بانتهاء الزمن . ليكون اعتقادنا بذلك وثيقًا فاقسم الملاك العظيم بالحي القيوم الى دهر الداهرين من خلق السماء وما فيها والارض وما فيها . والبحر وما فيهِ . انهُ لن يكون زمن فيما بعد . كفى بقسم ملك سموي اثباتًا راهنًا على انتهاء الزمن

والنبوات التي وردت عن انتهاء الزمن هي مخيفة مرعبة جدًّا . حتى انهُ لو لم ينطق بها الروح القدس لما امكن بشرًا ان يميل الى تصديقها . ومن ثمَّ بعد ان اورد السيد المسيح بعضًا منها لتلاميذهِ . أعقب قولهُ بصورة يمين كما آلف تعالى ان يصنع اذا قصد ان يثبت امرًا باهظًا فقال : الحق اقول لكم ان هذا الجيل لا يزول حتى يكون هذا كلهُ (متى ٢٤ : ٣٤) . فاذ قد تقرَّر اذًا وتحقَّق ان الذكر البشريَّ وان كان على جانبٍ من الشهرة فسوف يمحى لا محالة مع زوال البشر . فلنبذلنَّ جهدنا في ان نكسب لنا ذكرًا ابديًّا ذكرًا لا يعتورهُ زوال . قال النبي ان ذكر الصديق يدوم الى الابد (مز ١١١ : ٧) . اي ان الله الازلي الابدي يذكرهُ الى الابد . اما ذكر الناس لنا فيزول بزوالهم

الفصل السابع
في كيف تتغير العناصر والسماء
عند انتهاء الزمن

فهات الان نعتبر كيف ينتهي العالم كلهُ . ويستدل من نوع زوالهِ المرعب ان الناس قد تصرفت بالاشياء العالمية تصرفًا رديًا . لانهُ لولا كثرة شرور العالم لما كان انتهاؤهُ هكذا شقيًا . قال القديس اكليمنضوس الحبر الروماني ناقلًا ما كان تعلمهُ من القديس بطرس الرسول . ان الله عيَّن من الازل يومًا يسلِط العذابات على اهل الاثام . ويقال لهذا اليوم في الكتاب المقدس يوم الرب . فان كان رعب ذلك اليوم على قدر كثرة الخطايا وعظمها . فلا انذهل مما تقولهُ الكتب المقدسة والاباء القديسون عن افراط هولهِ . وما يجري في الحروب يحدث في ذلك اليوم الرهيب . فقبل ان يلتقي الجيشان ويحما القتال ويتصادما ضربًا وطعنًا يبرز من المعسكرين بعض الجنود وتثار وقائع جزئية قبل اثارة الحرب . كذلك في ذلك اليوم الرهيب الذي فيهِ يلتقي جيش العذابات وجيش الاثام . فينزل الله اولًا بلايا متنوعة شيئًا فشيئًا كانهما جماعة من العسكر يتقدمون المعركة بحرب صغيرة

وهذا ما اشار اليهِ الرسول يوحنا في جليانهِ حيث يقول : انهُ رأى بعضًا من الجنود يبرزون الى الميدان على خيل بيض وحمر وسود

وخضر (رؤيا ٦ : ٢ ــ ٨) . فيتقدم الله ويرسل تارةً جوعاً . وطوراً طاعوناً . وحيناً حرباً . واواناً طوفاناً . ووقتاً زلازل . وزمناً قحطاً وغير ذلك . فان تضيق الناس جداً من هذه البلايا . فماذا تكون حال الخطاة اذا جرد الله سيف عدلهِ . وقامت كل خليقة عليهم وقاومتهم . وكان قائد هذا الجيش غيرة العدل الالهي . لانهُ كما قال الحكيم تاخذ حينئذٍ غيرة الرب سلاحاً . ويدجج الخليقة بسلاح الانتقام لكي يدرك ثأرهُ من اعدائهِ . والعالم يحارب معهُ الجهال اي الخطاة (حكمة ٥ : ١٨)

ولعمري ليس مبالغة في قول الانجيل المقدس : تزهق الناس من الخوف وانتظار ما يأتي على المسكونة فان قوات السماوات تتزعزع (لو ٢١ : ٢٦) . لانهُ كما ان الانسان المقول عنهُ انهُ عالمٌ صغيرٌ . اذا دنا اجلهُ تنقبض فرائصهُ . وتظلم ابصارهُ التي هي كالنيرات والنجوم . ويتشوَّش العقل الذي هو بمنزلة القوى السماوية . هذا عينهُ بل اعظم منهُ يحدث في العالم الكبير اعني المسكونة كلها . لان الشمس تستحيل الى ظلام والقمر الى دم . والنجوم تتساقط . وكان العالم اذا شعر بدنوّ انقضائهِ وانهدامهِ يضطرب اضطراباً عظيماً قبل ان ينحلَّ . فان كان القمر والشمس وبقية الاجرام السماوية المظنون بها انها غير قابلة الفساد سوف تتغيَّر وتظلم على النحو المذكور . فما الذي يجري بالعناصر المرتبطة بها والتي طبعت على التغيّر والانحلال . فيهيج الهواء من الزوابع والريح الزعازع وتُركم السحب

وتخرج من خلالهــا البروق اللوامع وتنقضّ الصواعق . وتاتي السماء بالرعد السوابق . فترتجف الارض من الزلازل وتنفلق من كل ناحيــةٍ انفلاقاً مذهلاً . وتخرج من جوفها جبال نار ملتهبة فتبتلع المدن وتتقوّض القلاع الشامخة وتندك دكّاً دكّاً . ومن لنا ان يصف شدة اجيج البحر وعجيجهِ فتتراكم حينئذٍ امواجهُ متعالية حتى تغرق الارض كلها او تكاد . والبحر المحيط يزيد ويهيج حتى تــكاد النــاس تموت خوفاً . ولهذا قال سيدنا يسوع المسيح : ويكون على الارض كربٌ للامم حيرة من عجيج البحر وجيشانهِ (لو ٢١ : ٢٥)

فاذاً كيف يكون حينئذٍ حال البشر في هذا كلهِ اعني في اضطراب الارض وتبلبلهــا . فانهم يبهتون بهتة الموت مرتعدين فرقاً من تفرسهم بعضهم بعضاً . وعدا هذا وهذا يبطــل الاخذ والعطا . وتخلو الشوارع والمحاكم من اهليها ولا يكون وقتئذٍ من يرغب الكرامات العالمية واللذات اللحمية والكنوز الارضية . ولا من يسكن في القصور والمنازل الملوكية . ولا من يفتكر في المآكل والمشارب بل يفتكرون جميعهم في ان يجدوا لهم ملجأً ينجون بهِ من الطوفان والزلازل والرعود والصواعق . فلا يجدوا وباطلاً يطلبون حينئذٍ مهرباً وملجاء يأوون اليهِ . لانهُ اين المحيص والمقرّ واين المهرب والمناص . من ذا يفتخر حينئذٍ بشجاعتهِ وعقلهِ . من يتذكر البهاء والجمال وما يضاهي ذلك من الاشياء المعتبرة الان . لانهُ ان نسي كلٌ ما يخصهُ فكيف يذكر ما يخصّ غيرهُ . من يفتكر حينئذٍ في بطاش

اسكندر الملك وعظم اريسطوتاليس . او حكمة اعظم حكماء العالم .
فيفنى وقتئذٍ ذكرهم ويضمحلّ مع العالم الى الابد . تامل حال النوتية
اذا اشرفوا على الغرق . فتراهم يفقدون الصواب لما يطرقهم من
النوائب والهول اذا شاهدوا اختباط الامواج . فيصرخون وينذرون
ويصلّون . ويتجردون حينئذٍ تجردًا كليًا من محبة الخيرات الدنيوية .
فتراهم يهبون الى القاء الوسق في البحر غير مأسوف عليهِ . فكيف اذًا تكون
حال الناس في ذلك اليوم ولاسيما حال الخطاة الذين بسببهم تحدث
هذه الاشياء المرعبة

فان شئت ان تدرك عظم الخوف الذي سوف يستحوذ على الجميع
حينما يقوم العالم نفسهُ منتصرًا لله على الخطاة فاعتبر ما حدث من
الحوادث الطبيعية وما طرأ من الطوارئ . وتعلم من ذلك ما ارهب ما
يكون منظر مجموع البلايا . خبرنا الكردينال يعقوب البادواني . انهُ في
عصرهِ اعني في سنة الف وستمائة وست وخمسين في اليوم الخامس من
شهر كانون الاول تزلزلت مملكة نابولي مدة ثلاث ساعات قبل الصبح .
وانفتح قلب الارض وابتلع قصورًا وقلاعًا عظيمة . فهلك من الناس زهاء
سبعين الفًا . فما علةُ ثابتٌ عند البشر ان كانت الارض التي يطأونها
لا ثبات لها . واين عادوا يجدون شيئًا راسخًا بعد أن تزعزع ما كان في العالم
متمكنًا ثابتًا . فالموت رقيب علينا واقف لنا بالمرصاد . وقد خبرنا افاغريوس
المؤرخ انهُ في ليلة عرس موريسيوس الملك . حدثت في انطاكية زلزلة

عظيمة هدمت اكثر منازل المدينة . و باد تحت ردمها زهاء سبعين الفًا .
ويذكر ايضًا بلينيوس انهُ في زمن طيباريوس قيصر دكّت بزلزلة واحدة
اثنتا عشرة مدينة كبيرة . وقد اخبر نيكيفوروس انهُ في زمن تاودوسيوس
الملك حدثت رجفة عظيمة اتصلت من الاسكندرية الى انطاكية . والى
ممالك اخر شرقًا وغربًا . واستقامت ثلثة اشهر حتى خُيّل للناس ان العالم
سوف يهدم قاعًا صفصفًا . ويجب ان نورد ما كتبهُ القديس ايرونيموس
واميانوس المؤرخ الذي شاهد الامر عيانًا . قال انهُ بعد موت الملك
يوليانوس العاصي حدثت زلزلة عظيمة ارتجفت منها الارض كلها . وتجاوز
البحر حدودهُ حتى ظنَّ الناس ان الطوفان عاد ثانيةً وآن تلاشي العالم .
لان السفن طفت فوق اعلى منازل الاسكندرية . بل تعالت فوق الجبال
ايضًا . ولما سكن البحر ورجع حقينًا بين حدودهِ . استمرَّت تلك السفن
على اسطحة المدينة المذكورة كما يشهد نيكيفوروس المؤرخ اليوناني . خبرنا
ايضًا تريتيموس وغيرهُ من المؤرخين انهُ في سنة الف ومائتين وثمان
عشرة . هاج البحر وتراكمت امواجهُ في اسواق فريسيا . فمات من الناس
اكثر من مائة الف نفر ومرةً اخرى دخل البحر المدينة المذكورة وذلك
في سنة الف ومائتين وسبع وثمانين فغرق ثمانون الف نفس . وقد ذكر
سوريوس المورخ انهُ في سنة الف وخمسمائة وتسع . في اليوم الرابع عشر
من شهر ايلول . ثار البحر بين القسطنطينية وبارا وهاج حتى ارتفع فوق
الاسوار . واهلك اناسًا كثيرين . فماذا يكون اذا امر ربك بالعناصر

ان تثب على الخطاة . وتقوم كل الخليقة على قدم وساق لتنتقم لخالقها من الاثمة اللذين كافأوا حسناته بالخيانة والكفران

والهواء ايضاً ذاك العنصر اللطيف . الذي به نسمة حياتنا اذا اطلق الله له الاعنة يتخذ من الضعف قوة هذا عظم مقدارها . حتى انهُ يقوّض ويهدم كل ما هبَّ عليهِ ويستأصل الاشجار ويرمي بها بعيداً . وقد ذكر سوريوس المؤرخ انهُ في سنة الف وخمسمائة وسبع في اليوم الثامن والعشرين من ايار ثارت في مملكة النمسا ريح عاصفة زعزعت البيوت فانفرجت السطوح بعضها عن بعض . وخبرنا مؤرخ اخر انهُ شاهد بعينيهِ في عصر الملك انريكوس السادس اخشاباً ضخمة جداً متطائرة في الجوّ في مسافة ميل من شدة الريح لاغير . فليس اذاً لنا ان نتعجب مما ذكرهُ يوسيفوس المؤرخ اليهودي واوسابيوس القيصري . من ان برج بابل مُعجزة العالم هدمهُ الله بقوَّة الريح لاغير . وكيف نفصح عن غريب الحوادث التي يحدثها هذا العنصر اللطيف ونحن نعلم ان الهواء انما حمل البرَد الذي قتل انعام مصر . وفي بلاد فلسطين وقع برد ثقيل كبير قتل من الاموريين اناساً لايحصى عددهم . وقد ذكر ايضاً انهُ في سنة الف وخمسمائة واربع وعشرين وقع في بلاد ايطاليا في مدينة كريمونا برد بقدر بيضة الدجاجة . وانهُ في سنة الف وخمسمائة وسبع وثلثين . امطر الله على مدينة بولونيا حجارة يعدل كل منها اربعة ارطال ونصف . وفي بلاد التيين وقع برد يوازن جماجم الانسان . وفي سنة ثلثمائة وتسع وستين

وقع برد على القسطنطينية مثل قطع الصخور. فلم يكن اذاً في ما اورده النبي حزقيال اعياءٌ وافراطٌ اذ قال : انهُ في انتهاء العالم تهبط حجارة ثقيلة جداً (حزقيال ١٣ : ١٣). ويقول صاحب الجليان : انهُ سينزل من السماء على الناس بردٌ ضخم نحو وزنة (رؤيا ١٦ : ٢١). فالريح انما ترمي بحجارة هذا عظم مقدارها. فماذا يكون ضجيج الرعود الناشئة عنها. قيل انهُ في بلاد سيتيا سمعت رعود مفزعة حتى مات من صوت قصفها خلقٌ كثير. فماذا يكون ضجيج العواصف الاخيرة وما اشدَّ الرعب اذا اراد الله ان يلاشي هذا العالم. فجميع ما ذكرناهُ من هذه البلايا السالفة أمرٌ لا يُذكر او ذِكرٌ لا يُؤثّر او اول الحرب بالنسبة الى ما سوف يُلمُّ بالخطاة اذا اطبقت بهم كل خليقة وقاومتهم منتقمةً لله خالقها

خبرنا القديس غريغوريوس الكبير انهُ شاهد في رومة في زمن الطاعون صواعق منقضة من السماء تنزل بالناس وتهلكهم. فماذا يكون حال الناس حينما تمطر السماءُ عليهم قطعاً كالصخور من الكواكب. لقد ارتجف العالم وتحير لما اظلمت الشمس سبعة عشر يوماً على زمن ايريني الملكة وقسطنطين الملك. ولما أُكسفت الشمس وكسف القمر في زمن اسباسيانوس الملك. فماذا يكون اذاً لما تحجب الشمس اشعتها والقمر ينقلب لونهُ الى إحمرار دم. دليلاً على انهُ قد حان الزمن الذي تنهض فيهِ الخليقة لمحاربة الخطاة الذين احتقروا خالقهم. فترى الارض ترتجف بزلازلها وتكاد لا تطيق ان تحملهم. والمياه تحدق بهم وتطيف منازلهم.

والهواء يحول بينهم وبين ارزاقهم . ومن ثم فلا جرم ان تودّ الخطاة لو تنقضّ عليهم الجبال . وتخفيهم الاكام في اجوافها . أيم الله ان ذلك يكلّ عن وصفهِ كل قلم او بنان . ويقد العجز عن ايضاحهِ بكل لسان . وتكاد الخلائق المسخرات لنا باذنهِ تعالى تكتئب وتحزن من ان الخطاة يستخدمونها لاحتقار خالقها . اما في انتهاء الازمنة فتلقي عنها نير الطاعة والخدمة وتنتقم منا لاستخدامنا اياها ظلماً وقصدنا بها احتقار بارئها . فتتغير حينئذٍ وتختبط العناصر وكل خليقة تخلف امر من اخلفوا الله عهودهم

فلنوردنَّ الان هذه البلايا المقدم ذكرها ونثبتها بما رواهُ شاهدٌ مقنعٌ اظهار استتبابها . فنقول ان القديس يوحنا الانجيلي قد ذكر في سفر الرؤيا : انهُ سيكون برد ونار ومطر دموي يحرق ثلث المسكونة مع الشجر والعشب كلهِ (رؤيا ٨ : ٧) . ولا تقف البلية عند هذه الحدود . لانهُ بعد ذلك يظهر حالاً جبل عظيم من نار ويسقط في البحر . فيكون ثلث مياههِ دماً . ويحترق ثلث ما فيهِ من المخلوقات وثلث ما عليهِ من السفن . ثم يسقط من السماء نجمٌ عظيم من نار يلتهب كمصباح متقد . وينجذُ الى شرار كثير . فيسقط في الينابيع والانهر . وفضلاً عن انهُ يجعل المياه مرةً كالعلقم فيصيّرها مميتة مهلكة ايضاً . فيموت كل من يشرب منها . ثم بعد هذا يظهر ملاك فيضرب الشمس والقمر والنجوم فيذهب ثلث نورها . ومع جميع هذه البلايا يفتح فم الهاوية السفلى . فيصعد منها دخان تظلم

منـه الشمس والهواء . ويخرج منه جراد كثير يطبق وجه الارض . لا يضرّ بعشب ولا نبات أخضر بل انما يحارب الخطـاة اعداء الله في مدة خمسة اشهر . لا يبرح بها يعذبهم بلدغ انكأ من لدغ العقارب . ولا عجب فيهِ فان بعض المعلمين المعتبرين زعموا ان الجراد المذكور يكون شياطين بزيّ جراد . وقد ينزل الله على الخطاة في تلك الازمنة الاخيرة ببـلايا اخر كثيرة . لانهُ كما ان الله قبـل ان اهلك المصريين في بحر القلزم وخلَّص شعبهُ ضرب مصر بضربات شديدة مريعة كما ذكر في سفر الخروج . كذلك قبل ان يغرق الخطاة في بحر النـار الجهنمية المنتشرة حينئذٍ على وجه الارض وقبل ان ينقذ منها قديسيـهِ . يتقدم فيضرب الارض بضربات اخوف وأعظم من ضربات مصر بقدر ما العالم يكون شرّ من بني مصر . لانهُ تعالى سيبعث زلزالاً لم يُرَ مثلهُ . فيخسف بهِ جميع الجزائر ويزجها في لجج البحر . وتنهدم الجبال وتندكُّ فتعود سهلاً . وخلا الرعود المهيلة والصواعق القاصفة تتساقط حجارة عظمى رجماً على وجه الارض

فتأمل الان ما اشق ما تكون حال الخطـاة بعد هذه الضربات كلها حين تظهر تلك النـار الآكلة المذكورة في الكتاب المقدس . التي تنحدر من السماء او تدرج من جهنم او تكون من الموضعين معاً كما قال البرتوس الكبير . تلك النـار التي تحرق كل شيء وتحوّل كل ما تمسهُ الى رمادٍ . فماذا تنفع حينئذٍ اولي العالم اوانيهم الذهبية والفضيـة

وأثوابهم الخزية. ومنازلهم المزينة وقصورهم المشيدة. وبقية الاشياء المعتبرة على الارض. ماذا تفيدهم حينئذٍ وهي تحترق تجاه اعينهم. فلا يعود احد وقتئذٍ يذكر في المدارس اريسطوتاليس ولاشيشرون ولا افلاطون ولاسينيكا ولا اسكندر. لان كل صيت يضمحلُّ وكل ذكر يتلاشى ويزول

فان أردت الان ان تعلم ما اشدَّ الخوف الذي سوف يستحوذ على الناس يوم تحرق النار وجه البسيطة. فاعتبر شدة الخوف الذي يعتري الناس اذا نشبت النار في منازلهم. فما اعظم ما كان ضجيج الناس وعجيجهم في رومة العظمى يوم احترقت ستة ايام وست ليال. واي بكاء وعويل كان في مدينة تروايا لما دُفعت وقوداً لنارٍ آكلة. وايُّ صراخ وتولول حدث في صادوم وعامورة والخمس المدن لما امطر الله عليها ناراً وكبريتاً ملتهباً فرمدت. وكيف كان حزن أهل اورشليم اذ شاهدوا النار شابة في الهيكل الذي كان من معجزات العالم وغرائبهِ. وامَّا ما سلف قريباً اعصارنا هذه فما ظنك كيف كان حال أهل مدينة استوكلمو من مملكة سواسيا حينما قصفت على المدينة المذكورة صاعقة أبادت اكثر شعبها الذي كان عددهُ ينيف على ستة عشر الفاً. واذ لاذ غيرهم بركوب السفن والهرب على البحر للنجاة من النار غرقوا فيهِ جميعهم. فليعتبر كلٌّ منا حال شقاء اولئك المساكين اذ كانوا يبصرون النار تحرق منازلهم وجميع اموالهم. ولم يمكنهم ان ينتشلوا منها شيئاً. وكان الرجل يسمع ولولة امرأتهِ وصراخ

بنيهِ وهم يتململون متحرقين في مهادٍ من نار . ولا يجد سبيلاً لانقاذهم .
وهكذا فليعتبر حال اولئك الذين فرُّوا من النار واعتصموا بمياه البحر
بغاية الرعبة والخوف . ما كانت ضغطتهم وعويلهم بعد مدَّةٍ اذا البحر فتح
لججهُ وغرّق السفن التي ركبوها. فقس على هذا شدة حريق العالم العام .
لان الذين ينجون من طوفان البحر وهول الرعود وقصف الصواعق
وشدة الرياح العواصف وهدم الزلازل . يدركهم الطوفان الناري الذي
يحرق كل شيء . وبهِ تنتهي حياة البشر وذكرهم

ولعمري انهُ من هذا الحريق الذي يعمّ المسكونة قاطبةً نستدل
على ان كل ما هو الان معتبر في هذا العالم دني حقير وان الخطيئة
متفاقمة الجرم . لان الله جلت قداستهُ يرسل هذه النار لتزكية الارض التي
قد تدنست بخطايانا كما طهرها سابقاً بالماء . ولا يخلص من هذه النار
سوى الصديقين الذين يكونون حينئذٍ في الوجود . وذلك لكي يتضح
ان هذه النار هي ناشئة عن الخطيئة لا غير . وانهُ لا نجاة منها الّا بالفضيلة
والقداسة . وقد انتبه البرتوس الكبير الى صلاحية العناصر ومناسبتها فقال
انهُ تعالى استخدم في المرة الاولى المياه إخماداً لنار الشهوة اللحمية المستولية
على العالم . وفي المرة الثانية يستخدم النار إشفاءً لبرودة المحبة . كانها سوف
تُوهن قوى العالم اذا بلغ الشيخوخة . والحال كما انهُ في الطوفان الاول لم
ينج احد غير نوح مع أهل بيتهِ مجازاةً لعفتهم . كذلك في الطوفان الاخير
لا تمس النار الصديقين المفعمين حباً لله ولا تضرّ بهم شيئاً . وكما ان

مياه الطوفان لم تهلك من كانوا متنزّهين عن نار المحبة اللحمية. كذلك طوفان النار لم يمسس من يكون مضطرماً بالمحبة الالهية

الفصل الثامن

في السبب الذي من اجلهِ يجب ان ينتهي العالم على نوعٍ مرعبٍ هكذا ثم تصير الدينونة العامة

انهُ لقد أحسن الانبا ديونيسوس الكارتوسي اذ قال : ان من ارهب الامور في ذلك اليوم الاخير ان ينجلي الحق على الخطاة . اذا سمع الخاطي قصف الرعود وعجيج الابحار وغير ذلك مما ذكرناهُ . فلا يرعب ولا يحسّ بقدر ما يرتعب ويتألم اذا تحقق انهُ لم يخدم الله كما كان يليق . وانه أثمَ إثماً اذ أبى ان يخدمهُ وعليهِ كان بغاية اللياقة ان تقام بعد الدينونة الخاصة التي تجري عند موت كل واحدٍ دينونة اخرى عامةً يبرز الله فيها القضاء على الجميع معاً ويجهر بعدلهِ على الهالكين والشياطين ايضاً . واذ يتفق ان لا يموت مع الانسان كل ما يتعلق بهِ كما قال القديس توما اللاهوتي . بل يبقى بعد موتهِ جسدهُ واولادهُ وبعض افعالهِ ونموذجاتهِ وموضوعات عواطفهِ . اقتضى الصواب من ثم ان يجري الحساب على هذه كلها في دينونتهِ العامة . ان إظهار الحساب يودّى عن الحياة وعن بعض ما تبقى بعد الموت ايضاً . فياما اعظم ما يكون حينئذٍ خجل المتكبرين الزاهين بخيلاء الجاه العالميّ . الذين عدل بهم حبهم للشرف عن محجة العدل والانصاف وتقاعد بهم عن ممارسة

الفضيلة . ما افضل ما كان للاسكندر ويوليوس قيصر من المجد الاثيل والفخر الجزيل . وقد كسباهُ بالجور والظلم وسفك دماء اناس ابرياء من الذنوب . فما كان يستوجب المدح والشكر في دهور كثيرة سوف يلحق بهِ الهوان في اليوم الاخير قصاصاً عن امتداحهِ الماضي . كذلك الاباء الذين كانهم يولودون ثانيةً ويحيون في اشخاص اولادهم . يدانون ثانية ويستوجب لهم ذلك امثالهم الردية التي جعلوها عثرةً لبنيهم

وقد قال ايضاً القديس توما اللاهوتي . انهُ من اجل ان الجسد يبقى في الارض بعد الموت . فيجب ان يدان كل واحدٍ ثانيةً في الدينونة العامة لان اجساداً من اجساد الابرار دُسَّت في بطون الوحوش الضارئة . وغيرها لم يُدفن وبخلاف ذلك اجساد كثيرة من اجساد الاشرار دُفنت باكرام جزيل في قبور فاخرة . فهذا الانعكاس يصلحهُ الله في ذلك اليوم . فالخاطئ الذي وضع جسدهُ في قبر مزخرف يشاهدهُ حينئذٍ في حال الاهانة والشقاء والعذاب . اما البار الذي لم يُدفن بعد موتهِ لكن قُبر في جوف الغربان او بطون الوحوش . فانهُ يبصر جسدهُ مكللاً بالنور . قال أيضاً القديس المتقدم ذكرهُ . ان الاشياء الزمنية التي علّق الانسان بها قلبهُ وحبهُ اذا استمرت بعد موته زماناً مستطيلاً او يسيراً . فلا بدَّ ان تجري عليها الدينونة الالهية . فانعم البصيرة في ما يميل اليهِ قلبك منعطفاً فان الاشياء الارضية التي نحبها اكثر حباً نشتهي ان تدوم زمناً مديداً . فان لم تدُم بعد موتك يكن ذلك للانتقام منك

ولعقاب محبتك ٠ وان استمرت بعد ذلك فخف من ان يكون بقاؤها اجراً زمنياً على بعض افعــال صالحة فيقتص لذلك اجرك الابدي او يسلب منك تماماً

وما عدا هذا وذاك فالانســان لا يخطيء بالنفس فقط بل بالنفس والجسد معاً ٠ فوجب ان يحضر كلاهما ويمثل امام عرش السيد المسيح للدينونة وان يتم ذلك جهاراً حذراً من ان يعوّل امرؤٌ على الخفاء ويخطي ٠ فيصدَّ عن الخطاء اذا علم ان فعــله لا يكتم بل سوف يشهر على رؤوس المــلا ٠ فحقاً ان الدينونة امرٌ مرعب جداً ٠ ومما تقدم من قول ايوب الصديق قد تبين لجميع القديسين انها ارهب من عقــاب جهنم نفسهِ ٠ وانها سوف تكون وتضغط الخاطيء مرتين ٠ وتكون الثانية امرّ من الاولى واصعب جداً

الفصل التاسع
في اخر يوم من الزمن

انهُ قبل ان نشرع بالبحث عن كيفية هذه الدينونة العــامة ٠ يجب ان تعلم ان النار التي تتقدم ظهور سيدنا يسوع المسيح وجلوسهُ على منبر عدلهِ لدينونة العالم ٠ ترافقهُ ايضاً عزّ وجلّ واذا عاد تعالى مع ابرارهِ الى السماء لا تبرح تمحص العناصر كما قال البرتوس الكبير واثبت ذلك براهن الايات من الكتب المقدسة ٠ ثم يجب ان نعتقد ان ظهورهُ تعالى الثاني يكون بعزّ ومجد عظيم يفوق على كل ظهور اخر ملكي او الهي ٠ فــان

كان ملكٌ نائبٌ عنهُ تعالى ومرسل من قبلهِ عزّ وجلّ لسنّ النـاموس الموسوي . قد ظهر على طور سينا بعزّ ومجد هذا عظم مقدارهما حتى ان الشعب العبراني ارتعب فرقاً من ظهورهِ . مع ان هذا الشعب كان قد تطهر واستعد لهذا الظهور . فماذا يكون اذاً ظهور رب النـاموس اذا جاء يطلب الحساب عن حفظ شريعتهِ . فباية هيبة ورهبة يظهر بغتةً في آخر الازمنة ليدين الناس كافةً ويحاسبهم

فتامل الان ما ارهب ما كان ظهور ذلك الملَك السانّ النـاموس العتيق . انهُ لمـا كان اليوم الخمسون من خروج بني اسرائل من مصر . بعد حدوث تلك الضربات المخيفة في تلك المملكة . وغرق المصريين في البحر الاحمر . كان الاسرائليون مقيمين في طور سينا واذا الرب اقبل اليهم في الجوّ من جبل ساعير الكائن في بلاد الادوميين . وكان قدومهُ بعزّ ومجد عظيمين ومعهُ اجواق كثيرة من الملئكة . وقال المرتل في المزمور السابع والستين ان الملئكة المحدقين بمركبة هذا الرب العظيم كانوا زهآء عشرة آلاف ولم يكن الاتي بمثل هذا السلطان العظيم الله نفسهُ بل ملاكاً كما شهد بهِ القديس استفانوس اول الشهداء . وكان ميخائيل زعيم قوات الرب . ولما كان آتياً من قبل الله و بالنيابة عنهُ دعاهُ الكتاب المقدس رباً . وكان على يدهِ اليمنى الناموس ملتهباً بالنار . وكان على سحابات ترجّ بالرعود والصواعق . فارتجف الاسرائليون لما رأوا عند انبلاج الفجر سحابة مظلمة قد حجبت الطور . ترشق رعوداً مخيفة وصواعق مرجفة وابصروا النار صاعدة

من الارض الى السماء يهيج لها دخان كثيف طبَّق الجبل كلهُ . وسمعوا صوت بوق يزعزع الارض ويشتدّ في كل ساعة . فاذ شاهد ذلك الاسرائيليون ارتجفوا من شدة الخوف . فامرهم الملاك بفم موسى النبي ان لا تقتربوا من جبل سينا او تموتوا كلكم . وبهذا اظهر الله كم يجب ان يحترموهُ وشرع حينئذٍ الملاك ينادي بالناموس بصوت عالٍ قويٍ حتى ان جميع الاسرائيليين سمعوا المقول وفهموهُ مع ان اصوات الرعود لم تكفَّ ولم تفتر فعظم خوفهم وكثرت فيهم الاراجيف . حتى اوشكوا ان يموتوا من افراط جزعهم . ولهذا طلبوا الَّا يكلمهم الملاك بل يخاطبهم موسى لئَلَّا يموتوا . فقام موسى النبي نفسهُ مقرًّا بخوفهِ ورُعبهِ . وكانت عيناهُ أَلِفتا مشاهدة الايات وقلبهُ متصفًا بالبسالة والشجاعة

ولعمري ان هذا كلهُ دون ما يحدث ذلك اليوم يوم يظهر فيهِ رب الملئكة نفسهُ ويطلب الحساب عن حفظ ناموسهِ . يوم تكون الارض كلها ملتهبة بالنار . وتنفتح السماء من فوق وادي يوشافاط وينحدر ابن الله بمجدٍ لا يوصف ليدين الجميع . في موكب الملئكة السماويين الذين يظهرون بهيئة محسوسة . وتحقق امام الديان العظيم رايتهُ اعني صليبهُ المقدس كما قال الذهبي الفم وغيرهُ من المعلمين . فيدرج الصديقون العائشون بعد على الارض ويرتفعون الى الجوّ الى لقاء مخلصهم حسب قول الرسول . وتنتصب اربعة ملئكة في اربعة اقطار المسكونة . ويصرخون باربع قرون صوتًا عظيمًا ينفذ اعماق اللجة قائلين . هلموا احضروا

الى الديئونة . فتخرج حينئذٍ من جهنم انفس الهالكين وتدخل اجسادها ثانيةً . وفي تلك الدقيقة عينها تبتدئ ان تتعذب في اجسادها بعذابات مريعة ابدية . ثم تاتي انفس الابرار ويلبسون اجسادهم ويتصفون بصفات المجد الاربع . لان اجسادهم تتلألأ ضياء افضل من الشمس وتصبح اخف والطف من الهواء . وغير قابلة التألم والفساد اصلاً

امّا الصديقون الاحياء . فلعجزهم عن ان يحتملوا في لحم قابل الموت وفور الفرح عند مشاهدتهم السيد المسيح وجزيل اشتياقهم اليهِ . يموتون من شدة الفرح والمحبة والتعجب . لكنهم بعد موتهم يحظون حالاً بمعاينة الذات الالهية فتتحد انفسهم باجسادها ثانيةً قبل ان يعتريها الفساد . فتُطهر من كل دنس ارضيّ . وتتزين بالصفات المجيدة السابق ذكرها . فمن يقدر ان يصف عظم فرح انفس الصديقين اذا تمتعت جديدًا باجسادها التي كانت قد استحالت الى رماد منذ الوف من السنين وقد توشحت بالبهاء والمجد . وايما شكر تسديهِ انفس الابرار الى سيدنا يسوع المسيح لاجل اتحادها الثاني برفيقها القديم واي فرح وسرور بين النفس والجسد . وكيف يهنئ احدهما الاخر لانهما عاشا عيشة قشفة ومارسا رياضات التقشف . وبخلاف ذلك ما أشدَّ ما يكون رجز أنفس الهالكين وغضبها على اجسادها التي انهمكت في اللذات . وسبَّبت لكليهما العذابات المؤبدة

فبعد أن يصطفَّ الهالكون في وادي يوشافاط . ويرتقي

القديسون الى الجوّ لاقاء السيد المسيح الديان . يقوم عزَّ وجلَّ فوق جبل الزيتون على سحابة بهية منيرة جداً . ويكون حوله وامامه ووراءه ألوف وربوات من الارواح السماوية متلالئين بنور عظيم . بل ينبثق من اقنومهِ الالهي نور يفوق كل شعاع من اشعتهِ نور الشمس فواقاً لا يقدَّر ولاسيما من جراحاتهِ الخمسة المقدسة . وهذا النور يكون للابرار لذيذاً مبهجاً وللاشرار مؤلماً محزناً فيبكون بكاءً مرّاً وينتحبون انتحاباً لا مزيد عليهِ لانهم لم ينتفعوا من جراحاتهِ الالهية . وعند مشاهدتهم عظم جلال مجدهِ الالهي وسموّ بهاء عزتهِ الربيَّة يطاطئون رؤوسهم وينتكسون تحت موطئ قدميهِ وان كانوا يبغضونهُ تعالى . فماذا يقول حينئذٍ اولئك الذين كللوهُ بالشوك وامسكوهُ قصبة عوضاً عن قضيب الملك والبسوهُ ثوباً احمر ممزقاً ولطموهُ ودنسوا وجههُ الاقدس بتفلهم المنتن . أم ماذا يقول اولئك الذين قدم لهم السيد المسيح ذاتهُ . وافتداهم بالامهِ المقدسة وموتهِ ولم يخلصوا لهُ العبادة بل أساؤوا اليهِ بخطايا متعددة مزدرين بدمهِ الزكي المسفوك حباً لهم كانهُ دم حيوان او احد اعدائهم . اني لاعجب من ان ذكر هذه الامور لا يمزق لبّنا واحشاءنا ولا يذيب جسمنا ندماً وانسحاقاً . فلنتصح بما قالهُ احد اباء البرية اذ سئل عن واسطة يلين بها القلب البشري ويميل الى ممارسة التوبة فاجاب سائلهُ قائلاً : اذكر متأملاً يوم حضورك العتيد تجاه الرب الديان الرهيب

ثم ان الملائكة يعدُّون منبراً آخر مجيداً جداً يهيئونهُ للام الطاهرة

المثلثة الطوبى مريم والدة الله لا لتكون شفيعة للخطاة بل لتكون خزياً لهم . لانهم لم يريدوا ان ينتفعوا من شفاعتها . ولتتمجد هي امام العالم كلهِ . وتنصب اعراش اخر حول منبر سيدنا يسوع المسيح للرسل الاطهار وللمساكين بالروح الذين تركوا كل شيء حباً بهِ تعالى . فيجلسون مع مخلصهم كقضاة . وبافعال سيرتهم المقدسة يتكرون حياة الخطاة الردية . ويثبتون حكم القاضي العادل . ومن قبلهِ وباسمهِ ينادون بالقضاء الاخير الرهيب . فيبهت حينئذٍ الخطاة ويرتعدون فرقاً وينتحبون اسفاً وندماً ويصرخون باعلى اصواتهم ما قد سبق الحكيم وتفوه بهِ عن لسانهم : هوذا أولئك الذين كانوا في اعيننا قديماً هزؤاً وضحكة وقد احتسبنا نحن الجهال سيرتهم جنوناً وموتهم اهانة . فكيف قد حُسبوا الان ابناء الله وادركوا نصيباً مع القديسين فقد ضللنا اذاً عن طريق الحق . ولم يضيء لنا نور العدل ولم تشرق لنا شمس الفهم (حكمة ٥ : ٣)

وماذا تقول حينئذٍ اولئك الملوك المغتصبون الذين عذبوا الشهداء وقتلوهم اذا ابصروهم حاصلين على هذا المجد الوسيم . وماذا يكون خزي اولئك الذين ظلموا المساكين حين يرونهم قد اقيموا قضاة عليهم . ولعمري انهُ في هذه الحياة لا يقوم الخاطئ ولا الصديق في ما يليق لكل من المقام . لان الشرير احياناً كثيرة يجلس من عن اليمين والبار من عن الشمال . ولكن السيد المسيح الديان العادل سوف يصلح هذا الظلم . ويميز الحنطة من الزوان . ويرفع الذين هم من عن يمينهِ عن الارض ويجلسهم

على منابر المجد ليمجدوا من العالم لاجل قداستهم . ويضع الاشرار من عن شماله اسفل واقفين على الارض ليهانوا ويحتقروا من الجميع . فما أشرَّ الحسد الذي يستولي حينئذٍ عليهم اذ يشاهدون الابرار مكرمين مفخمين وهم يحتقرون ويهانون . فاي خزي يشمل الملك إذ يرى عبدهُ قد ارتقى الى مثل هذا الشرف واسيرهُ ارتفع الى مجد الملئكة . وهو في حال شقاء الابالسة . لانهُ كما ان الملئكة يلبسون حينئذٍ اجسادًا من الهواء لكي تزداد الابرار فرحًا ومجدًا بهذا البهاء المحسوس . هكذا تتقمَّص الشياطين باجسادٍ زريَّة شنعة ليزيدوا الاشرار حزنًا وعذابًا بمنظر شناعتهم الكثيفة

ثم إذا كُشف عن ذات الضمائر وأُشهرت خطايا جميع الناس وأُبيح باسرار القلوب ونياتها وعواطفها . ومقاصد كل فكرة وكل كلمة وكل عمل وأعلن كل ما اكتنتهُ الخطأة سرًّا او أضربوا عنهُ خجلًا او حجبوهُ مكرًا وتلبسًا او تغافلوا عنهُ كسلًا إذا أُذيع بهذه كلها على أعين الجميع وفحص عنها وحكم عليها . إذا الديان العادل ينهض لوقتهِ . ويفتح فاهُ الاقدس ويجهر بكلام يسمعهُ الجميع ويبرز اولًا الحكم على الابرار بوجهٍ باش بصوت لذيذ عذب قائلًا : تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملك المعدَّ لكم منذ انشاء العالم (متى ٢٥ : ٣٤) . فيا ما أعظم ما يكون وقتئذٍ فرح الابرار الصديقين ويا ما اشدَّ وأمرَّ ما يكون حزن الاشرار الطالحين وليس حزنهم فقط بل حسدهم وغضبهم ايضًا ولا سيما حين يسمعونهُ تعالى يحكم عليهم حكمًا

صارماً يباين شدة المباينة حكمــهُ عزَّ وجلَّ للابرار وقد أشار الى ذلك اشعيا النبي بقولهِ . شفتاه مملوتان رجزاً ولسانهُ كنار آكلة (اشعيـا ٣١ : ٢٧) . فيقول لهم ابن الله بصوت يفتت الصمَّ أغربوا عني ياملاعين الى النار المؤبدة (متى ٢٥ : ٤١) . فيحسون بأس صوتهِ هذا ويداخلهم ألمٌ أمرّ من كل نار وعذاب . لانهُ ان كان صوت بطرس الرسول وهو مغضب اسقط حنانيا مع امرأتهِ على الارض فماتا (اعمال ٥ : ٥) . فماذا يصير بالاشرار حينما يكلمهم السيد المسيح بغاية الغيظ والغضب . وقد يمكننا ان نفهم هذا مما شعرت بهِ القديسة كاترينا السيانية لما وبخها القديس بولس الرسول على اصرافها شيئاً قليـلاً من الزمن باطلاً لانهُ قد شهدت القديسة المذكورة قائلةً . انها آثر لديها ان تهـان قبالة العالم جميعـهِ من ان تسمع مثـل هذا التوبيخ الرسولي . فماذا يكون اذاً التوبيخ الالهي في ذلك اليوم يوم الانتقام . لانهُ ان كان تعالى في اليوم الذي أُلقي القبض عليهِ . اسقط على الارض جميع الشرط بمجرد قولهِ انا هو . فماذا يكون اذا تكلم وهو جالس على سدة الحكم

قد ذكر في كتاب اخبار اباء البرية المؤلف من القديس سوليسيوس والقديس كاسيانوس عن شاب انهُ عزم على هجر العـالم والتمسك بالسيرة الرهبانيـة . وكانت أمهُ تمانعـهُ موردةً لهُ حججاً كثيرة فلم يؤثر ذلك في قلبهِ . بل كان يرد كل سهام حججها وممانعتها بترس جوابهِ هذا . اني أُريد ان اخلّص نفسي . فلما رأت امهُ أنَّ جدَّها

لا يجد صدرًا خلته حال سبيلهِ فدخل الرهبانية الّا انهُ بعد برهةٍ ما ابتدأَ ان يتراخى في العبادة . وفي اثناء ذلك ماتت والدتهُ ومرض هو مرضًا خطرًا جدًّا . فعرض له يومًا غشيٌ عظيم فغاب عن عقلهِ واختطف بروحهِ الى الدينونة امام منبر الله . فوجد والدتهُ مع كثيرين من الهالكين ينتظرون القضاء الاخير قضاء الهلاك الابدي . فلما رأتهُ امهُ في قوم كثيرين أزمعوا ان يدانوا ويرذلوا اندهلت وقالت لهُ : ما هذا يا ابني وكيف حصلت على هذه الحال . اين قولك لي اني أُريد ان اخلص نفسي . أليس هذا السبب الذي من اجلهِ باينت العالم وترهبت : فاذ سمع من والدتهِ هذا التوبيخ خزي جدًّا وخجل ولم يقدر ان يجب عن ذلك بكلمة . وفي الحال انتبه واستفاق . وبنعمة الله ورحمتهِ برأَ من مرضهِ . واذ تحقق في نفسهِ ان اختطافهُ هذا كان تنبيهًا سماويًّا لهُ . تغير تغيرًا كليًّا . ولم يزل نادمًا باكيًا على الزمن الماضي وشرع يمارس افعال توبة قشفة صارمة حتى ان الاخوة كانوا يطلبون منهُ باجتهاد ان يقتصر على القليل منهُ خشية ان يتلف صحتهُ اما هو فكان يدحض حججهم قائلًا لهم : ان كنت انا لم اقدر ان احتمل توبيخ والدتي لي فكيف يمكنني ان احتمل توبيخ السيد المسيح وملئكتهِ وقديسيهِ حين اقف للدينونة

خبرنا رافائيل كولومبا عن فيلبوس الثاني ملك اسبانيا . انهُ في ذات يوم اذ كان يحضر القداس الالهي رأى بالقرب منهُ شخصين من أرباب الدولة والشرف يتفاوضان . فاهملهما الى ان فرغ القداس . ثم التفت

اليهما بوجه مغضب قائلًا : لا تعودا منذ الان فصاعدًا ان تحضرا أمامي . فشقَّ عليهما كلامهُ حتى ان أحدهما مات من شدة الحزن . والاخر أختلَّ عقلهُ وقضى بقية حياتهِ مجنونًا . فماذا اذًا يفعل بالخطاة صوت ملك الملوك ورب السماوات والارض اذ يقول لهم اغربوا عني يا ملاعين : ثم ان كانت كلمات الله مخيفة هكذا فماذا يكون من افعال عدلهِ

فحينئذٍ تحدق النار بالهالكين . وتنشقُّ الارض وتفتح جهنم جوفها لتبتلعهم في لججها الى الابد . وفي حين سقوطهم يتمّ ما قالهُ الملك والنبي داود : يسقط عليهم الجمر وتلقيهم في النار وفي الشقاء فلا يحتملون (مز ١٢٩ : ١١) . ثم يكمل اخيرًا ما قالهُ يوحنا الحبيب في جليانهِ : ان الشيطان والموت وجهنم وكل من لم يكن اسمهُ مكتوبًا في سفر الحياة يلقون في وادي النار والكبريت حيث يعاقبون مع المسيح الدجال ونبيهِ الكذاب نهارًا وليلًا الى دهر الداهرين (رؤيا ١٤ : ١٠) . اما الابرار الصديقون فبخلاف ذلك يسرون متهللين حسب قول النبي : اذ ينظرون الله منتقمًا من الخطاة (مز ٥٧ : ١١) . ويسبحون تسبحةً تشبه تسبحة موسى النبي التي رتلها لما غرق الله المصريين في البحر . ثم يرتلون أيضًا نشيد الحَمَل الوديع المذكور في سفر الرؤيا قائلين بصوت الابتهاج : عظيمة هي افعالك وعجيبة يا ايها الاله القادر على كل شيء . وسبلك حقيقة يا ملك الدهور . فمن ذا لا يخافك ولا يعظم اسمك يا رب (رؤيا ١٥ : ٤) . فبمثل هذه الاصوات المبهجة والتراتيل اللذيذة يدرج الابرار بمجدٍ وسرور

عظيم الى فوق الكواكب ويستوون على عرش الملك السماوي ويقيمون على منابر المجد الى ابد الابدين

فهاكم ما يصير اليهِ كل زمن . فانظر كيف تتصرف الان بالاشياء الزمنية . ولكي تحسن تصرفك بها اذكر انتهاءها . اذكر هذا اليوم الاخير يوم الشقاء والعدل يوم الخوف والضيقة لانهُ ليس لنا دواء لاصلاح سيرتنا ولا علاج اعظم تأثيرًا من هذا الفكر . قد ذكر يوحنا كوروبالات عن بوغوريس ملك بولغاريا الوثني أنهُ كان مولعًا بالقنص وكلفًا بصيد الوحوش الضارية . ولذلك كانت ترى على جميع حيطان قصرهِ صور يشخص بها كل ضرب من ضروب الصيد . فاتفق ان وجد في ذلك الزمن راهب ماهر في فن التصوير يقال لهُ مروديوس . فامرهُ الملك ان يصور لهُ صورة مخيفة مرعبة ويبالغ في ذلك ما استطاع . فصور لهُ الراهب الحكيم صورة الدينونة الاخيرة . ولما فرغ من ذلك استدعى الملك وأراهُ ما صنع . فتفرَّس بها الملك وتعجب وارتعب من عدل الله وبعد ان أمعن النظر في كيف يثيب الله الاخيار ويعذب الاشرار إتعظ من خوفهِ وجزعهِ فتاب عما كان عليهِ من سوء السيرة الردية واستمسك بعُرى الديانة المسيحية الوثقى . فان كانت صورة الدينونة ترعب فماذا يكون اذا ظهرت هي بذاتها

المقالة الثالثة

في ما بين الزمني والابدي من الفرق من حيث تغير
الامور الزمنية ودناتها ومخاطراتها وهي
عشرة فصول

الفصل الاول

في ان تغير الاشياء الزمنية يجعلها اهلاً
للازدراء والاحتقار

انهُ بعد ايراد قصر الزمن وسرعة زوال الاشياء الزمنية يجب علينا ان نتكلم عن عدم ثباتها فنقول . انهُ كما ان الموت هو تحوُّل الحياة هكذا التغيرات الحادثة في الحياة هي موت بعضها . فالمرض هو موت الصحة والعافية . والنوم هو موت السهر والماليخوليا موت الانبساط والفرح . والحدة والنزاقة هي موت الهدو والسكينة . والشبوبية هي موت الطفولية . والشيخوخة هي موت الشبوبية . وان تلك المرأة التي اخبر عنها صاحب الجليان بان القمر كان موطئ قدميها . كان يمكنها ان تتزين بهِ كما تزينت بالكواكب الاخر المرصَّع بها اكليلها وأبت إلّا أن يكون موطئاً لرجليها . وذلك كان كما لحظ القديس غريغوريوس الكبير دليلًا على انهُ يجب ان نحتقر وندوس الاشياء الزمنية العديمة الثبات

المرموز اليها بهذا الكوكب الذي من شانهِ ان يجول ويتغير في كل وقت كما قال القديس غريغوريوس الكبير واليهِ أشار ذلك الملاك الذي انحدر من السماء متوَّجاً بقوس قزح ينادي بدنوّ انتهاء الزمن . فانهُ داس البحر برجلهِ اليمنى وهي عبارة عن القوَّة والشدة . واشار بذلك الى انهُ يجب علينا ان نطأ هكذا ما ليس ثابتاً كالبحر وندوسهُ بعزم مكين دوساً شديداً

فايمَ الله ان عدم ثبات الاشياء الزمنية يجعلها حقيرةً وحقيقة بالازدراء . وذلك لان تغيرها عظيم واسبابهُ كثيرة جداً . فكما ان للبحر نوعين من الحركة حركة طبيعية يزداد بها وينقص كل يوم بمدّ امواجهِ وجزرها . وحركة اخرى اكراهية يعتريهِ منها تغيرات عظيمة تنتجها علل خارجة منها الرياح الشديدة والزوابع العاصفة تهيجهُ وتقلبهُ ظهراً لبطن وفوقاً لاسفل . وهذه حال العالم فمن طبع فُطر عليهِ يتعرَّض للتقلُّب والتغير والزوال . فان خلا من اقتسار خارج فلا يخلو في ذاتهِ من تقلُّب وتغير متصل يفضي بهِ الى زوال عامّ ولا مناص منهُ . ولربما يتفق ان تطرأ عليهِ حوادث غريبة تصدّ فيهِ الاشياء وتحوّلها عن مألوف جريها . فتعصف في بحر هذا العالم عواصف عظيمة تتلف ما جلَّ فيهِ وما ذلَّ فتوقع بالزهور البهيئة ذبولاً وفناء . وان نجت واحدة منها هبَّت عليها ريح سموم ايبستها او ريحٌ زعازعُ أثرتها . كذلك الجمال فانهُ من ذاتهِ يضمر ويزول بمدة من السنين . بل لا يقتضي لزوالهِ مدة مستطيلة ان

تعتريه حمى حادة او غيرها من الامراض فيبيد . هكذا الثوب الثمين المفوف يخلق ويبلى بطول الزمن ويتفق احياناً ان يتلفه لابسه في هنيهة . ومثلها قصور الملوك فانها وان كانت وثيقة محكمة فتلعب بها ايدي الزمن وتقوض اركانها ان نجت من حريق يرمد جدرانها ويجعلها عبرة للخلف

فامعن اذاً النظر وتفرس بالاشياء التي أبذل الناس ما فيهم من الجد والجهد في توطيدها وتركينها ترها جميعها متغيرة . فمدينة تيبايس من اعمال مصر التي خالها القديس غريغوريوس النزينزي من غرائب العالم كانت تدهش عقول الناظرين بحسنها ونظامها . وكانت حيطانها مزينة بالمرمر المصفح بالذهب الابريز . وفي عرض سورها بساتين كثيرة مبهجة مرتفعة عن وجه الارض . وعدد ابوابها مائة باب . وكان كل باب يسع عشر كرات من الجنود . وكان طول كل باب منها عشرة اميال . كما اخبرنا بومبونيوس المؤرخ فقد افتتح هذه المدينة العجيبة الحصينة شاب حدث وقهر أهلها بجيش قليل كما روى القديس ايرونيموس . وقد خبرنا مؤرخ آخر يقال لهُ مرقس بولس . انهُ دخل مدينة تدعى كينساي وكان عدد سكانها ثمانين ربوة من الناس . فلم تمضِ من ذلك إلَّا سنين قلائل حتى مرَّ بها نيقولاوس المكنَّى بابن الامير . فوجدها قد هدمت وشيدت عن جديد . ولا ريب في ان مدينة نينوى كانت اعظم من هذه المدينة جداً . لان الكتاب المقدس يشهد ان طولها مسيرة ثلاثة ايام . والان بل من دهور عديدة لم يبقَ من هذه المدينة إثر . ومثل ذلك حلَّ بمدينة

بابل حصن البلاد وتخت مملكة العالم . فانها درست ودكّت قاعًا صفصفًا وأصبحت برية مقفرة تاوي اليها الوحوش الضارية والشياطين . كما كان تنبأ بهِ اشعيا النبي ولم يقِها من كوارث الزمن . ولم يكفها شرّ حوادث الايام سورها وان كان علوهُ مائة قدم في عرض خمسين . وما قولك في مدينة قفتان عاصمة مملكة الماديين . التي شادها ارفخشد الملك من حجارة مربعة منحوتة نحتًا في غاية من الاحكام وكانت أحصن من مدينة بابل لان عرض سورها كان ستين ذراعًا في علوّ مائة ذراع . فافتتحها ملك الاثوريين واستأسر سكانها والملك بانيها . وبعد ان كانت الارض ترتجف من سطوة ملكها غدا هو يرتجف خوفًا وفزعًا من ملك أثور عدوهُ (يهوديت ١ : ٢)

وماذا نقول عن المدن التي درست وذهبت بذهابها أممٌ وانقلبت أحوال نُسي شأنها . ولما شيَّد الاثوريون العالم ومهدوا ملكهم واستقرّ لهم أمرهُ اذا انقلبت أحوالهم وصارت في أيدي سواهم من العجم وانتقلت من العجم الى اليونانيين ومنهم الى الرومانيين . ثم بعد سنين قليلة تبدلت تلك الاحوال وانقلبت انقلابات أُخرى كثيرة . حتى غدت احوال العالم واموره بين تغلبٍ وتبدل لا ركز لها ولا ثبات إلّا على التغيّر . فان كان التغير شينًا في الامور وشائبةً تلحق بها الاحتقار . فشين العالم عظيم لانهُ كثير التغير

ان القمر المرموز بهِ الى عدم الثبات يتغير لا من حيث صورتهِ فقط

بل من حيث لونهِ ايضاً . وقد لحظت فيهِ الفلاسفة الطبيعيون ثلثة الوان . وهي الاصفر والاحمر والابيض . فاصفرار لونهِ عبارة عن المطر واحمراره دلالةٌ على الريح . وابيضاضهُ داعية للصحو . وعلى هذا النحو يتغير قلب الانسان بثلثة أمور يكنى عنها بثلثة الوان تتنازع اميالهُ اليها . واولها الاصفر وهو لون الذهب . واليهِ اي الى الغنى يميل الانسان باسرع واشدَّ من سيل المياه منحدرة الى أسفل . والثاني هو اللون الاحمر القرمزي . وهذا ينكب بالانسان الى اشتهاء الكرامات الباطلة . والثالث هو اللون الابيض لون الفرح والابتهاج . وهذا يحمل الانسان الى ان يتوق الى التنزهات وملاهي هذه الحياة . فهذه ثلثة أمور تتولد من البخل والكبريا والشهوة اللحمية بها يتحرك الانسان ويتغير نظير حشائش من خواصها ان تميل وتنحني الى حيث يسير القمر . وهذه التغيرات الحادثة في الانسان تسبب تغيرات في اشياء أخر كثيرة . فكم من الممالك بعث على هدمها بخل كورش الملك . وكم غيرت الممالك كبرياء اسكندر وحبهُ الكرامة . وكم فعلت شهوة باريس اللحمية في مدينة تروبا حيث لم تدع شيئاً قائماً الّا قلبتهُ فوقاً لاسفل . وكم هدَّمت وقلَّبت في مملكة اليونانيين . فكما ان البحر يزداد وينقص بداعي حركة القمر كذلك أمور هذه الحياة ان حركاتها وتغيراتها تابعة لتغيرات الانسان . حتى لا تجد في شيء ثباتاً ولاسيما في الانسان سوى الثبات على التغيّر . فالانسان يتقلب وعنهُ يصدر التغيّر في بقية الاشياء

ان داود النبي وضع للزمور الثامن والستين هذا العنوان •
للتمام • من اجل الذين سيتحولون وذلك لانهُ بزموره هذا يتكلم
عن الشعب الاورشليمي الذين بعد أن قبلوا السيد المسيح باكرام
لم يحظَ بهِ أحدٌ ممّن سلف ولن ينالهُ امروءٌ من الخلف تغيروا بعد
ايام قلائل عما كانوا عليهِ وقصدوهُ بسوء المعاملة مما لم يعامل بهِ احدٌ
من اوباش الناس • فليس اذاً لنا ان نعتمد على قلب البشر الذي يميل تارةً
الى الحبّ وأُخرى يعدل عنهُ الى البغضاء يشتهي تارةً وتارةً يمقت •
تارةً يكرّم وتارةً يهين • فمن ذا لايتعجب من تغيُّر القديس بطرس زعيم
الرسل الذي وعد معلمهُ الالهي بانهُ يموت من اجلهِ فما مضت ساعات
حتى اخلف بوعدهِ وانقلب عن عزمهِ واقسم بانهُ لايعرفهُ تقدس اسمهُ •
فان كان ارز لبنان قد تزعزع هكذا فماذا يكون من امر القصب والقطن •
وماذا نقول عن أمنون بن داود الملك الذي أُغرم باختهِ تامر ومال اليها
كل الميل فاضناهُ حبها وادنفهُ • وما زال الحال على هذا المنوال حتى
قلب لها ظهر المجنّ وتحوَّل حبها الى بغض عظيم انتهى بهِ الى طردها
من البيت حذراً من ان يراها

ولا اجد شيئاً اعظم لتقرير وتوكيد مانحن بصددهِ مما حدث في
مدينة أفسس • وذلك انهُ كانت في هذه المدينة امرأة معتبرة جداً
مشهورة بصفاتها الحميدة • فحدث لها ان توفي بعلها • فحزنت عليهِ حزناً
عظيماً لا مزيد عليهِ فلم تكتفِ بالبكاء المرّ المتصل ولا بالتولول العظيم

والانتحاب الاليم . ولم تقف عند ما ابدتهُ من لطم وجهها وصفع جسمها بقساوة ليلاً ونهاراً . لكنها مضت ايضاً الى الناوس الذي قُبر فيهِ زوجها . وكان خارجاً عن المدينة . وحبست نفسها هناك مع الجثة المحبوبة منها . ولم ترد ان تأكل شيئاً واستمرت على هذه الحال اربعة ايام . فاتفق ان الحاكم امر بشنق اربعة من لصوص بقربة من تلك المغارة . واقام حرساً يحفظون جثث أولئك اللصوص على المشنقة حذراً من ان يأتي أهلهم فيختطفونهم ليدفنوهم . فعلم احد الحرس بحال تلك المرأة فاخذتهُ رحمةٌ وشفقة عليها ومال الى تعزيتها . فأخذ مأكلاً وانطلق بهِ الى المغارة . واخذ يعزيها ويحثها على الأكل ضناً بحياتها فأبت وذهب كلامهُ في اول الامر سدًى . فالحَّ عليها ولم يزل يحثها بالمحاجة ويقنعها بحجج كثيرة بان تكفَّ عما هي عليهِ . فطابت حينئذٍ نفسها ومالت الى مطلوبهِ . وارتضت لا بان تتناول الأكل من يدهِ فقط . بل بان تتخذهُ ايضاً زوجاً لها . فاخذ الفرح منهُ أشدَّ مأخذ حتى تغاضى عن اللصّ المشنوق الموكول اليهِ أمر حراستهِ . فاتى اقرباؤُهُ فسرقوهُ ودفنوهُ سرًّا . فلما علم الجندي بذلك أشفق من خوف عقاب الحاكم . فقصَّ على المرأة القصة فطيبت خاطرهُ واخرجت جثة زوجها الميت الذي كانت اظهرت لهُ قبلاً حباً مفرطاً وعلَّقتهُ موضع اللصّ المشنوق وأقرَّت عين زوجها الجديد . فانظر الان وتعجب من سرعة تغير قلب الانسان وعدم ثباتهِ

الفصل الثاني
في ان البلايا الزمنية وان كانت عظيمةً تخفُّ برجاء نهايتها

ان تغير الاشياء الزمنية وعدم ثباتهـا المتقدم تقريرهُ من شانهِ أن يربط على قلبنا الثبـات والشدة . وذلك اولًا باحتقارنا هذه الاشيـاء القابلة التغير والسريعة الزوال . ثانيًا باعتقادنا اليقين انهُ لا بليَّـة تدوم بل تحول . وانهُ كما يتفق احيانًا ان بعض الخير يكون علة لشرور عظيمـة . كذلك يتفق ان شرورًا جسيمة تنتج احيانًا خيرات جسيمة . وقد ذكر في هذا الصدد عن رجل شريف يدعى ابيوس . انهُ لما بلغهُ ان الحاكم عهد بالقبض عليهِ ليقتلهُ ركب سفينة مع خدامهِ وامواله وامتعتهِ وخلا عن ديارهِ . واذ كانت الرياح تزجي سفينتهم وسوست للخدام نفسهم وسوَّلت ان يختلسوا مال سيدهم . فانزلوهُ في قارب وتركوهُ في البحر تزجيـهِ الرياح . وساروا هم بالسفينة الموسوقة من ارزاقهِ وامتعتهِ . وما عتمَّ ان غرقت بهم السفينة وهلك كل ما فيها من الرزق والناس . ولم يدركوا سوء مرادهم وما كان يخالهُ السيد بليَّة صار علة لنجاتهِ . فان قاربهُ انتهى بهِ الى مملكة سيسليا سالمًا سليمًا

خبرونا ايضًا عن رجل آخر يدعى اريستومينس ان اعداوهُ قبضوا عليـهِ والقوهُ في سجن عميق ريثما يقتلونهُ فكان يترقب الموت في كل ساعة اما من الجوع واما من الرائحة المنتنة التي كانت تنبعث من ذلك

المكان واما من ضربة سيف . ولما كان على حال اليأس الكلي اذا بثعلب قد دخل الى السجن من سرداب محفور في حائط السجن تحت الارض فامسكهُ اريستومينس بذنبهِ واذ كان الثعلب يحاول الخروج من حيث دخل كان الرجل المذكور ينقاد اليهِ تابعاً اثرهُ متمسكاً بذنبهِ بيدهِ الواحدة وموسعاً ذلك المنفذ بيدهِ الاخرى . وعلى هذا النحو خرج مع الثعلب سالماً وكان اعداؤهُ يعدّون لهُ الموت . فلا شرَّ اذاً في هذه الحياة يستحيل الوصول بهِ الى اعظم خير . وقد ذكر عن ديوجينس انهُ بعد ان حُكم عليهِ في المحكمة لاجل امرٍ أُلحق بهِ الهوان والاحتقار في اعين الجميع حصل مكرماً من الجميع حتى ان اسكندر الملك المعظم زارهُ وشرفهُ جداً . وهكذا اخبرونا عن رجل كان في صدرهِ دملة مهلكة أعيت الاطباء عنها وآيسوا من شفائها . فاتفق ان عدواً لهُ ضربهُ على صدرهِ على تلك الدملة ضربةً مميتة فصارت الضربة علة لبرئها وعلاجاً لشفائها . وقد اخبر ايضاً جالينوس رئيس الاطباء عن رجل ممنوّ ببرص لاشفاء لهُ انهُ مرَّ يوماً بقومٍ يحصدون وكانوا يعرفون علتهِ فاعطوهُ خمراً وقعت فيهِ أفعى ليشربهُ ويموت ليستريح من ألم حدامهِ فلما شربهُ تنقى من برصهِ ونال الشفاء . وخبرنا مؤرخ اخر انهُ عرف صبياً أعرج الرجلين ولم يكن يقدر ان يمشي اصلاً الاَّ متوكياً على عكازين فاتفق انهُ بُلي بطاعون في زمن الوباء فشفي من عرجهِ شفاء كاملاً وصار يمشي مستوياً بغير عون كسائر الناس . وجاء ايضاً في الاخبار ان رجلاً أعمى

ضرب على أم رأسهِ ضربة شديدة فصار يبصر جليًا . وكذلك امرأة فقدت صحة العقل فاذ ضُربت على رأسها عادت الى حالها الاولى وصحا عقلها . وقد ذكر بلوتارخوس ان رجلًا كان فاجأهُ داء مزمن فضربهُ عدوهُ في مكان الالم فشفي منهُ . ولعمري ان بني يعقوب اسرائيل كان سوء معاملتهم ليوسف اخيهم وجورهم عليهِ داعيةً ومدرجةً لرفع منزلتهِ وشانهِ في مصر . وبلايا ايوب الصديق صارت سببًا لان يعمر ويزداد خيرًا ورزقًا . وهرب يعقوب الصديق من وجه اخيهِ عيسو بعصًا لا غير من دون زاد ولا امتعة . صار لهُ سببًا لان يرجع الى بلادهِ غنيًا بالمال والخدم والبنين . فحقًا انهُ لا يوجد في هذه الحياة بليَّة لا يخالطها رجاء . وقد تاتي الشرور مرارًا بخيرات وافرة وذلك بالنظر الى مجرد ما تجري عليهِ الامور

واما اذا وجهنا نظرنا الى عناية الله . فنرى انهُ لا شرَّ الَّا ويمازجهُ خيرٌ ولا داء الَّا لهُ دواء . فهل من ضيق اعظم مما حصلت عليهِ سوسنة العفيفة حينما سيقت الى الموت برضى الجمهور . وفيما هي ماضية الى المقتل باهانة عظيمة انقذها الله من الموت . فانذهل الجميع وتعجبوا من فضلها وفضيلتها . ودانيال النبي اذ أُلقي في بئر الاسود اما كان بمعزل عن كل عون بيد انهُ ما كان يترقَّبهُ من الاسعاف ممن في الارض اتاهُ من السماء . والثلثة الفتية الذين طرحوا في اتون بابل قد وجدوا التعزية والسرور في وسط النار وفي حضن الموت ادركوا السلوان (دانيال ٣ : ١٤) . وقد ظنَّ داود النبي اذ رأى جنود شاول عدوّهِ قد احاطوا بهِ انهُ لا خلاص لهُ ولا مفرَّ من

ايديهم وقد حان موته الّا انه بتلك الدقيقة نفسها حاز بفوز النجاة وفرَّ هاربًا من ايديهم

الفصل الثالث

في انهُ يجب على الانسان ان يتروَّى عواقب ما يمكن ان يكون عليهِ من الاحوال

فلنتصحنَ اذًا ونتعظنَّ من تغير الاشياء الزمنية وعدم ثباتها ولا نلقينَّ عليها اتكالنا ولا نعولنَّ على الحظ العالمي ولا نثقنَّ بما في العالمِ من النجاح والشرف فان هو الّا غرور فما من مملكة او مرتبة او حبرية معصومة عن خطر البلية . ولذلك يجب علينا ان نعتبر دائمًا هذا الامر . وهو انهُ يمكن ان نحطَّ من اعلى رتبة الى اسفل مقام فنعلم ان اشرف الناس رتبةً وقدرًا لا يكبُر عن ان يسقط من سموّ رتبتهِ ويضطرهُ الاحتياج وتعوزهُ الفاقة الى تسوّل معاشهِ في الشوارع كاحد الصعاليك . والملك نفسهُ لا يتأبَّى بهُ عن السقوط من سدتهِ وتخلع عنهُ اثوابهُ الملوكية ويكون فاعلًا مكديًا او يقتل قتلًا رديًا

فقد كان فيتاليوس ملكًا عظيمًا جدًا وكان مستوليًا على الشرق والغرب وكان على جانب عظيم من الغنى والثروة وكانت اموالهُ كرمل البحر وكان مشكورًا وممدحًا في الشوارع من الشعب الروماني كافة فلم تدُم حالهُ على هذه الحال بل انتهت باهانة قصوى لم يكن لها نظير . لان ارباب الدولة قبضوا عليهِ وربطوا حبلًا في عنقهِ وكتفوا

يديهِ وراء ظهرهِ ومزقوا ثيابهُ وجعلوا سيفاً تحت ذقنهِ وطافوا بهِ هكذا
في مدينة رومة باهانة عظيمة فكانوا يشتمونهُ ويلطخون وجههُ ولحيته
بالوحل والاقذار واخيراً قتلوهُ في الشوارع والقوا جثتهُ طعاماً للوحوش
الضارية كجثة اعظم الاثمة. ولعمري انها الحال يرثى لها. فالذي حصل على
اسعد المراتب وتمتع بكل اللذات والكنوز والكرامات تنتهي حياتهُ هكذا
باشنع الميتات فما هذه البليَّة. فمن ذا الذي كان يستطيع ان يسبق فيعرف ان
حياة هذا الملك تنتهي على هذا المنوال. اذا راهُ منذ ولادتهِ ونشوهِ
متردياً باثواب شريفة فاخرة ماشياً في مدينة رومة العظمى باحتفال عظيم
وشرف ملوكي في شعب يمدحهُ ويثني عليهِ. فهل كان رأى ان حياة هذا
الملك تنتهي على هذا النحو المتقدم وصفهُ. هل كان خيِّل لهُ ان هذا
الانتهاء الشقي يقتضي مثل هذا الاستعداد الشريف

هكذا فالريانوس الملك الذي كان يلبس الخز والارجوان ويركب افخر
الخيل المسوَّمة وعلى رأسهِ تاجٌ ملوكي فلم تمضِ مدة يسيرة حتى سجن كوحش
ضارٍ في قفص من حديد. وكان لسابور ملك الفرس بمنزلةٍ موطىءٍ يطىءُ
ظهرهُ كلما اراد ان يركب. واخيراً سلخ جلد منكبيهِ وملحهما كلحم خنزير.
وزينون الملك بعد ان ملك عدَّة سنين في القسطنطينية وتنعم بكل لذةٍ
دُفن وهو حيٌ واكل لحم يديهِ من شدَّة الجوع. وبليساريوس المظفر في
الحروب بعد ان انتصر على شعوب البندالة والغططين وافتتح مملكة افريقية
وسيسليا وظفر بملك الفرس وحصل على كنوز عظيمة حتى انهُ في يوم

واحد ربح ما قد كان جباه البنداليون من الاموال في مدة ثمانين سنة . فهذا اضطر اخيراً الى ان يمدَّ يده طلباً للمعيشة على باب كنيسة اجيا صوفيا وفي شوارع مدينة القسطنطينية وهو اعمى . وديونيسيوس الثاني ملك سقلية خُلع من الملك ومُني بالفقر العظيم . فاحوجه الامر الى ان يقرئ الاولاد الصغار سداً لجوعه . وادوني بازاق الذي ظفر بسبعين ملكا حسبما اخبر عنه الكتاب المقدس حصل اخيراً اسيراً وقطعت اطراف يديه ورجليه (القضاة ١ : ٦) . والملكة غوسفيندا امرأة ملك اسبانيا الذي احبها واكرمها جداً عدة سنين ارسل الملك المذكور جلاداً فقطع رأسها بامره في وسط مدينة توليدا . ومريم زوجة اتون ملك النمسا قتلت بامر الملك المذكور لما تحقق ان ما اتهمت به احد امرايه باطل . فاذ تقرر ذلك نقول انه ما من تاج او قضيب ملوكي منزه عما لباقي الامور الزمنية من التغير وعدم الثبات . وحسناً قال القديس غريغوريوس النزينزي . ان الاجدر بنا ان نستوثق من الريح ومما يطبع على صحائف الماء اكثر منه من نجاح العالم وغروره فان العالم غدار لا يذكر العهود ويخلف بالموعود

بل ليست هذه كلها على حصر الكلام هبوطاً بل تغيراً فقط . لانه ما من احد يقدر ان يسقط من موضع سفلي منخفض وكل سعادة عالمية وطيئة منخفضة جداً . فالسقوط الحقيقي اذا هو السقوط الروحي الذي يسقطه الانسان من حال سامية حال النعمة الالهية الى لجة

الخطيئة فيجب علينا ان نرتجف فرقاً اذ نرى ان مثل هذا التغير المخيف يمكن ان يوجد فينا وذلك بارادتنا . فان جميع الخيرات الارضية يمكن ان تسلب منا اغتصاباً اما الخيرات الروحية فلا يمكن ان نفقدها ان لم نرتضِ بذلك . فيا لعظم شقائنا لاننا نحن نرتضي بفقدها وبتغيرنا الاختياري نصيّر هذه الخيرات الغير القابلة التغير خاضعة للتغير

خبّرنا القديس بطرس داميانوس انهُ عاشر راهباً في مدينة من بلاد ايطاليا يدعى مادلينوس . وكان هذا الراهب قد ارتقى الى درجة سامية من القداسة فبلغت بهِ قداستهُ الى اجتراح المعجزات . ومن جملتها انهُ مرةً في يوم السبت العظيم بعد ان هيأ قناديل الكنيسة واعدّها لم يبقَ لهُ زيت لقنديل الجسد الالهي . فوضع بايمان حيّ ماء في القنديل عوضاً عن الزيت واضاءهُ فاشتعلت الفتيلة بالماء كما كانت تشعل بالزيت واستمرّ ذلك القنديل مضيئاً هكذا تلك الليلة كلها . فاعتبر ما وصل اليهِ هذا الرجل العجائبي . فان الله رفع عنهُ يده فسقط سقطةً قبيحة . ولاجلها أُلقي في السجن وتعذب بحكم الشريعة تعذيباً مشتهراً . وقد اخبر ايضاً القديس بطرس المتقدم ذكرهُ . انهُ في المدينة المذكورة انفاً كان كاهن قديس منّ عليهِ الله بفعل العجائب . وكان كل يوم في قداسهِ ينحدر ملاك من السماء يتقبل من يديهِ الاسرار الالهية ويقدمها لله بحسب الرسم الكنيسيّ وكان يعاين ذلك امير المدينة عينهُ . فهذا الكاهن الذي كان شبيهاً للراهب المتقدم ذكرهُ في الفضيلة ضاهاهُ اخيراً في الرذيلة وسقط

نظيرهُ سقطة جسيمة . ومثلهما الشاب الراهب الذي روى عنهُ القديس كليمكوس . فانهُ كان بلغ الى قداسةٍ عظمى والى صنع العجائب . وكانت وحوش البرية تخضع لهُ في خدمة الدير وقد كان القديس انطونيوس يشبههُ بسفينة موسوقة جواهر ثمينة غير انها سائرة على البحر لا يعلم هل كانت تبلغ الميناء . فهذا الشاب الجزيل النشاط سقط سقطةً عظمى . وحينما كان يبكي من جرائها مرَّ عليهِ البعض من الرهبان . فطلب منهم ان يقولوا للانبا انطونيوس ان يصلّي لاجلهِ طالبًا لهُ من الله عشرة ايام ليمارس بها افعال التوبة . فلما سمع انطونيوس هذا الخبر انتحب وبكى بكاءً مرًّا ونتف شعر رأسهِ بايديهِ قائلًا : واهًا لقد سقط عمود عظيم في بيعة الله . وبعد ذلك بخمسة ايام توفي الراهب المذكور

وجيرون الاسكندري الذي حكي عنهُ بلاكيدس قد أزهر في الفضيلة والقداسة سنين كثيرة . ثم بعد ذلك سقط ايضًا سقطةً قبيحةً رديئةً . وصار بعدها يطوف منازل الزانيات ويجول في حومات الفساد عيانًا بلا احياء .

وهكذا تولوماوس المصريّ الذي استوطن البراري المقفرة خمسة عشر سنة مواظبًا على الصلاة . ولم يكن يأكل سوى الخبز ولا يشرب غير الماء . صدَّ اخيرًا عن هذه الرياضات وبدل هذه العيشة المقدسة بعيشة اخرى تضادُّها . ثم اننا اذا ما نظرنا الى ما ذكر في الكتب المقدسة . فنجد هناك تغيرات وسقطات اعظم من التي تقدم ذكرها . لانهُ من كان يظن بشاول لما اختارهُ الله وكان بارًّا واكثر صلاحًا من غيرهِ . انهُ يتحوَّل من حال

التواضع والصبر الى حال الكبريا الشيطانية والغضب الشديد على من لم يكن له مثيل في الصلاح والبرّ في جميع الشعب الاسرائيلي . وان سليمان الرجل الجزيل الحكمة والتقوى كان مزمعًا ان يبني هياكل للاصنام (٣ملوك ١١ :٧) . وان رسولًا من جماعة السيد المسيح كان مزمعًا ان يسلمهُ ثم يشنق ذاتهُ آيسًا من خلاصهِ (متى ٢٧ : ٥) . فبعد هذا جميعهِ من عاد يمكنه ان يثق بنفسهِ ولا يُبهت مرتجفًا عند تامله ما يمكن ان يبدو منهُ

الفصل الرابع

في ان تغير الاشياء الزمنية يرينا جليًا بطلانها وفي كم يجب علينا ان نحتقرها

انهُ قد ذكر عن غليميروس ملك البندالة انهُ كان غنيًا مقتدرًا ذا مجدٍ عظيم . الَّا انهُ بعد ان انتصر عليهِ بليساريوس واخذ مملكتهُ واسرهُ واتى بهِ الى القسطنطينية ومثل امام الملك يوستينيانوس وعظماء دولته لم يلح على وجههِ شيءٌ من امارات الحزن اصلًا . بل انما تفوَّه بهذه الحقيقة المقول بها من الحكيم قائلًا . باطلة الاباطيل والاشياء كلها باطلة (جامعة ١ : ٢) . وقد كان قبلًا اظهر من نفسهِ مثل هذه الشجاعة . وذلك حينما هرب الى بلاد نيقوميديا بعد انتصار بليساريوس عليهِ . وصعد الى جبل هناك واختفى في قلعة حصينة . لانهُ اذ حاصرتهُ الاعداء وعزم على تسليم نفسهِ لاشتداد الجوع عليهِ . ارسل الى قائدهم من يطلب لهُ منهُ رغيف خبز واسفنجة وقيثارة . فالرغيف لكي يحفظ بهِ حياتهُ المشرفة على الموت

من الجوع . والاسفنجة لكي يمسح بها دموعه ولا يعود ان يبكي ايضاً على فقد الاشياء العالمية التي تحقق بطلانها والقيثارة لانه لا يكتفي بمسح دموعهِ فقط بل يريد ايضاً ان يبدل العويل بالنشيد . والحزن بالتعزية والغناء فحقاً ان جميع عظايم هذه الحياة باطلة . فهل من عظمة على الارض مثل عظمة مملكة الرومانيين . ومع ذلك فبعد جلوس احدهم على سدة هذه المملكة بزمن يسير كان يموت قتلاً . وكان يجرعهُ كاس المنون من اقاموهُ ملكاً . او اخرون اكثر منهُ اقتداراً وفطنةً ولقد علمنا مما دونهُ التواريخ انهُ من الملك انطونيوس الفيلسوف الى الملك كلوديوس الثاني كان عدد الذين جلسوا على سدة المملكة ثمانية عشر ملكاً الى عشرين ملكاً . وجميعهم ماتوا قتلاً . هذا ما عدا الملوك الدخلاء وقد بلغ عددهم في عهد الملك يوليانوس الى ثلاثين ملكاً دخيلاً . وجميعهم قد قتل بعضهم بعضاً . فحقاً انهُ يتضح لنا بالكفاية من ان سعادة هذه الحياة مزمعةٌ ان تنتهي مع هذه الحياة انها قد تنتهي ايضاً قبل انتهاء هذه الحياة وتنقلب الى شقاء

الفصل الخامس

في دناءة الاشياء الزمنية واختلالها عن النظام
وفي ان الذين يحبونها يعدلون عن محبة العدل

ان ما يبعث على احتقار الاشياء الزمنية ويجعلها حقيقةً بهِ ليس سرعة زوالها وانقلابها فقط بل يدعونا اليهِ امرٌ آخر وهو انها دنية ومضرة

مضادَّة للنظام وهي كذلك لا بالنظر الى ذاتهـا فقط بل بالنظر الى سوء استعمالنا اياها ايضاً. فهذا وذلك يجعلانها اهلاً للاحتقار بهذا المقدار. حتى انهُ كان يجب علينا ان نزدري بها ولو كانت ابدية. قال القديس يوحنا البشير في جليانهِ انهُ رأى وحشاً مرهباً صاعداً من البحر وكان رأسهُ كرأس اسد وجسدهُ كان مشكل الالوان كجلد النمر ورجلاهُ كانتا كرجلي الدب ولهُ سبعة رؤوس وعشرة قرون (رؤيا ١٣: ١). فهو ذا ما يوجد في العالم اعني شهوة اللحم المرموز اليها بالدب الذي هو الوحش الاشد ميلاً الى اللذات اللحمية. وشهوة العين. اي رغبة الغنى المعبر عنها بالنمر الوحش المشكل الالوان. وفخر الحياة. اي رغبة الكرامات المرموز اليها بالاسد وهو اكثر تكبراً من سائر الوحوش. ولما كان العـالم مزدهياً بالخيلاء والكبر. كان لهذا الوحش الرمزي سبعة رؤوس وعشرة قرون. فالسبعة الرؤوس هي رمز الى الرذائل السبع الرأسية والعشرة القرون هي دلالة على ما يتولد منها من الرذائل التي بها يناطح الشر وصايا الله ويقاوم الناموس الالهي. ثم اعتبر السر المرموز اليه بتوزيع اعضاء هذا الوحش. فنقول ان رجليـهِ كرجلي الدب. وجسدهُ كجسد النمر. ورأسهُ كرأس الاسد وذلك لان كل مقاصد ونوايا العالم متأسسة على الشهوة اللحمية. وعلى هذا الاساس قد قام شرّ الغنى وشرّ الفخر العالمي. اللذان ليس هما شيئاً طبيعياً بل شيئاً اقترحهُ فساد البشر. فالغنى جسد العالم. لانهُ على الغنى تسمو الكبريا كانها الرأس. ثم ان الغنى المرموز اليهِ بجسد النمر هو

موضوع بين الكبريا المرموز اليها برأس الاسد وبين الشهوة اللحميـة المرموز اليها بارجل الدب • لان هاتين الرذيلتين تفتقران الى الغنى على حدٍّ سوى • ولذلك كان الغنى جسداً لهذا الوحش لكي يقوم بمـا يتطلَّبهُ هاتان الرذيلتان اعني بهما كبرياء الحياة والشهوة اللحمية • فالعالم حقاً يشبه هذا الوحش الخيالي من حيث ليس فيهِ شيء حقيقي

قال فيلون الفيلسوف اليهودي • ان رأس الامور الغاية التي رسمت الامور لاجلها • فاذ مالت اشياء هذا العالم عن غايتها الوحيدة باستعمالنا اياها سوء الاستعمال • فاعتراها خلل في النظام لما أُريد فيها غايات كثيرة وقصد فيها اغراض خصوصية • ومن ثم لم يكن للوحش المذكور رأس واحد بل رؤوس كثيرة • فان البشر في استعمالهم الاشيـاء الزمنية لا يبتغون غايةً ان يرضوا الله ويعبدوه بل غرضهم منها ومرغوبهم فيهـا ان يرضوا الاهم وشهواتهم • ولما كانت الشهوات متفننة مختلفـة كانت غاياتهم ونياتهم متنوعة مختلفة • وكان هذا البـاعث على تكثير هذه الرؤوس المستغربة • ولعمري لما كان العالم يتبع هذه الغايات المختلفة التي ليست الَّا غايات كاذبة لمباينتها الصواب والطبيعة فوجب ان انحرف عن غايتهِ الحقيقية • ولما كانت كل الاشياء قد خلقت لكي يستخدمها الانسان لتمجيد الله وعبادتهِ كانت اذا حادت عن هذه الغاية تعود باطلة كلها • كذلك الانسان الماهر في رشق السهام فانهُ اذا فقئت عينـاهُ لا تعود تفيدهُ خبرتهُ في تلك الصناعة ولا ينتفع من قوسهِ وسهامهِ اصلاً • قل لي يا صاح

أكثرة الذهب والفضة واللؤلؤ والجواهر الكريمة المرصعة بها اثواب البشر وامتعتهم عائدتهـا لخدمة الله او ينظر فيها اليهـا . فسل عن ذلك القديس الكسيوس هل كان يستعمل ذلك لهذه الغاية لمـا استعمـلهُ . فان كانت اذاً هذه الاشياء لاتستعمل لخدمة الله فتكون جميعها باطلة . اخبرني ايضاً هل كثرة الملذات والولائم والملاهي يقصد بها رضى الله او هل تفيد لذلك . فسل القديس برزدوس هل اتخذها مدرجةً للبلوغ الى هذه الغاية وهل ينظر في الجاه والفخر العالمي والكرامات الارضيـة الى خدمة الله ام هل تجدي لذلك نفعاً . فاستفهم عنهُ القديس اليسبـان ملك الحبشة الذي تنزل عن ملكهِ الارضي ابتغاء ملك السماء . فكل مجدٍ هو باطل وكاذب ان كنا لاندرك بهِ المجد السماوي

ولعمري ان بطلان الاشياء العالمية لا يتضح من انحرافها عن غايتها الواجبة فقط لكنهُ يتبين من جهة اخرى ايضاً . وهي لانها لاتصلح لما يقصدهُ فيها شرّ البشر ولا تفضي بهِ الى غرض ارادهُ منهـا لانهُ ما علّهُ يحمل الانسـان الى الرغبة في الغنى والكرامات التي يفوز بهـا . انهُ لم يقصد في ذلك شيئاً اخر سوى السعادة الارضية والحال انهـا انما تفيد لذلك افادةً دون اليسيرة . بل الاجدر بنا ان نقول انها تكسبهُ عذاباً وشقاءً . فما اسأم الشرائع التي سنهـا العالم مراعاة للسمعـة والشهرة والشرف انها تورد الانسان موارد القلق وتكدر كاس راحتهِ او ترمي بحياتهِ في خطر دائمٍ . فهل من جهل اعظم غبـاوة وحماقة من ان يعدّ خيراً

واعتبارًا في العالم ما من شانهِ ان يكون علة لشرور عديدة متصلة وسريع الزوال والفقد وعسر الردّ ومن شأ فيسع ذرعًا على سلبهِ . واذا فقد مرةً يستحيل استرداده ُ وما اسوأ شريعة العالم هذه . انه ُ اذا ما افترى عليك رجل قبيح الصيت بقولهِ عنك انك كذبت فيكون قد شنع صيتك وثلم عرضك . وان كان المفتري عليك كذابًا . وما شرف الصيت الذي اذا جرح بكلمة سقطت من ذاك لاتقدر ان تعوّضه ُ بكلمة اخرى تقولها انت . او ليس اجتهاد الانسان في اصلاح صيتهِ باظهار الحق عنوةً واغتصابًا ضربًا من الغباوة بل ضربًا من الجنون القطيع . لانه ُ اولًا ان كان الانسان اشدَّ بأسًا وبطشًا فليس لذلك افضل صلاحًا وصدقًا . ثانيًا لان هذا مضرٌّ بالقوم الفضلاء . لانه ُ غالبًا من كان باصغريهِ افضل صلاحًا يكون بالجسد ضعيفًا ذليلًا . واما الغنى فقد صيره ُ شرّ البشر كثير الضرّ قليل النفع لكون الغني لا يقتنع ولا يرتضي ولا يكف ما دام لا يرى في بيتهِ ما شأ . فلا يكفيهِ ان يلبس الفخر كسوة ويتزين بالفخر ملبوس . بل يريد مع ذلك ان تكون حيطان منزلهِ ايضًا مزينة بالفخر زينة . ومن ثم فمن كان اوفر غني واكثر مالًا يكون اشدَّ افتقارًا واعظم احتياجًا . وذلك لانه ُ لايحتاج من حيث اشواق نفسهِ فقط . بل من حيث ضرورة الاشياء التي يمتلكها ايضًا

وقد نرى خللًا عن النظام في الاشياء الخصوصية ايضًا التي هيئات سدًّا لاحتياج البشر . فما كان مفيدًا نافعًا صار مضرًّا مؤلمًا . ومنه ُ المآكل

الذي جُعل حفظاً للحياة . فقد حوَّلتهُ شراهة الانسان الى امرٍ مضرّ بالحياة . وذلك باستنباط انواع مختلفة واشكال متلونة من طبيخ الاطعمة فتولَّد عن ذلك امراض متنوعة كما شهد مار سلوس دوناتوس الطبيب واخبر بويسيوس عن بلاد سكوسيا انهُ لم يدخل اليها حمى وبائية حتى دخلت قبلها الاطعمة اللذيذة المتلونة . فاذا لاحظنا بطلان الاشياء الارضية الذاتي ثم اعتبرنا استعمالنا اياها المنحرف فلا نستطيع ان نحتمل العالم ذلك الوحش الذي لهُ مثل هذه الرؤوس الكثيرة والقرون المضرة . فبمَ يقصدنا بهِ من الجور والظلم وما اكثر الحيل والاضرار والنقمات والاخطار التي تتولَّد منهُ . لان البخل يبلبل كل شيء . والزنى يفسد كل شيء . والفخر العالمي يكدّر نظام كل شيء . فيا ليتنا نرى ما يكمنهُ العالم تحت ظاهرٍ ختال

قد ذكر عن كاهن فاضل ذي غيرة عظيمة على خلاص القريب يدعى فولكوني . انهُ عزم يوماً على ان يجتذب رجل غني الى عبادة الله ويهديهِ الى سواء السبيل . فرام لذلك ان يأكل عند ذلك الغني وظن ذلك فرصةً . فلما دخل المنزل سأله قائلاً ما الذي اعددتهُ لنا اليوم من الطعام . قال الذ ما يوجد في هذه المدينة واثمنهُ . وفي الحال ادخل الكاهن الى المطبخ مع اناس كثيرين . واراهُ المواكيل المختلفة الالوان المعدة للغذاء . واذا بها قد استحالت جميعها الى عقارب وحيات وافاعٍ وغيرها من حشرات الارض . فاندهش الغني من هذا المنظر العجيب المريع وكان ذلك وسيلةً لان يسرع ويهتدي لانهُ

تحقق ان الانهماك في الملذات مضرٌّ ضرر الاغتذاء بدبابات سامّةً . وان لذة الحنجرة قد ابادت من الناس اكثر مما اباد منهم الاسد والوحوش الضارية

الفصل السادس

في كم تكون الاشياء الزمنية يسيرة قصيرة

فهات الان نعتبر ان الاشياء العالمية ليست باطلة فقط بل يسيرة وجيزة ايضاً . ولنشرعنَّ باعتبار الخيرات الارضية التي تظهر لنا اوفر عظمةً وفخراً . اعني بها حسن الصيت وشهرة الاسم . فان بني البشر يودّون لو يذاع صيتهم في العالم ويشتهر ذكرهم ما بين الملاء . ولكن تعلم ما الذي يكون من امر ذلك . فها هوذا الوف وربوات من الناس لا يعرفون من هو ملك فرنسا او ملك النمسا او ملك اسبانيا . فقبل ولادتك عبرت اعوام كثيرة لم يعرفك احد فيها . واذا قضيت اجلك تعبر ايضاً اعوامُ اخرى ابدية تكون فيها نسياً منسياً فقليلون هم الذين يعرفونك وانت حيٌّ واكثرهم اشرار . فلمَ اذاً تفرغ كل جهدك وجدك وتتعب بدنك لكي تفوز بمثل ذلك مما هو اهل بالاحتقار لدناءتهِ . وماذا اقول عن جهل من يزهون بالعجب والكبر . فيتخذون لنفوسهم اسماء شريفة لنشر صيتهم في العالم . اني لا اعتقد انهُ بين علماء العالم الماهرين قليلون يعرفون الملك فكتاديوراجيو . مع ان هذا الملك كان يظنُّ ان العالم جميعهُ يعرفهُ . وهكذا كان يتوهم أهل ملكهِ . ولهذا كانوا يدعونهُ مولى الملوك . ومن جملة افتخاراتهِ كان اذا ابرز امراً او كتب رسالة يفتتح الكلام

فيها هكذا • رب الحظ الحسن والسعادة • ملك الاقاليم المتسعة • واعظم الملوك والههم • ومولى الفوارس المظفر بكل الذين يراهم والحفيظ على كل من يظفر بهم • المرهوب في اربعة اقطار العالم • مبيد مواكب آل اسماعيل • فبهذه الاسماء المفخمة كان يفتخر فنكتـادينوراجيو • ولكن من ذا الذي كان يعرف اسمهُ وانه كان ملك نارسينيا ان لم يخبرهُ احد بذلك فـكما ان هذا الملك وغيرهُ من الملوك المقتدرين هم خاملو الذكر في هذه البلاد • هكذا هم بالحري غير معروفين من سكان البلدان البعيدة

ثم اننا اذا تاملنـا فيهم عدم موافقة الاسم المسمَّى لوجدنا كل ذلك باطلًا • لانه كم من اناس حقيرين ادنياء نفسهم مستغرقة في لجة الخطية التي هي الدناءة القصوى • قد اتخذوا لانفسهم اسماء شريفة مفخمة • وما من احدٍ يمكن ان يكون اكثر مما هو في عيني الله • والله لا يعتبر احدًا من حيث شرف نسلهِ • بل من حيث شرف ايمانهِ الكاثوليكي • لا لانهُ ولد في بلاط ملوكيّ بل لانهُ ولد بالمـاء والروح بسر الاعتماد المقدس • فماذا تنفع الولادة من حسب شريف واين هي من الولادة من جنب يسوع • قد ذكر عن البتول سانسيا كارتيليا الفاضلة • انها كل مرة كانت تحضر عماد طفل • كانت ترى سيدنا يسوع المسيح على صليبهِ والطفـل يخرج من جنبهِ الاقدس • وكان ذلك دليلًا على ان هذا المولد الجديد نالهُ باستحقاق دم السيد المسيح • وانهُ انما اعتبارنا منوطٌ عند الله بشرف هذا الدم الالهي • لا بشرف دم اجدادنا الذي هو دم اناس خطاة • فالمولد الاول

يلحق بنا الهوان . والمولد الثاني يكسبنا الشرف . لان المولد الاول هو مولد الخطيئة المميت . اما المولد الثاني فهو مولد القداسة الروحي المانح الحياة . فبالمولد الاول نصير ابناء البشر . وبالمولد الثاني نصير ابناء الله . واخيراً اقول انه بميلاد المعمودية نصير ورثة الملكوت السماوي ونحوز النعمة الالهية وعربون المجد الابدي . فما اعظم حماقة الانسان الذي يفتخر بمولده البشري الذي يصير به خاطئاً اكثر من افتخاره بمولده الالهي الذي يصيره قديساً . فحقاً ان امجاد العالم هي باطلة . ولهذا قال ماتاتيا المكابي لبنيه . ان كل مجد بني البشر هو زبل ودود (١ و ٢ مكابيين ٢ : ٦٢) . واشعيا شبه طالبي هذا المجد الباطل بالعنكبوت الذي ينسج لنفسه نسجاً من احشائه ليصيد بها الذباب (اشعيا ٥٩ : ٥) . وهذا المجد الباطل كان سبباً لهلاك كثيرين وان كان دنياً خسيساً . فان كان داود الملك والنبي لعن جبل جلبوع لانه قتل عليه شاول ويوناتان . فكم بالحري وباولى حجة يجب ان يُلعن جبل الكرامات العالمية التي منها وبسببها طُرحت اناس لا يحصى عددهم في لجة جهنم

فلنعتبرنَّ الان ما هو الغنى وبمَ يتنعم اصحاب الغنى . فالقديس غريغوريوس النزينزي قد شرف الغنى اذ دعاه زبلاً ثميناً . وقد سماه انطونيوس قيصر الفيلسوف حماة الارض وزبلها . اما الحرير الابريسم فهو تفل الدود والزباد هو عرق السنانير والعنبر فضلات تخرج على جلد حوت بحري . والمسك دم حيوان منتن . ثم ما هي المدن والاقاليم

فانظر اليها من فلك القمر . فمن هناك تحكم مع لوكوسيانا المعلم الفلكي ان ممالك اليونانيين كلها توازي عرض اربع اصابع . وان كرة الارض جميعها هي شيء حقير جدًّا . فان كان هيرودس الملك اعطى نصف ملكهِ اجرة لرقص صبية فماذا يكون ثمن ملكهِ كلهُ وقيمتهُ . ان هامان وزير احشورش الملك كان على جانب عظيم من الثروة والغنى . وقد اعترف انهُ لا يعتبرها ولا يعدُّها خيرًا حين يرى مردخاي اليهودي لا يكرمهُ ولا يبادرهُ بالسلام

ثم قل لي ما هي لذات الحنجرة . فان هي الَّا اشياء حقيرة من ذاتها ومستكرهة . لعمري انهُ اذا ما لحظنا ما هي الدجاجة المشوق الى اكلها لوجدنا فيها ما يسبب لنا كراهية واستنكافًا . لانهُ لو وضع احد في الطاجن الذي يطبخ فيهِ الغذأ دودًا وزبلًا . لقد كان اشمأزمنهُ الجميع وابوا ان يتناولوا منهُ اكلًا . والحال ان الدجاجة ليست الَّا اناء مملوًّا دودًا وزبلًا وغير ذلك مما تعيفهُ النفس كالمادة التي تخرج من الانف واقرف منها . فان كان مجرد تفل الطباخ على الطعام يكره المعدة على الاستفراغ يذهب بشهوة الاكل بالكلية فكيف لا يشمأز الانسان من مضغ ما يحمل في بطنه من مثل هذه الاشياء المستكرهة . وقل مثل ذلك عن اكل لحم الخنزير . اما الخبز والحشيش والماء ما الف النساك ان يقتاتوا بهِ فلا يوجد انقى ولا اطهر منهُ

كذلك لذة الحواس القصيرة . ففضلًا عن انها اقصر من جميع اللذات

فهي ممزوجة بعلقم عذابات كثيرة تتقدمها وترافقهـا وتتبعها . فكم من الخوف والضيق والخطر يكابد الزاني قبل ان يبلغ الى سوء مأربهِ الدنس وكم مرة يرتجف قلبهُ وينقبض في حين اتمـام شهوتهِ . وما أشدَّ النكال الذي تستحيل اليهِ اللذة الخيالية بعد ذلك . ثم ما اكثر وما امرَّ الامراض والاوجاع والميتات الناتجة من لذَّة وقتية

فمن أجل هذه الاشياء الوجيزة الدنية نخسر أعظم الخيرات اعني الخيرات الابدية . ونحتقر الناموس الالهي . ونهين مخلصنا الذي يرغب ان يجزينا بحسناتهِ السماوية الالهية الجسيمة اذا رذلنا حبًّا بهِ تعالى هذه اللذات الارضية الدنية الوجيزة . وقد كان يجب على الذين لا يرفضونها لاجل خساستهـا ان يرذلوها ويدوسوها تحت ارجلهم لاجل الاجر والثواب المعدّ منهُ تعالى للذين يميتون حواسهم وينبذون هذه اللذة لاجلهِ عزَّ وجلَّ . ويتقرَّر ذلك ممـا رواهُ غليكاس المؤرخ . وهو ان ناسكاً كان في البرية من اربعين سنة يجاهد على خلاص نفسهِ ويمارس رياضات دعوتهِ بنشاط عظيم . فاشتهى ان يعرف هل كان يوجد على الارض من يباريهِ او يجازيهِ ثوابًا واستحقاقًا . فشرع يطلب الى الله ان يُعلن لهُ حقيقة هذا الامر . فرضي الله عنهُ واستجـاب طلبتـهُ . واوحى اليهِ بان تاودوسيوس الكـبير ملك الروم هو مساوٍ لهُ في الثواب . لانهُ وان ملكًا فليس باقل منهُ اتضاعًا واماتة . فنهض الناسك بعد هذا الجواب وهم بالهام ولما كان مشتهرًا بالقداسة وكان الملك يكرّم جدًّا أهل النسك

والعبادة أَذنهُ بسهولة ان يدخل عليهِ يسألهُ عن رياضاتهِ المقدسة . غير ان الملك لم يكشفهُ الَّا ببعض فضائل مألوفة منها صدقات وافرة ولبس المسح وصيامات شديدة وحفظ عفة الزيجة بالتدقيق مع امرأتهِ الملكة وقصدهُ شعبهُ وأهل مملكتهِ بالعدل والانصاف . فعجب الناسك من ذلك جدًّا . ولاسيما إذ كان ملكًا متسلطًا . الَّا انهُ رأى انهُ قد أنجز هذه كلها باعظم كمال إذ قد هجر العالم وكفر بكل شيء حبًّا بالسيد المسيح . وان هذا لأفضل من توزيع الصدقات . ولم يعرف امرأةً في كل زمن حياتهِ وهذا شيء أفضل من حفظ عفة الزيجة . وانهُ لم يضرَّ القريب ابدًا وهذا لاكثر كمالًا من صد الناس عن مضرَّة القريب . وما عدا ذلك فقد كان لبسهُ المسح وصومهُ متصلًا ولم يذق طعامًا لذيذًا فلذلك ألحَّ الناسك بالسؤَال متوسلًا الى الملك ان لايكتمهُ أمرًا من شانهِ . وقال لهُ إنَّ الله يريد ذلك ومن قبلهِ أنا وافيت اليك . فحينئذٍ قال لهُ الملك اعلم ايها الاب القديس ان كل مرة تصير فرج ومتنزهات وسباق خيل وما يضاهي ذلك من الملاهي الملوكية . فاقف عنها بعيدًا لئلَّا تتلذذ حواسي بالنظر اليها. واذا حدث قريبًا مني ما يميل بقلبي الى مشاهدتهِ . فاصرف نظري عنهُ مميتًا بذلك نفسي . ولاتزال عيناي مفتوحتين فيكون حالي كحال الاعمى الذي لايبصر شيئًا . فبهت الناسك متعجبًا من اماتة هذا الملك المعظم. وعلم حينئذٍ ان القضيب الملوكيّ والارجوان لايمنعان الملك عن اكتساب استحقاقات عظيمة عند الله . وذلك باماتة نفسهِ وحبسها

عن طلب ملذات حواسهِ • ثم أعقب الملك قوله ُ بقولهِ إعلم ايها الاب
اني اربح معاشي بتعب يدي • لاني اكتب كتباً بخط حسن وابيعها
وهكذا أحصل بعرقي ما يسدُّ عوزي وانال معيشتي • فانذهل الناسك
من مثل هذا الفقر بين الكنوز ومن مثل هذا الامساك والقنوع بين
اللذات • ثم تهلل بنفسهِ واعتقد متحققاً ان هذا الملك المعظم قد ربح هذه
الاستحقاقات السامية بحبس نفسهِ عن لذات الحنجرة والنظر • فهذه
هي حال شقاء اللذات الارضية • فانها وإِن كانت وجيزة دنية فان
خُلّت لنا اعاقتنا عن اكتساب استحقاقات عظيمة وخيرات جسيمة •
وإن حُرّمت علينا انتهت بنا الى اضرار جزيلة وشرور لا توصف

فينتج مما تقرر انه ُ لا ينبغي أن نستعظم عظمة عالمية ولا نبتغي لذَّة
أرضية • وهذا ما قاله ُ القديس سبيريدون لتلميذهِ حينما دخل معه ُ الى
بلاط الملك • وكان التلميذ قليل الخبرة وكان ياخذ منه ُ العجب ويذهب
بعقلهِ كل ما كان يبصره ُ من عظمة البلاط ومما فيهِ من الزينة الفاخرة •
وكان يندهش خاصةً من الملك الجالس على سدتهِ الملوكية بعزّ لا
يوصف • فاذ اطلع القديس على ضلال تلميذهِ قصد ان يرده ُ عنه ُ فسأله ُ
قائلاً • أَرني من هو الملك لاني لست اميزه ُ من غيرهِ ولا ادري هل
اعرفه ُ حقاً • فاما التلميذ الذي لم يعرف سبب هذا السؤال مد يده ُ واراه ُ
بها الملك • فحينئذٍ قال له ُ القديس وما له ُ من استحقاق الفضل والايثار
على غيرهِ غير ملابسهِ الفاخرة فماذا يفيده ُ ان يكون مترديًا احسن من

بقية الناس . أليس مزمعًا ان يموت كاحد المساكين الخاملي الذكر أليس يدنس في قلب الارض كمثل جميع الانام ألا يكره على الوقوف امام منبر الديان الرهيب نظير الجميع . فلمَ تعتبر الاشياء الزائلة وتنزلها منزلة ابدية

الفصل السابع

في عظم شقاء الحياة الزمنية

اذا اعتبرنا الان ماهية الحياة الزمنية يداخلنا عظيم العجب والانذهال من ان مدة قصيرة من الزمن تحوى بلايا عديدة جدًا . قال فالريس الفيلسوف احد العلماء الاقدمين . انهُ لو يعرف احد قبل مولدهِ ما سوف يرد عليهِ من البلايا لم يرتضِ بالولود . ولما سئل سيلانوس ما هي السعادة العظمى قال : انها عدم الاتلاد او الرجوع الى العدم بعد الاتلاد حالًا . وقال الحكيم جميع ايام الانسان مملوءة اوجاعًا وشقاءً . فلا يستريح عقله ُولا يهداء قلبهُ ليلًا ولا نهارًا . ولعمري انهُ في تعداد بلايا هذه الحياة لا يجب ان نقتصر على الامراض فقط بل يجب ان نذكر ادويتها وعلاجاتها ايضًا لان بعضًا من الامراض الاعتيادية تداوي بالكيّ وقطع الاعضاء او نشرها او بشق الجوف . وعدا هذا وهذا فان المريض يُنهى عن المأكل والمشرب . واليهِ اشار كرنيليوس سالوس اذ قال : ان بعضًا بلُوا من امراضهم الميتة بامتناعهم عن المأكل والمشرب فعدوا يتضوَّرون من الجوع حتى انهم اكلوا زبلهم وشربوا بولهم . وقد ذكر عن

الباليولوغوس الثاني ملك القسطنطينية انهُ ابتلاهُ مرض المهُ بشديد الاوجاع مدة سنة كاملة لم تجد له الاطباءُ بها علاجاً يشفيهِ من مرضهِ. فاجمعوا على ان الغيظ يشفيهِ. فلما سمعت ذلك الملكة امرأته وكانت تحبهُ جداً وترغب شفاءهُ. حركت جميع الماثلين لديهِ وجميع الخدام على مخالفتهِ ومضادتهِ وبذلت هي جهدها في ذلك فلم تجد ضرباً من الازدراء والافتراء الّا جاءته بهِ حتى كاد يموت حزناً ويتميز غيظاً. فان كانت علاجات الامراض هذا اعظم مرارتها فما ظنك في الامراض نفسها

خبرونا عن رجل اسمهُ انجل بوليسيانو انهُ اعتراهُ مرضٌ مؤلم جداً اذاقهُ مرَّ العذاب حتى انهُ كان يضرب برأسهِ على الحائط من شدة المهِ. وميسيناس الشريف القدر بين الرومانيين الاقدمين منعهُ مرضهُ العضال عن لذة الوسن مدة سنة كاملة. وقد كان مرض انتيوخوس الملك سمجاً ومستكرهاً جداً حتى انهُ لم يعد احد من عسكرهِ يحتمل نتانة جسدهِ المتماسي الذي كان ياكلهُ الدود وهو حيّ

وماذا أقول عن الامراض الوبآئية التي اهلكت سكان المدن واقفرت الاقاليم. فقد ذكر كثيرون من المؤرخين انهُ حدث في القسطنطينية طاعون كان يجنُّ بهِ المطعونون ويداخلهم منهُ خوفٌ هذا حدُّهُ حتى انهم كانوا يموتون من مجرد وهمهم ان جيرانهم يريدون قتلهم

وقد اخبر توسيديدوس المؤرخ اليوناني انهُ في عصرهِ حدث في

بلاد الروم وباء مريع اهلك اناساً لايحصى عددهم ولم يجد احد لهُ دواء.
واغرب من ذلك ان الذي كان يُشفى منه كان يعدم حاسة الذاكرة تماماً
فيعود لايعرف والديهِ ولا اولادهُ ولااقرباءهُ. وقد ذكر ايضاً ان جنود
افيديوس كاسيوس اذ كانوا في سلوكيا مدينة مملكة بابل دخلوا هيكل
ابولو فوجدوا فيهِ صندوقاً مقفولاً ففتحوهُ طمعاً بايجاد مالٍ ياخذونهُ. فما
فتحوهُ إلّا فاحت منهُ رائحة منتنة افسدت بلاد بابل كلها وانتقل الفساد
منها الى بلاد الروم ومن بلاد الروم الى رومة ففتك بسكان هذه
الممالك واذاقهم من الوباء ما لايطاق ولم ينجُ منهم سوى الثلث

واذا انتقلنا الى الازمنة القريبة منا فنجد مثل التي ذكرنا من
البلايا والوباء لان عدل الله لم يزل ينتقم كما ان البشر لم يبرحوا يخطأون.
لقد ذكر انهُ حدث في بلاد النمسا مرض وبائي كان يميت من يدركهُ
بمدة اربع وعشرين ساعة وذلك بخروج عرق مسموم من جسدهِ. وقد
مات منهُ اكثر سكان اقاليم هذه المملكة حتى انهُ في بلاد الانكليز
كانت الطيور تباين اوكارها وفراخها. والوحوش تغادر مغايرها. والحيات
والحشرات كانت تخرج من قلب الارض لعجزها عن احتمال فسادها
ونتانتها. وفي سنة الف وخمسمائة وست وثلاثين للمسيح حدث طاعون
عظيم في اقليم مرسيليا واستقام تسعة اشهر حتى امتلأت القبور من الموتى
واكثر المطعونين كانوا يستجنون في اليوم الثاني. فمنهم من كانوا يطرحون
انفسهم في الابار ومنهم من كانوا يرمون بذواتهم من أعلى منازلهم.

وقوم كان يخرج الدم من انافهم مدرارًا وكانوا اذا قطعوهُ عقبهُ الموت. واذ كان لا ينجو احدٌ ممَّن ادركهم هذا المرض فكان من يشعر بوروده يتكفَّن بالاكفان لعلمهِ اليقيني بانهُ سوف يموت لا محالة. وقد كان عدد الذين ماتوا على هذه الحالة ما ينيف على عشرت الاف نفس. فتلك حال البشر وتلك هي بلاياهم

ومثل ذلك يحيق بحياة الانسان من البلايا ومنها الجوع. روى المؤَرخون انهُ لما حاصر الاريكوس مدينة رومة فاشتدَّت على اهلها المجاعة اضطروا الى ان ياكلوا الخيل والكلاب والقطاط والفيران بل لحم البشر ايضًا. واذ حاصر سيبيون مدينة نومانتا في بلد افريقيا بارح النومانتيون المدينة من شدة الجوع وقاموا يرصدون الرومانيين ويصطادونهم كوحوش الصيد ويأكلونهم سدًّا لجوعهم. وقد ذكر في السفر الرابع من اسفار الملوك انهُ على زمن اليشع النبي حدثت مجاعة عظيمة في السامرة حتى كان رأس الحمار يباع بثمانين درهمًا من الفضة وربع المكيال من زبل الحمام بخمسة دراهم وقد اضطرهم الجوع الى افتراس بعضهم. قيل ان امرأَةً من نساء المدينة حضرت امام الملك شاكيةً اليهِ جارتها واخبرتهُ بانها لم تقم بوعدها لها. وذلك لانهما لشدَّة جوعهما تعاهدتا على اكل ولديهما. فبعد ان ذبحت الشاكية ابنها آكلتها اياهُ فأَبت تلك ان تذبح ابنها واخفتهُ ولم تقم بوعدها

ومثلهُ ذكر يوسيفوس المؤَرخ اليهودي في الجزء السابع من تواريخهِ بل

جاء بما هو اشدّ قساوةً منه قال انهُ اذ حاصر الرومانيين اورشليم وضايقوها جدًّا كان في تلك المدينة امرأة ذات حسب ونسب تتقلَّب في مال جزيل . فلما اشتدت الاراجيف اخفت جزءًا من اموالها الغزيرة وكانت تقتر على نفسها وتعيش بامساك عظيم . اما الجنود الذين في المدينة فلعلمهم بغناها اكلوا وشربوا اموالها شيئًا شيئًا . فلما لم يبقَ لها منهُ شيء فصارت في غاية الضيق والشقاء وسأت حالها حتى كانت تلتمس اليسير مما يسدّ جوعها فلم تصل اليهِ فالتفتت الى طفل لها كانت ترضعهُ وشرعت تخاطبهُ بنحيب وعويل قائلةً : يا ايها الابن الشقيُّ انت من أمٍّ أشقى منك . ماذا أعمل لك وكيف استطيع ان احفظ حياتك . لقد نفذ كل ما كان لي من الزاد والاموال فان ابقيتك حيًّا استأسرك الرومان . فكان الاولى بك ان تقوم من نفسك باود والدتك وتقيتها وتدرأ عنها قساوة الجنود الذين اختلسوا كل ما لها . وتكون للاجيال الآتية مثالًا يميل بالقلوب الى التراأف والرحمة . قالت هذا ولوقتها ذبحت ابنها وشقتهُ شطرين فشوت احدهما على النار وخبأت الآخر ليوم الحوج . وفي اثناء ذلك دخل الجنود بيتها فلما اشتموا رائحة اللحم المشوي توعدوا المرأة بالموت او تحضر لهم مما شوت فاما هي فاذ كانت بعد قتلها ابنها قد صغرت نفسها واستحوذ على قلبها الرجز واليأس ولم تعد تبتغي على الارض شيئًا سوى ان ترافقهُ بالموت نزعت عنها عذار الحيا والخوف وقالت للجنود . انصتوا يا أصدقاءي واعلموا اني عاملتكم معاملة أخت لاخوتها لاني خصصتكم

بنصيبٍ مما كان لي . ثم احضرت لهم فضلات ابنها المشوي . فلما شاهد الجنود هذا المنظر المشؤوم ارتاعوا خوفًا وبهتوا متحيرين . ولما ينبسوا بكلمة لما وقر فيهم من الدهشة والارتعاش ولما كانت تلك الامّ الشقيـة قد خالطها خمار الرجز المفرط صرخت اليهم . ما بالكم تخافون ايها الشجعان الاباسل أليس ما أحضر لكم ثمرة احشـائي أليس ابني أليس ما حلَّ بهِ من المنية مني لا من الغير . فلمَ لا تاكلون فنفر الجنود وولوا مدبرين لا يطيقون هذا المنظر المرعب وتركوا الامّ وما بقي من جثـة ابنها وكان ذلك كل ما بقي لها من اموالها الغزيرة

اما البلايا والمصائب التي تحدث من قبـل الحروب فهي اعظم واكثر جدًا مما تقدَّم . فما ظنك مثلًا في ما حدث في بلاد النمسـا على زماننا . فما اكثر الشرور التي حلَّت بها وكانت قد سببتها حرب السويديين الاراتقة اللوترانيين فلم يرَ في جيوش البرابرة المظفرين قسـاوة نظير قساوتهم او توحش مثل الذي ابدوهُ . فضلًا عمَّا احرقوا من الاراضي في اقليم بافاريا . كانوا يشدُّون رؤوس البعض بالحبال الى ان يراق الدم وتنكسر جماجمهم ويخرج مخهم . واخرون كانوا يربطون ايديهم وارجلهم ويلقونهم للقطاط والكلاب الكلبى لتمزّق احشاءهم . وقوم كانوا يعلقونهم في الفضـاء بايديهم ويضرمون نارًا من تحتهم . وغيرهم كانوا يقطعون آذانهم ومناخيرهم . والبعض كانوا يملأون بطونهم من الماء ثم يعصرونهم الى ان يستفرغوهُ من افواههم وانوفهم . واخرون كانوا يكشطون

جلودهم أحياء وغيرهم يقطعونهم أرباً وكانوا يفتضون الابكار سفاحاً ثم يثقبون ساعديهنَّ . حتى ذهب التوحش ببعض الجنود الى ان يغتذوا من لحوم الاطفال الذين كانوا يشقونهم شطرين . اما الذين اسروهم في الحرب من الجنود الكاثوليكيين فلم يكتفوا بان ربطوهم بايديهم بل كانوا يثقبون ساعديهم ويدخلون بها حبالاً ويعلقون الحبال باذناب الخيل ويسحبونهم على الارض ولم يقفوا عند ذلك بل كانوا يشقون بطونهم ايضاً ويملأونها شعيراً ويجعلونها معالف للدواب

هذا واجترئ على القول بان البلايا التي تصدر من قبل الام الانسان وامياله المنحرفة أعظم من البلايا المتقدم ذكرها التي تصدر من قبل الطاعون والجوع والحرب . ولهذا قال احد المعلمين في تفسير انجيل القديس متى . ان الانسان أعظم الشرور لان كل وحش له شرٌّ واحد مختصّ بهِ . اما الانسان فهو مجموع الشرور كلها . وما يقاسيهِ الانسان من قبل الانسان نفسهِ فلا يسهل على التصديق . فما اكثر ما احتملهُ داود النبي بين نفي وجوع وحرب وخطر بعث عليهِ كامن حسد شاول . وما أعظم ما قاسى ايليا النبي من غضب ازبل . ويعجز الطاعون عن أن يعجل بالموت على نابوت الازراعيلي اكثر مما عجَّل عليهِ بخل آخاب الملك وما من وباء أباد من البشر ما أبادهُ تكبر هيرودس من الاطفال . فما اكثر انواع العذابات التي اخترعها عقل البشر وبعث بهِ عليهِ الآلام والشهوات . انهُ من زمن مديد استنبط الناس خمسمائة نوع من

السمّ والان قد تضاعفت انواعهُ جدًّا . لان المتقدمين كانوا من المعارف والاختراعات بمراحل عن جيلنا هذا فليس للانسان من سبيل يحترز بهِ من السمّ وقد تيسر لعدوك ان يبث فيك سمًّا من يدهِ اذا صافحتها سلامًا بل اذا سمعته مُخاطبًا . وقد علمتنا موارد الاختبار أن يسمّ امرؤ بالمس وبالنظر وبالشم وبذوق ادنى شيء

بل ما من شيء يأتي الانسان ببلايا وشرورٍ أعظم مما يستجلب الانسان على ذاتهِ من قبل الامهِ . ان المتكبر يتألم من كرامة الغير والحسود يذوب عند مشاهدتهِ سعادة الناس . والبخيل يفقد الراحة اذا فقد ما لا يحتاجهُ . والغضوب يُجنّ من شدة رجزهِ لامرٍ لا يجديهِ نفعًا ولا ضررًا . فما اكثر الذين خسروا أموالهم وراحتهم وحياتهم الزمنية والابدية لانهم لم يذلّوا الامهم ولم يقهروا نفوسهم كما جرى لهامان وزير احشورش الملك الذي لسبب انهُ رام اكرامًا ومجدًا اكثر مما يليق بهِ خسر كل مالهِ وكرامتهِ وحياتهِ ومات مشنوقًا . وابيشالوم اذ حملتهُ الكبريا على اختلاس ملك ابيهِ داود هلك معلقًا بشعر رأسهِ على شجرة والسهام مُنجّن في قلبهِ . وامنون ابن الملك والنبي داود انقاد الى شهوة لحمية فافضى بهِ ذلك الى المنون

وقد ذكر عن فنسيسلاوس ملك بوهميا انهُ استشاط غيظًا على احد شرفاء بلاطهِ لانهُ لم يخبرهُ بسجس صار في مدينة براغا . ولافراط غيظهِ سلّ سيفًا ووثب عليهِ ليقتلهُ فامسكهُ الحاضرون ولم يمكنوهُ

من قصدهِ فاختنق من شدة حصرهِ وسقط على الارض ميتاً. وهكذا نرفا الملك مات من حنقهِ . وذكر بلينيوس عن ديودورس انهُ مات موت الفجاءَة من شدة الخجل الذي استولى عليهِ اذ لم يستطع على ان يحسن الاجابة على بعض الاسئلة والمشاكل التي اقترحها عليهِ احد الفلاسفة . وكم من اناسٍ ماتوا بغتةً لاجل الم الخوف او الحزن او من قبل الم الفرح أو العشق . وهاك بشانهِ خبراً يرثى لهُ

ان رجلاً متزوجاً بامرأة أُولع بامرأةٍ اجنبية وزنى بها . فصدر من قبلهما شكوك في المدينة . فلذلك حرمهما الاسقف . فتابت المرأة وارتدت عن غيها . واما الرجل الذي كانت الشهوة اعمت عقلهُ وملكت قلبهُ لم يتب بل ثبت على شرهِ . فزار المرأة سرًّا في ذات يوم . فلم تقبلهُ بمحبة بل قابلتهُ بوجهٍ عبوس وكلمتهُ كلاماً مرًّا . وامرتهُ بالخروج من بيتها حالاً وبالاَّ يعود اليها ابدًا . فلما رأى الرجل ما بدأ منها من نكران المحبة وعدم الوفاء اخذ يعاتبها ويلاطفها بصوت اسيف بقلب مميز من الم الشهوة قائلاً : أهكذا تكافئين محبتي بنكران الجميل ونسيان الحب القديم . واذ كان يخاطبها بمثل ذلك وقلبهُ يتفطر من الغم وألم الحب رفع الحاظهُ الى العلا كانهُ يريد ان يشكو ما بهِ من الغرام والضيق فسقط في ساعتهِ على الارض ميتاً وهلك بخطيئتهِ وبئس الهلاك

فحقاً ان أعظم بلايا الانسان هي التي يجلبها على نفسهِ من قبل امياله والامهِ والى هذا يشير الحكيم بقولهِ : اني مدحت الموتى اكثر

من الاحياء ووجدت من لم يولد ولم يرَ الشرور التي تحت الشمس اسعد حالاً من الاثنين (جامعة ٤ : ٢) . ولهذا لما تامل تيمون فيلسوف مدينة اثينا تفاقم شرور الناس الناتجة من الاميال المنحرفة المتجاوزة حدود الصواب . أوغر قلبهُ بغضاً لهم وصار لهم عدوًّا مميتاً واختار السكنى مع الوحوش في البراري افضل من السكنى مع البشر في المدن ولم يدع احداً يفتقدهُ غير السيبياد لعلمهِ بانهُ مزمع ان يحارب اهل اثينا حرباً عواناً . ثم نصب بين اشجار بستانهِ خشبات عالية يشنق فيها الناس الاشرار الانذال ذواتهم . واذ اراد ان يوسع دارهُ ودعت الضرورة الى ان يقلع هذه الخشبات ذهب الى اثينا واخذ ينادي في شوارع المدينة بسماع الشعب قائلاً : اعلموا يا سكان اثينا اني لضرورة ما قد عزمت على اقتلاع الاخشاب التي نصبتها لشنق الناس فمن منكم حلَّت التوبة والعبادة في قلبهِ يريد ان يشنق نفسهُ فليسرع في انجاز ما عزم عليهِ والاَّ فاتهُ الزمن . ولما فرغ من هذه المناداة عاد حالاً الى منزلهِ ولما آنت ساعة موتهِ رام ان يري الناس بغضهُ لهم بعد موتهِ ايضاً . فاوصى بالاَّ يدفنوهُ في الارض لانهُ مسكن البشر العامّ بعد موتهم بل على شاطئ البحر

فحقاً ان هذا الفيلسوف الوثني لعدم نور الايمان لم يفرق بين شرّ البشر وطبع البشر . ولهذا حاد عن الصواب ببغضهِ طبيعة البشر . الاَّ انهُ ابان لنا بفعلهِ كم تكون اميال الانسان منحرفة عن الصواب وكم تكون اهلاً لان تبغض وتمقت . على انهُ يجب علينا حقاً ان نبغض هذا العالم

الذي لا يرتشد بحسب انذار العقل بل بحسب مرام شهواتهِ العمياء. ولهذا وان لم يجز للمؤمنين ان يشتهوا مع الفيلسوف المتقدم ذكرهُ ان يروا الناس مشنوقين فيجب عليهم ان يشتهوا استئصال شأفة الامم الردية

الفصل الثامن

في ان الانسان دني لكونهِ زمنياً

ان تكلمنا عن الانسان لا بالنظر الى نقائصهِ بل بالنظر الى طبيعتهِ فقط فما هو. ما الانسان وهو زمني . قال سينيكا الفيلسوف : الانسان اناء قابل الانكسار سريع العطب . وقد احسن البابا اينوشنسيوس في كتابه الاول عن احتقار العالم اذ قال : اني تاملت في شان الانسان وانا متأسف باكٍ لارى مما جُبل وما يصنع الان وما سوف يكون فيما بعد . فاذا هو قد أُخذ من الارض وحُبل بهِ بالخطيئة ووُلد للتعب والعذاب . ويفعل ما لا يجوز ولا يليق ولا يفيد . فتراهُ يعمل سوءًا وقبحًا ويعتمد الباطل وهو سوف يكون ما كلًا للدود وطعامًا للنار ومادة للفساد . (اه)

ولعمري ليس الانسان شيئًا حقيرًا من حيث جسدهِ فقط حيًا كان او ميتًا بل من حيث نفسهِ ايضًا. لانهُ وان كان النفس جوهرًا شريفًا جدًا فمن حيث ان اتحادها مع الجسد يخضعها للرذائل فتصبح مهانة ومستكرهة اكثر من الجسد نفسهِ . وليس فقط حين تكون ميتة بالخطيئة المميتة وتكون في اعين الملئكة اكثر فسادًا ونتانةً من

جثة نجسوسة في التراب من ثمانية ايام . لان جثة كذا ان كانت مملوءة دودًا فهذه النفس مسكونة من الشياطين . بل حال هذه النفس انتن واكره من حال الجثة المذكورة حينما تكون حية ايضًا متنزهة عن الخطيئة المميتة لان الخطايا العرضية والنقائص التي تتدنس بها وان كانت لاتميتها فانها تصيرها اكثر ضعفًا وكراهية من جثة . وبهذا الصدد قد ذكر عن المرأة الجزيلة الفضل سانسيا كاريليا عروس السيد المسيح انها بعد ارتقائها الى كمال عجيب طلبت الى عروسها الالهي ان يريها نفسها وكان قصدها بذلك ان تحركها مشاهدتها سماجة ذنوبها أشدّ حثًا على مقتها . فاجاب رب المجد الى طلبتها . فاتفق يومًا انها شاهدت شيخًا ناسكًا مجتازًا امام باب بيتها . فسألتهُ قائلةً ما الذي تطلبهُ يا ايها الاب المكرم . فاجابها الشيخ ارفعي طرف رداي فتعلمي ما أريد . فاجابتهُ سمعًا وطاعةً وكشفت طرف رداه فرأت طفلةً شنيعة المنظر ووجهها مغطى بكثرة الذباب والدبابير فحملت الطفلة على ذراعيها وقالت ما هذه يا ابتاه . فاجابها الشيخ انكِ قد سألتِ الله ان يريكِ نفسكِ فانظري الان صورتها في هذه الطفلة فهذه حال نفسكِ قال هذا وغاب وزالت الرؤيا . اما المرأة العابدة فاستحوذ عليها التحيّر والخوف وخارت قوتها وتخبلت اعضاؤها واخذها القلق من تامل صورة نفسها في صورة تلك الطفلة . وسببت لها هذه المشاهدة خوفًا عظيمًا ووجعًا اليمًا فكان قلبها تمزقهُ حرابٌ . فان كانت هذه العابدة الفاضلة رأت نفسها بوحي الله

في حال هذه الشقاوة . فماذا يقدر ان يفتخر بهِ الانسان الشقي . ولا يجد في ذاته نظرًا الى جسدهِ ونفسهِ الَّا شقاء

الفصل التاسع

في ان الاشياء الزمنية ختالة خدَّاعة

فالملخص من كل ما تقدَّم ذكرهُ الى الان ان كل ما يزول بزوال الزمن كذب وخداع وان الاشياء الارضية ليست دنية زائلة فقط بل مملوءة خداعًا ومخاطر . ولهذا نرى المرأة الزانية المرموز بها الى النجاح العالمي المقول عنها في الفصل السابع عشر من سفر الرؤيا . انها ظهرت راكبة على الوحش المعبَّر بهِ عن هذا العالم وكانت ملتحفة بنحاس يخال للناظر ذهبًا . فكما انهُ توجد منازل قد شيدت بصناعة واتقان وعلى حيطانها صورٌ تبين بهيَّة اذا أضاء عليها نورٌ من كوَّةٍ صغيرةٍ واذا فتحت طاقاتها وابوابها واشرق فيها النور من كل جهة فحينئذٍ يضمحلّ كل بهائها فلا يرى منها الَّا إثرٌ خفيف . كذلك الاشياء العالمية لان الذين يعرفون الاشياء السماوية قليلًا لاجل ضعف النور الروحي الموجود فيهم تظهر لهم الاشياء العالمية عظيمة وبهيَّة جدًّا فينخدعون بها . اما الذين يضيء لهم نور الايمان الحيّ فلا يجدون فيها جوهر البهاء والجودة . بل انما يجدون فيها إثر ذلك وظلهُ . فالنجاح العالمي يعد بالخيرات ويعطي الشرور . يعد بالراحة والطمأنينة ويعطي التعب والسجس . يعد بالفرح والتنعم ويعطي الحزن والمخاطر والعذاب . وقد يشبه الظل الذي كلما طال وعلا قرب

من الانتها والزوال . فهكذا النجاح العالمي كلما تسامى علواً اقرب من الزوال اكثر قرباً . فما هو اذاً هذا النجاح الذي قبل انتهائهِ لايجدي قلب من يمتلكه هدواً وراحة . فهل من حال تبين اسعد من حال من يكون ملكاً وفيها قال الملك قسطنطين الكبير انها أشرف من عيشة الرعاة يسيراً واتعب منها كثيراً . وقد دعاها الفنسوس ملك نابولي حياة حمار وذلك لاجل جسامة ثقل حملها . ومن ثم حسناً قيل في سفر ايوب ان الجبابرة ينوحون من تحت المياه . وقد فهم البرتوس الكبير بالجبابرة أقوياء الارض الذين تهطل على ظهورهم مياه الاتعاب المتفاقمة وداود الملك نفسهُ أقرَّ عن ذاتهِ انهُ كبهيمة تخور قوتها تحت ثقل الحمل

وقد خبرونا عن انتيغونوس ملك مكدونيا . انهُ لما أُقيم ملكاً خاطب الاكليل قائلاً . يا ايها الاكليل الشريف حقاً لست سعيداً لانهُ لو تعلم الناس كم تحمل من المخاطر والاتعاب لما كان احدٌ يرفعك من على الارض ويضعك على رأسهِ كما أظنُّ . ولعمري ما من أحدٍ من الملوك تمتع بخيرات هذه الحياة وكان يرجوا ان يشبع نفسهُ بكثرتها نظير سليمان الحكيم . لانهُ كان لهُ من النساء الحسان الف امرأةٍ منها سبعمائة ملكة وثلاثمائة سرية . وقد عمر قصوراً ونصب رياضاً وبساتين للصيد والتنزّه وكان لهُ أُناس يطربونهُ بالالات الموسيقية والاصوات الرخيمة الشجية . وأما ما كان من خدام بلاطهِ فلم يرَ قط مثل ذلك من الكثرة واللطف

والنظام . حتى ان ملكة سابا اندهشت من ذلك ومن عظمة مجد بلاطهِ الذي لم يكن لهُ مثيل قط في اسرائيل وكان لهُ من الخيل اربعون الفاً مزينة بافخر زينة . اما كنوز الفضة والذهب التي خلفها لهُ داود ابوهُ فكانت اكثر من كنوز داريوس عشر مرات على حساب المعلم دوداوس . واقول بالاجمال ان سليمان حصل على سعادة عالمية هذا عظم مقدارها حتى انهُ هو عينهُ اندهل منها فقال هكذا من غنيٍّ ومتلذذ بالتنعم نظيري . ومع هذا جميعهِ فلما قدر هذه السعادة حق قدرها قال : انها بكليتها باطلة مملوءَة تعباً وشقاءً بل ضجر منها وكان يحسد عيشة الفلاح والفاعل ويفضل خبزهما الناشف على كل اطعمة ولائمهِ الملوكية . فان كان وفور الغنى واللذات قد خدع مثل هذا الملك الحكيم فمن تراهُ لا ينخدع ويقع في حبائل غرورها

الفصل العاشر

في اخطار الاشياء الزمنية وضررها

ولعمري انهُ لقد كان الامر اقل شرًّا لو يكون حب الخيرات الزمنية ختالًا وخداعاً فقط اعني لو كنا لا نصيب منها ما نرغبهُ ولا يغشانا ما نخشاهُ ونهرب منهُ . غير ان الامر بخلاف ذلك لانهُ ما عدا انهُ ليس في الخيرات الزمنية عسل فانهُ يوجد فيها سمٌّ قاتل . فانظر الى ابيشالوم المفتخر بشعرهِ الذهبي تعلم ان ما كان يزدهي بهِ صار هو نفسهُ حبلًا شنق بهِ . فكم من اناس يحبون الآن على هذا النحو غنى سوف يسبب

لهم الموت • فلا يكفي اذاً ان نعدّ الخيرات الزمنية باطلة فقط بل ينبغي ان
نحتسبها ختالة قاتلة ايضاً • وقد أصاب اشعيا وحزقيال النبيان بتشبيهما
مصر المرموز بها الى العالم وخيراتهِ بالقصبة التي اذا توكأ عليها احد تنكسر
حالاً وتجرح يده ُ (اشعيا ٤٩ : ٦) • فهذه الخيرات تصير حياة صاحبها موتاً •
وحاله ُ كحال من هو في جهنم لكثرة الهم والغم والسجس والتعب
والحزن والضيق والضجر وغير ذلك من الشرور التي تخالط اغبط حال
واعظم سعادة عالمية • ولذلك قيل في سفر الرؤيا ان الموت والجحيم طُرحا
في بحيرة نار (رؤيا ٢٠ : ١٤) • لان حياة الخاطي التي يعبر عنها الرسول
الحبيب في هذا النصّ بموتٍ وجحيم هي مزمعة ان تلقي في جحيم اخر •
لان الخاطي ينتقل من جحيم هذه الحياة الزمني الى جحيم العذاب
الابدي • وحقاً انه امرٌ عجيب ان الذي يتمتع باللذات الارضية لا يشعر
بلذة • وانهُ في وسط التنعم يجد الجحيم ويتعذب فيما بين الافراح
لانهُ ليس بعجب الّا يجد الخاطي سروراً في جهنم حيث ليس الّا شر
وعذاب • واعجب منهُ انهُ لا يجد سروراً في هذه الحياة بين هذه
الخيرات الزمنية • فيا لسوء حال هذه الافراح الارضية التي لا تجدي
من نالها فرحاً والله تعالى يظهر في ذلك حكمة عنايتهِ • لانهُ كما ان
القديسين الذين احتقروا كل شيء زمني اصابوا افراح السماء في وسط
العذابات كالقديس لورنسيوس الذي وجد فردوس النعيم في وسط
الجمر المتقد • هكذا الخاطي • الذي لا يحب ولا يستعظم سوى الخير

الزمني . يجد مرارة الموت في عين لذة هذه الحياة

بيد ان اوفر الامور شرًّا هو ان خيرات هذه الحياة تسومنا شرّ العقاب في الحياة المستقبلة . وحسنًا قال القديس ايرونيموس . انهُ لصعب جدًّا ان يتمتع الانسان بالخيرات الحاضرة والمستقبلة . وان ينتقل من الافراح الزمنية الى الافراح الدائمة الابدية وان يكون معتبرًا ومكرمًا هنا وهناك . لان الذي جعل سعادتهُ في التنعم فلا ريب انهُ يحول منهُ الى العقاب . والذي تكرمهُ الناس الان باطلًا و بغير استحقاق فانهُ سيحقر بعدل . وقد افصح جيدًا عن هذا المعنى القديس فينسنسيوس فراريوس في مثل الباشق والدجاجة . لانهُ ما اعظم الفرق بين حياة هذين الطائرين وموتهما . كذلك فرق عظيم بين الاغنياء المتنعمين وبين الذين جحدوا الخيرات الزمنية حبًّا بالسيد المسيح . فالدجاجة تعيش على المزبلة وتقتات مما فيها او من قليل من النخالة . اما الباشق فانهُ يحمل على الايدي ويأكل من لحوم الطيور . ولكن بعد موتهما يجري الامر بالعكس لان الباشق اذا مات يلقى على المزابل اما الدجاجة فتوضع على موائد الملوك . فكما ان يعقوب اسرائيل لما بارك افرام ومنسَّى غير وضع يديهِ الطبيعي فمدَّ يمينهُ على منسَّى الابن الصغير الواقف من عن يسارهِ وشمالهُ على افرام الابن البكر الواقف من عن يمينهِ موثرًا الصغير على الكبير ومفضلهُ على النحو المذكور . فهكذا يغير الله وضع يديهِ في ساعة الموت فيمنح التقدم الى الصغار المساكين المهانين في هذه

الحياة • ولذلك قال سيدنا يسوع المسيح الويل لكم ايها الاغنياء لان فرحكم سيبدل بالبكاء الويل لكم ايها الشباع لانكم ستجوعون • الويل لمن ابتنى هنا فردوسهُ فانهُ سيجد هناك جحيمهُ • فلنرهبنَّ مما قيل لذاك الغني البخيل انك لقد قبلت خيراتك في حياتك • فلانهُ حاز الخيرات الزمنية ادركتهُ الشرور الابدية • وقد خالف الله مدَّ يديهِ بينهُ وبين لعازر المسكين اي بدل حال هذا وذاك • فالغني الذي كان يعلل بشرب الخمرة العطرة الجيدة لم يجد بعد موتهِ من يقدم لهُ قطرة من الماء • اما لعازر المسكين الذي لم يكن ينال فتات مائدة الغني فقد تنعم بعد موتهِ بالملاذّ على مائدة سماوية اعني بالحياة والسعادة الابدية قال ارميا النبي : ان نبوزردان النقيب سبي اغنياء اسرائيل وساقهم الى بابل وترك الفقراء في اورشليم (ارميا ٥٢ : ١٥) • فكذلك يصنع الشيطان فانهُ يسوق محبي الغنى الى بابل اعني الى بلابل بلايا الجحيم • ويترك المساكين بالروح في اورشليم التي تاويلها رؤيا السلام بمشاهدة الله في السماء

فقد اتضح من جميع ما اوردناهُ انهُ يجب علينا جدًّا ان نحتقر الخيرات الزمنية بل ان نبغضها ايضًا لكونها خادعة خداعًا جزيل الضرر ومن ثم مضرة جدًّا • لانها تغرينا على خسران حسن سلامة هذه الحياة بل سعادة الحياة المستقبلة ايضًا فنفقد الله عينهُ • فما ابغض امرأة فاضلة عفيفة لرجل مفسد يأتيها مترديًا باثواب زوجها ليغريها بظاهر الخداع على الخنا والفحشاء • فباعظم من هذه البغضاء يجب ان

نبغض ونقصد الخيرات الزمنيَّة التي تترآى لنا بشكل خيرات حقيقية لكي تفسد قلوبنا وتحملنا على ان تباين عروسها وخيرها الحقيقي الذي هو الله سبحانهُ وتعالى عن كل نقص



المقالة الرابعة

في الفرق بين الزمني والابدي
من حيث عظمة الخيرات والشرور الابدية وهي
اثنا عشر فصلاً

الفصل الاول

في عظمة الاشياء الابدية

انهُ وان كانت الاشياء الزمنية حقيرة ودنية جداً نظراً الى ذاتها كما اوضحنا ذلك بما تقدم فخساستها تظهر جلياً بمقابلتها الى عظمة الاشياء الابدية التي نشرع الان بالخطاب عنها • فاعتبر ان عظمة المجد الابدي جزيلة بهذا المقدار حتى ان القديس اغستينوس قال : انهُ لو التزمنا بان نقاسي اشدَّ العذابات • بل لو لزمنا احتمال عذاب جهنم عينهُ زماناً مديداً لكي نشاهد سيدنا يسوع المسيح في مجدهِ ونشرك قديسيهِ في سعادتهم لكان يجب علينا ان نحتمل ذلك لكي نحظى بهذا الخير الجسيم والمجد الوسيم • فهذي هي عظمة الخيرات الابدية لا بالنظر الى كونها ابدية فقط بل بالنظر الى عظمتها الغير المحدودة ايضاً • ومن ذلك ينتج ان التمتع بها ولو قصيراً جداً حقيق ان نختار عذاباً عظيماً ونحتملهُ الف سنة

لكي نفوز بهِ ونحظى بالخيرات الابدية ولو يوماً واحداً. وفي هذا قال القديس المتقدم ذكرهُ ان جمال العدل وبهجة النور الابدي لخير عظيم جداً حتى لو كان لنا ان نتمتع بهِ مدة يوم واحد فقط لوجب علينا لذلك ان نزدري بالتمتع بجميع خيرات هذا العالم ولذاتهِ باسرها

خبرونا عن القديس يوردانوس رئيس رهبنة القديس دومينيكوس العام انهُ اذ كان يوماً يقسم على الشيطان سألهُ قائلاً: الى اين تشتهي ان تنطلق . واي مكان تؤثرهُ على كل شيء . فاجابهُ السماء . فقال لهُ القديس ولماذا تهوى السماء . فاجاب لكي اشاهد وجه الله . فقال لهُ القديس . وما الذي كنت تفعلهُ او تحتملهُ لكي تعاين الله . اجابهُ اللعين اني ابصرتهُ دقيقة واحدة من الزمن ولكي ابصرهُ دقيقة اخرى فارتضي بسرور ان اكابد الى يوم الدينونة جميع عذابات رفقائي . فانذهل القديس متحيراً . ثم قال لهُ بعد ذلك حسناً ما قلت واني أُريد منك ان تورد لنا رسم البهاء الالهي بشبهٍ ما . فاجابهُ الشقي قائلاً: ان سؤالك هذا هو عين الجهل . لانهُ لو جمعت كل بهاء الخلائق . وكان نور كل نجمٍ كنور الشمس . ونور الشمس كنور جميع النجوم جملةً . ثم جمعت هذا النور والبهاء جميعهُ. لكان ذلك بالنسبة الى جمال الله كليلة مدلهمة بالنسبة الى النهار الاوفر ضياءً . فهذا ما أقرَّ بهِ الرجيم معترفاً . مع انهُ يجب ان تعلم ان الشيطان لم يبصر الله قط بالنوع الذي بهِ تعاينهُ الان الملئكة في المجد الابدي . بل انما شاهد الله مشاهدة غير كاملة . وذلك بدقيقة

واحدة كمن يذوق يسيرًا من شيء على سبيل الاختبار . ومع هذا فقد تمنى ان يقاسي عذابات جهنم بمدة هذا عظم مقدارها ليتمتع بمشاهدتهِ تعالى بدقيقة اخرى من الزمن على ذلك النوع الغير الكامل . فماذا تكون اذًا مشاهدتهُ تعالى بكمال الوضوح الى ابد الابدين

ثم يجب ان نعتبر ما قد لحظهُ القديس انسلمس . وهو ان خيرات هذه الحياة وشرورها تختلف عن خيرات الحياة المستقبلة وشرورها. وذلك لان الخيرات والشرور الحاضرة ليست بخيرات محضةً ولا بشرور محضة من حيث ان خيرات هذه الحياة ناقصة ممتزجة بشرور كثيرة وشرور هذه الحياة خفيفة لانها ممتزجة بخير ما. اما خيرات المجد الابدي في الحياة المستقبلة فهي خيرات محضة عظيمة غير ممتزجة بشرٍّ ما . ومن ثم لايمكن احدًا ان يضجر منها . وكذلك الشرور الابدية في جهنم هي شرور محضة غير ممتزجة بخير وليس لها من علاج ومن ثم فلا تطاق . قال المرتل ان الله ابعد عنا سياتنا كبعد المشرق من المغرب وقد يمكننا ان نقول ايضًا انهُ تعالى ابعد عن القديسين الالم والعذاب كبعد المشرق من المغرب . ولعمري ان هذا البعد الروحي بعد الخيرات الابدية هو اوسع بغير قياس من البعد الجسمي الذي بين السماء والارض . الّا انهُ لكي نتصور ذلك ونفهمهُ على نوع من الانواع فنتكلم قليلًا عن هذا البعد الحسّي لكي نعلم باي مقدار تفوق خيرات السماء خيرات الارض

قال المعلم الفلكي الجليل كلافيوس اليسوعي . ان فلك القمر الذي هو

اوطأ الافلاك جميعها مسافة يبعد عن كرة الارض مائة وثمانين الف ميل .
وانهُ لو يلق حجر الرحى من الفلك الثامن الذي هو أعلى الافلاك ودون
السماء العليا مسكن الملئكة والقديسين لا يصل الى الارض الَّا بعد
تسعين سنة . مع ان الحجر يقطع في كل ساعة مائتي ميل . وقد زعم آخرون
من العلماء الفلكيين واللاهوتيين ان بعد الارض عن الفلك الثامن هو
أقل كثيرًا من بعد هذه السماء عن السماء العليا مسكن الطوباويين .
ومن ذلك يتنجون انهُ لو يعيش احد الفي سنة ويمشي كل يوم مائة ميل لم
يصل بعد الفي سنة الى ادنى سماء النجوم . واذا مشى هكذا الفي سنة
أخرى لم يقطع سُمك هذه السماء واذا مشى بعد ذلك على النحو المذكور
اربعة الاف سنة أخرى لم يصل الى أدنى سماء الملئكة والقديسين .
فيا لقدرة الهنا ومخلصنا يسوع المسيح الذي يسيّرنا هذه المسافة الشاسعة
بدقيقة واحدة من الزمن

فهذا الفكر عينهُ كان يعزي ويشجع تلك المرأة الشريفة التي
أستشهدت في بلاد الانكليز . لانهُ بعد ان وضعوها على حجر رفيع
وجعلوا فوق صدرها حجرًا ثقيلًا جدًا ورأت قومًا من الحاضرين
يرثون لها قالت لهم : لِمَ تحزنون عليَّ وانا مزمعة بعد زمن وجيز ان ارتقي
فوق القمر والشمس وادوس برجليَّ النجوم والج سماء السموات وطن الملئكة
والقديسين . فاذا تقرر ذلك نقول : انهُ بمقدار هذا البعد الكائن بين السماء
والارض يكون بعد الخيرات السماوية عن الخيرات الارضية . فيا لغباوة

الذين يبدلون اتساع السماء الغير الموصوف بشبر من الارض . ومن أجل خير جزءي وقتي يعدمون لذات عظيمة ابدية

وهكذا اذا ما قابلنا شرور هذا العالم وبلاياه مع عظمة الخيرات الابدية فنجدها كلا شيء . . خبرنا القديس انطونيوس اسقف مدينة فلورنسا عن رجل شرير افتقده الله بمرض مستطيل ليرده به الى طريق الخلاص . فاستثقل الرجل المذكور اطالة مرضه ووجده غير محتمل ولذلك بعد تقدمة التوبة عن خطاياه طلب من الله مرات كثيرة ان يخرجه من سجن جسده . فتراءى له ملك وخيره من لدن الله بين شيئين يتمنى منهما ما يشاء اما ان يمكث سنتين ايضاً في هذا المرض واما ان يموت حالاً ويلبث في المطهر ثلثة ايام . فاخذ المريض التائب يقابل ثلثة ايام في المطهر مع سنتين في حال مرضه الأليم الذي كان قد ضجر منه جداً فرأى ان يختار الثلثة الايام في المطهر ولا يبقى سنتين طريحاً على فراشه متململاً على نار اوجاعه . فتوفي حالاً وانحدرت روحه الى المطهر . فلما انقضت عليه ساعة واحدة ظهر له ملاك الرب يعزيه . ثم بعد التعزية قال له اما تعرفني فاجابه ذاك كلا لست اعرفك . فقال له الملاك ألست انا الملاك الذي أرسل اليك من الله لتختار بين ان تتعذب هنا ثلثة ايام او تبقى على فراشك في حال اوجاعك سنتين : فاجابه ذلك الحزين المسكين انه لمن المستحيل ان تكون انت ملاكاً سماوياً لان الملاك لا يكذب وانت قد كذبت بقولك لي اني لا امكث في هذا السجن سوى ثلثة

ايام فقط . وها ان لي في هذا العذاب اكثر من سنة ولم ينتهِ : فقال له الملك . اعلم انهُ ليس لك ها هنا اكثر من ساعة واحدة وجسدك لم يبرد بعد ولم يقبر . فحينئذٍ أخذ يتوسل اليهِ الرجل المعذب قائلاً . فسل اذاً يا مولاي الله ان يصفح عن جهلي الذي بهِ اخترت هذه الحال واستمح لي من مراحمهِ ان يردني الى الحياة لاحتمل مرضي لا مدة سنتين فقط بل طالما يشاء هو عزَّ وجلَّ . فقبل الله طلبتهُ وبعثهُ من موتهِ واعادهُ حياً . فصار يرى جميع اوجاع الحياة خفيفة يسيرة بالنسبة الى ما اختبرهُ من عذاب المطهر ولم يكن يحتملها بصبر فقط بل بسرور وابتهاج ايضاً . فان كانت هذه حال عذاب المطهر فماذا يكون عذاب جهنم . وان كانت ساعة واحدة من عذاب المطهر تبين كسنة تحوي اكثر من ثمانية الاف ساعة . فلا شك في ان ابدية عذاب جهنم تبين كثمانية الاف ابدية فما أغلى لذات هذا العالم الحسية الوجيزة التي توازي هذا العذاب المستطيل وما أخفَّ العذابات الارضية واقصرها فهي كلا شيء بالنسبة الى العذابات الابدية

الفصل الثاني

في عظمة شرف القديسين واكرامهم الابدي

لنعتبرنَّ الان على وجه الخصوص عظمة خيرات الحياة المستقبلة التي تتناول كل نوع من الغنى والكرامات واللذات اللائقة بالنفس والجسد . ولنبتدئنَّ بالخطاب عن الاكرام الذي كثيراً ما ترغبهُ

الخلائق الناطقة والذي وعد بهِ السيد المسيح الذين يحبون الان الاتضاع قائلًا: من يغلب فانا أعطيهِ المنّ الخفيّ وأعطيهِ حصا أبيض مكتوبًا فيهِ اسم جديد لا يعرفهُ الّا من يأخذهُ (رؤيا ٢: ١٧). فيا لهُ من مجدٍ عظيم

قد ذكر عن سابور ملك الفرس انهُ كان يميل الى الشرف والاكرام بافراط الحب حتى انهُ دعا نفسهُ اخا القمرين وسليل الكواكب. وشاد لهُ قصرًا رفيعًا من بلور بشكل كرة محكمة فيها من دقيق الصناعة والفنّ حتى اذا جلس على هذه الكرة كانت الشمس والقمر والكواكب المصوّرة هناك تبزغ من تحت رجليهِ وتستدير حول رأسهِ شبه إكليل منير. وقد احتسب هذا الاكليل المصنوع من صورة السماء اكرامًا عظيمًا ومجدًا جسيمًا. فماذا يكون اذًا اكرام القديسين العتيدين ان يجلسوا حقًّا على الشمس والكواكب بل على منبر ابن الله عينهُ ويمدَّحون لا من البشر فقط بل من الملئكة ورب الملئكة ايضًا

خبرنا اكليمنضوس الاسكندري انهُ كان في بلاد الفرس ثلثة جبال فمن كان يبلغ الى الجبل الاول يسمع صوت قعقعة سلاح اناس محاربين. ومن يبلغ الى الجبل الثاني كان يسمع ذلك باوضح بيان. اما الذي يصل الى الجبل الثالث فلم يكن يسمع سوى اصوات الابتهاج وتراتيل نشائد الافراح وتهاني الانتصار. فهذا ما يجري في شان الابرار لانهم يجوزون ثلثة جبال سرية رمزية اعني بها العقل النطقي والنعمة والمجد السموي. فالذي يبلغ الادراك يشعر بحرب الرذائل فيحاربها بالنعمة و يظفر بها. واذا

بلغ المجد السموي فيسمع اصوات الفرح وتراتيل التهاني والانتصار ويتوَّج باكليل ثمين جزيل الاعتبار . ولعمري ان الجلوس مع الملك على مائدتهِ شرف عظيم ومجدٌ جسيم غير انهُ لم يسمع قط ان ملكًا خدم عبدهُ . بل لم يخطر هذا لبشر ببــال . ولذلك حسنًا قال المرتل ان اصدقاء الرب مكرمون جدًّا (مز ١٣٨ : ١٧) . وهذا النبي والملك نفسهُ قد ظنَّ بانهُ قد شرف مفيبوشت شرفًا عظيمًا اذ اجلسهُ على مائدتهِ . مع ان مفيبوشت كان من نسب ملوكيّ وابن يوناثان الذي بهِ كان قد نجا داود من الموت . وهامان الذي لم يرَ على الارض اكـثر منهُ تكبرًا قد ظنَّ انهُ لا يمكن ان يشرفهُ احشورش الملك بشيء اعظم من ان يأمر الاكبر قدرًا في اهل دولتهِ بان يمسك بلجام فرسهِ حينما يركب ويمشي امامهُ هكذا في المدينة وهو راكبٌ على جواد الملك . الَّا انهُ لم يخطر ببالهِ ان يمسك الملك نفسهُ بلجام جوادهِ . اما الاكرام الذي بهِ يشرف الله قديسيهِ فيفوق عقل كل بشر لانهُ بعد تكليلهِ اياهم بمجد لاهوتهِ . وبعد ان يكون منحهم ذاتهُ ليحظوا بهِ عزَّ وجلَّ يكرم ايضًا محاسنهم وانتصاراتهم باكرام فائق

فقد ذكر المعلم توما الكانتيرني عن اسكندر بن ملك سكوسيــا . انهُ ظهر لراهب متوجًا بتاجين فلما سئل عن سبب ذلك اجاب ان التــاج الذي على رأسي هو التاج المشاع لكل من القديسين . اما التاج الاخر الذي في يدي فهو ثواب لتركي ملكي الزمني لاجل السيـد المسيح .

هكذا الشهداء والعذارى والمعلمون فانهم يزهرون باكاليل خصوصية والاعضاء التي بها يمجدون الله بعبادة خصوصية تتشرف بمجدٍ خصوصي. فباي مجدٍ يزهر جسد القديس استفانوس اذ ينبعث من كل جزء من اجزائهِ التي رجمت بالحجارة اشعة نور خصوصي يدهش العقول. وما امجد ما يكون النور الذي يتردى بهِ القديس برتولماوس الرسول لاجل سلخ جلدهُ حباً بالسيد المسيح. وباي نور ساطع تبرق اعضاء القديس يعقوب الذي قطع جسدهُ ارباً ارباً. بل المعترفون ايضاً ستضيء اعضاؤُهم التي مارسوا بها تقشفات خصوصية

قد ذكر عن القديسة متيلدا. ان القديس يوحنا الانجيلي ظهر لها وعيناهُ بهيتان مزهرتان بنور وبهاء عجيب. وذلك لانهُ لم يجسر قط ان يرفع نظرهُ الى وجه الجليلة مريم لجزيل احترامهِ اياها. فما اعظمكِ يا ايتها الكرامات الغير المعرضة للخطر ولا للزمن والغير المتعلقة بارادة البشر انكِ ستدومين غير ممحوة الى الابد. فالذي يمجد هنا أجساد القديسين مجداً عظيماً ترى كيف يمجد انفسهم في السماء. ما اكثر المعجزات التي صنعها ويصنعها بواسطة ذخائرهم

خبرنا القديس يوحنا الذهبي الفم عن القديسين يوفنسيوس ومكسيموس. انهُ كان ينبعث من ذخائرهما نور عجيب لم يقدر احدٌ ان يحتمل مشاهدتهُ. وقد اخبر القديس سولبيسيوس عن القديس مرتينوس ان جسدهُ بعد موتهِ حصل على حال جسد ممجد لان لحمهُ ظهر مضيئاً

كالبلور وافضل بياضاً من الثلج . وما اكثر العجائب التي صنعها الله بجسدي القديس ادواردوس والقديس فرنسيس كسافاريوس اللذين حفظهما من الفساد . فان كان الله يصنع هكذا مع اجساد عبيدهِ الموضوعة تحت الثرى فماذا يفعل بانفسهم التي ادخلها الى السماء . وما سوف يصنع مع اجسادهم وانفسهم معاً حينما تتحد في يوم الدينونة وتدخل منتصرةً الى مدينة الله المقدسة الابدية

الفصل الثالث

في غنى السماء وملكهِ الابدي

ان غنى الملكوت السموي يضاهي مجده ُ. وقد افصح لنا عنهُ السيد المسيح بامثال وتشابيه كثيرة . لانهُ جلَّ ذكرهُ دعاهُ كنزاً خفياً ولؤلؤاً كثير الثمن ومبلغاً عظيماً من المال . ولعمري انهُ ان كانت سعادة القديسين قائمةً بالتمتع بالله الى الابد . فلا ريب انهُ ما من كنز يضاهي هذا الكنز ولا امتلاك أعظم واغنى من هذا الامتلاك اي من امتلاك الانسان الله سبحانهُ . لانهُ اية وراثة اكثر ثمناً من ميراث السماء وايما ذهب انقى من خالق الذهب وهو يقدم لنا كل غنى ذاتهِ لنمتلكهُ وذلك لئلَّا ننعكف على امتلاك خيرات الارض الدنية المضنية السريعة الزوال

ثم ما عدا هذا الغنى العظيم الذي هو الله . فغنى الملكوت عينهُ لعظيم جداً حتى انهُ بهِ وحدهُ يصبح كل قديس ملكاً عظيماً . وقد قال العلماء الفلكيون عن اتساع السماء . انهُ لو يعطي الله كل قديس جزءًا منها يساوي

اتساع الارض كلها لبقي منها ما يكفي لغيرهم كثيرين . وقد زعم بعض المعلمين اللاهوتيين . انه لو جعل الله كلاً من حبوب الرمل الذي على شاطئ البحار عظيمة ككرة الارض لم يكن هذا الرمل كله كافياً لان يملأ وسع السماء الذي تسعهُ المدينة السعيدة العليا المبنية كلها من ذهب وجواهر كريمة . وابوابها جميعها من لؤلوء عجيب ومادة اسوارها من حجر اليصب والياقوت الازرق والنجادي والزمرد والعقيق والياقوت الاحمر والمها والبلور والياقوت الاصفر والزبرجد والاسمانجوني والكركهن . كما قيل في الكتاب المقدس (رؤيا ٢١ : ٢٠)

خبرونا عن القديس فرنسيس انه اعتراهُ وجع عظيم في عينيهِ حرمهُ لذة النوم . واضاف الشيطان الى الامهِ تجاربهُ له فانه أملأ حجرته فاراً . اما القديس فكان يشكر الله على ذلك بصبر عجيب لانهُ تعالى ارتضى ان يبلوهُ برحمتهِ قال : يا سيدي يسوع المسيح اني مستحق عذاباً اعظم من هذا . فلذلك اسالك شيئاً واحداً لا غير وهو الا تسمح بان تبعدني التجربة عنك . فحينئذٍ سمع صوتاً من السماء يقول له يا فرنسيس : انهُ لو تكون الارض كلها ذهباً صافياً والانهر جميعها باسماً والجبال والقصور باسرها ماساً . اما كنت تحسب هذا كنزاً عظيماً . فاعلم ان الكنز المذخر عندي في السماء يفضل على ذلك كما يفضل الذهب على الطين والبلسم على الماء والماس على التراب . فقد اصاب اذاً القديس فولجنسيوس الذي لما دخل رومة وتفرس بعظائمها وجلال بهائها صرخ قائلاً : ان كانت

رومة الارضية هكذا مفخمة بهية . فماذا يكون حسن بهاء جمال اورشليم السموية

فهذا الغنى الذي ليس له نظير ولا مثيل يصير لكل قديس ملكاً. ولا تكون السماء ملكاً لجميع القديسين معاً فقط بل كلٌّ منهم يمتلكها كلها ايضاً . وذلك كما ان الشمس التي تسخن كل ما تحتها معاً تسخن كلًّا منها على حدةٍ حتى كانها لاجلهِ وحدهُ . اما مفعولات الغنى السموي فانها أجلُّ واشرف جداً من مفعولات الغنى الارضي . لان الغنى الارضي لا يفيد الَّا لاكتساب الاقتدار واللذات والكرامات . والحال ان كل الذهب الموجود على الارض لا يقدران يعصم هذه الاشياء عن الضعف والاهانة والتعب الجزيل

قال واحد لفيلبوس الثاني ملك اسبانيا : اذا امرت حضرتك قوم مرؤسيك بشيء . فاجابك الجميع قائلين لا نطيعك ولا نذعن لاوامرك . فما الذي كنت تفعلهُ . قال هذا مشيراً بهِ الى ان اقتدار الملك متعلق بارادة الغير . فاما اقتدار القديسين في السماء فليس بمتعلق بقدرة اخر . وهو عظيم بهذا المقدار حتى قال القديس انسلمس انهُ ما من مضادٍ يقوى على مقاومتهِ فلو اراد احد القديسين السمويين ان ينقل جبلًا من مكان الى اخر لفعل ذلك باوفر سهولة واكثر سرعة مما نحرك نحن حدقة عيننا . ثم ان كرامة القديسين عظيمة جداً حتى ان الشياطين انفسهم يكرمونهم . اما لذاتهم فلا يشوبها نقص من غمّ او همّ ومن المحقق عندنا الان

ان الكرامة والنفع واللذة لا يجمع بينها الّا في ما ندر جدًّا . بل يغلب ان تنافي احداها الاخرى فالدواء المفيد نجده مُرًّا واللذة تسبب الهوان وبالكد الكلي يقترن الاكرام بالنفع . اما في السماء فالامر بخلاف ذلك . حيث ان الغنى الابدي يحوى هذه كلها ويجمع بينها فيجعل ما يفيد لذةً تتولد منهُ الكرامة وما يسبب كرامة مفيدًا ونافعًا

الفصل الرابع
في عظمة الافراح الدايمة

اعلم ان فرح القديسين الطوباويين الاخصّ هو الحظوى بالله لانهُ كما ان النفع واللذة والكرامة في السماء لا ينفصل بعضها من بعض بل تكون مقترنة على الدوام . فهكذا النفس الطوباوية لها ثلث صفات غير قابلة الانفصال بعضها من بعض . وقد تقتضيها حال هذه النفس اقتضاءً لازمًا . وهذه الصفات تضاهي الثلثة الخيرات المتقدم ذكرها . فالصفة الاولى هي مشاهدة الله عيانًا وبها يكال الله استحقاقات ابرارهِ . ولعمري ان تكليل فضائل الابرار الذي يكون امام الملئكة ونيلهم هذا الثواب الجسيم الذي يساوي ثمنهُ عظمة الله . هو اكرام لا حد لهُ ولا قياس . والصفة الثانية هي حظوة النفس السعيدة بالله كانهُ غناها وميراثها . والصفة الثالثة هي الفرح الغير المدرك المقترن بهذه المشاهدة وهذا الامتلاك وهذا الفرح الصادر في النفس من المشاهدة الالهية يمتدُّ الى الجسد ويزينهُ بصفات شريفة بهية جدًّا . فياليت جسد احد القديسين

الطوباويين يظهر لنا بصفات مجدهِ العظيم

فاننا نعلم بنوع ما نور النفس التي تزيّن الجسد بمثل هذا البهاء العظيم وجزيل سرورها وفرحها . انهُ ليس في العالم شيء الّا يميل الى الكمال وكلما كان الكمال اوفر عظمة أسدى امتلاكهُ اوفر سرورًا . والحال ان الكمال الالهي هو الكمال الاعظم وهو عين ما أحبَّ سخاء الله الغير المتناهي ان يشرك فيهِ الملئكة وانفس المختارين وان كانت طبيعتهم لا تقتضي ذلك . ثم بقدر ما يكون الموضوع الملذ المتحد بالقوة المالكة اياه أشدَّ اتحادًا . بقدر ذلك تكون اللذة الصادرة عنهُ اوفر عظمة . والحال ان الله في السماء يتحد بالنفس اتحاد التلاثم والاعتناق الاشد عزمًا . ويكون الله الموضوع الافضل لذةً . فمن ثم يكون السرور الناتج عنهُ يفوق كل ادراك مخلوق بما لا يحدّ ولا يقدَّر . فترى ماذا يكون سرور النفس المتمتعة بجمال الخالق وبجميع كمالاتهِ . فان كان يعقوب اب الآباء قد اعدَّ رقَّ خدمتهِ مدة اربع عشرة سنة شيئًا يسيرًا لحصولهِ بها على جمال راحيل . فاي تعبٍ يتبين لنا عظيمًا إن كنا نبلغ الى الحظوى بالله الذي يزنو لجمالهِ أعظم جمال مخلوق بل ليس الّا بشاعة شنعة

فقد كان ابيشالوم وادونيا حسني المنظر وكان من يشاهدهما ينفرج صدرهُ ويتعزّى قلبهُ بمنظرهما . ولكن لو امتثل أمام الناظر اليهما شخص آخر يفوقهما حسنًا وبهاء بعشرة أضعاف أما كان

الناظر يحوّل نظرهُ حالًا عنهما ليعاين من هو أبهى واجمل منهما. ثم إذا ظهر لهُ شخص آخر اوفر حسناً بمائة ضعف عن السابق أما كان يصرف نظرهُ ثانيةً عن ذاك ويحدق بهِ الى هذا ويتضاعف فيهِ سرورهُ بقدر تضاعف بهاء الموضوع. والحال ان الله يفوق جمالهُ على هذه كلها بما لا يحدّ. وجمالهُ مقرون بالحكمة والقدرة والقداسة والسخاء والجود وغير ذلك من الكمالات الالهية الغير المحدودة عظمتها. فمن ذا الذي يشاهد هذا الموضوع الالهي ولا تسرّ نفسهُ وتلتهب بمحبة ذات عذوبة غير موصوفة. فلو يمنّ على أحد بان يشاهد نوادر الدنيا السبع. او يحضر وليمة أحشوروش الملك وغيرهُ من الملوك المعظمين ويتمتع بتفرجات الرومانيين ويلذ بسماع الانغام الموسيقية ويستنشق اشهى الروائح الزكية ويتملك كنوزًا اعظم من كنوز داود. اما كان يحسب نفسهُ سعيدًا اذا علم انهُ يتمتع بجميع هذه الخيرات مدة مائة سنة. واذا أُضيف الى ذلك ان يكون اكثر حكمةً من سليمان واعلم من اريسطوتاليس. واذكى من أياس وافصح من شيشرون واقوى من شمشون واجمل من ابيشالوم فما كان أعظم ابتهاجهُ وعزاءهُ. مع ان هذه جميعها اذا ما قابلناها مع المشاهدة الالهية فلا تكون الَّا بمكانة الرصاص والتراب من الذهب والماس. اذ اننا بهذه المشاهدة الالهية نمتلك جميع خيرات الخلائق وعظائمها. فنجد فيهِ تعالى على نوع اكمل جدًا كل غنى الذهب وضياء الشمس وحلاوة العسل ولذة الانغام الموسيقية

وجميع لذات الحواس

واعلم ان هذا السرور المتولّد بالنظر عن هذه المشاهدة الالهية . ليس فوق كل وصف بالنظر الى عظمتهِ فقط بل هو فوق كل ادراك بالنظر الى كثرتهِ ايضاً لانه يُكثر بمقدار كثرة النفوس والارواح السموية المتمتعة بمشاهدة الله . لان كل واحدٍ من الطوباويين يسرّ ويبتهج سروراً وابتهاجاً خصوصياً من حظوة كل منهم بهذه المشاهدة السعيدة . ولذلك فمن حيث ان عدد القديسين غير محصّى ستكون افراح كل منهم غير محصاة . فلنبتهجنَّ اذاً نحن المسيحيين المدعوين الى هذه الخيرات العظيمة . ولنتهللنَّ من انهُ الله تعالى قد خلق السماء لاجلنا ولتتعزَّ قلوبنا وتتقوَّ برجاء هذه الافراح العظيمة

وفي هذا خبرنا الانبا بلاديوس عن الانبا افولو . انهُ كلما وجد راهباً حزيناً مكتئباً كان يلومهُ قائلاً : كيف يمكن يا اخي ان نحزن ونكتئب فليحزن اولئك الذين لارجاء لهم بالدخول الى السماء . اما نحن فلا يليق الحزن بنا بعد ان وعدنا السيد المسيح بسعادة المجد الابدي . وقد ذاق ايليا النبي شيئاً من هذا السرور السموي فجعل حالاً على حواسهِ رداء وستراً على هامتهِ . وهكذا الانبا سيلوانوس كان عند فروغهِ من الصلاة يغضّ طرفيهِ عن النظر الى عظائم الارض وكان يعدها غير اهل لان تملك بل لان ترى ايضاً . وذلك بنسبتها الى عظائمِ السماء التي يجب ان نجعل كل سرورنا في رجاء امتلاكها

الفصل الخامس

في شرف اجساد القديسين وكمالها
في الحياة الابدية

انهُ لما شاء هيرودس اغريبا ان يظهر عزهُ ويفتخر بالعجب لبس ثوباً فاخراً مرصعاً بالذهب والجواهر الكريمة . غير انهُ لكي يظهر رونقهُ ولمعانهُ احتاج الى شعاع الشمس ولاجل هذا اللمعان اليسير دعاهُ الشعب الهاً . فكيف اذاً يكرَّم البار في الحياة المزمعة حين يكون لابساً لا ثوباً ذهبياً بل متوشحاً بالشمس بل بما هو اكثر منها نوراً ولمعاناً . فالذي يحمل خاتم ماس في يدهِ يعد ذلك شرفاً عظيماً . فما اعظم شرف جسد الصديق المتلالئ بلمعان غير مستعار بل خاصّ بجسدهِ ويفوق بهاء كل حجر كريم . فلا يحتاج الى الشمس التي تفتقر الان اليها حياتنا افتقاراً ضرورياً لانهُ لا يظلم ليلٌ على البار بل يكون هو نهاراً لذاتهِ . فهل من عزةٍ اعظم من ان يكون انسان افضل لمعاناً من الشمس عينها سبع مرات يحمل في ذاتهِ نوراً لا يعادلهُ نور مصابيح يحملها كل من افراد البشر وهم يرافقونهُ

ان القديس بولس الرسول لما لمح بارق نور منبعث من السيد المسيح عدم البصر واستوى اعمى بعض ايام (اعمال ٩ : ٨) . والقديس يوحنا الانجيلي لما رأى نور وجههِ تعالى سقط على الارض صعقاً كميت (رؤيا ١ : ١٧) . ولم يكن جسدهُ القابل الموت يطيق مشاهدة نور تلك العزة العظيمة . والقديس بطرس هامة الرسل اذ ابصر شعاعاً واحداً

منبعثًا من جسدهِ تعالى يوم التجلّي استعظم ذلك جدًّا واعدَّ ذلك المكان سعيدًا حتى أبى العود منهُ . الّا انهُ ليس بعجب ان تظهر هذه الصفة المجيدة في جسد السيد المسيح . بعد ان ظهرت في وجه موسى القابل الموت اذ غطى النور وجههُ حتى لم يقدر الشعب الاسرائيلي ان ينظر اليهِ

خبرنا كيساريوس عن رجل من علماء مدرسة باريس . انهُ لما دنت ساعة موتهِ طفق يتامل في كيف يستطيع الله ان يصير جسدهُ الحقير منيرًا لامعًا مثل الشمس . فاحب الله ان يعزّي عبدهُ ويحقق اعتقادهُ في حقيقة قيامة الاجساد فافاض من رجليهِ نورًا عجيبًا حتى عاد لا يقدر ان يحتمل النظر اليهِ . وهذا عجيب حقًّا في اجساد قابلة الموت . وهو اعجب جدًّا في اجساد ميتة . ففي هذه عينها ظهر هذا النور السموي على نوع يدهش العقول كما ظهر في جسد القديسة مرغريتا ابنة ملك اونغاريا وفي جسد غيرها ايضًا . فان كان قد ظهر مثل هذا النور والبها في اجساد مجردة من النفس فما اعظم ما يكون ذلك في اجساد القديسين بعد القيامة حينما تكون متحدة بنفس مجيدة ومتصفة بحياة مؤبدة . فما يكون نور السماء المركب من جميع هذه الانوار بل من جميع هذه الشموس . وان كان السرور الحاصل من النظر يزداد في كل واحد من القديسين بمقدار عدد الاجساد المنيرة . فما قدرُ الفرح الواصل اليهم من هذا المنظر البهيّ

ثم ان القديسين المتوشحين بهذا النور العجيب والممتلئين منهُ يشركونهُ ايضاً في خواصهِ . ومن جملة خواص النور الا يقبل التضاد وهو لذلك غير قابل الالم والفساد . فهكذا تكون اجساد القديسين المجيدة اعني غير قابلة التالم ولا متعرضة الى ما يؤذيها ومن خواص النور الخفة والسرعة فليس شيء اكثر منهُ خفةً وسرعة . ولهذا نرى الاجرام الاكثر ضياء اكثر خفةً وسرعة . فالعنصر ذو العزم الشديد في جريهِ هو عنصر النار المركب من النور ونرى الشمس والكواكب النيرة أسرع مما في العالم . والنور عينهُ هو سريع جداً حتى انهُ في دقيقة واحدة من الزمن يمتدُّ ويبلغ الى أقصى حدود دائرتهِ . فهكذا تكون خفة الاجساد المجيدة وسرعتها بل تتحرك بسرعة أعظم من سرعة حركة الكواكب . ومن خواص النور ان يخرق الاجسام وليس شيء يمنعهُ عن ذلك ولذلك تكون رقة الاجساد المجيدة ودقتها ولطافتها أعظم منهُ . فتخترق وتنفذ أشدَّ الاجرام صلابةً وكثافة

فتلك الصفات الخاصات بالاجساد المجيدة تنافي شرور هذه الحياة جميعها . لان الصفة التي تنزّه الجسد عن التالم تدرأ كل ما يؤلمنا هنا ويعذبنا . اعني برد الشتاء وحرّ الصيف وجميع الامراض والاوجاع والاحزان والبكاء واحتياجات الحياة كافة . ولا ريب ان هذا الخير عظيم لانهُ بمجرد ارتفاع اضطرارنا الى الاكل تدفع عنّا هموم عديدة . فكم يتعب الانسان لاجل حفظ الحياة . فالفلاح يكدّ ويتعب في خدمة الارض

والراعي يضطر الى ان يعيش في الفيافي عرضة للحر والبرد والخادم والمستأجر يحوجهما الامر الى الخدمة والخضوع للناس والغني الى تدبير اموره بهم وخوف . فما اكثر الاخطار والاتعاب التي يعانيها الانسان في كل أمر لكي يدرك القوت الضروري . اما البار فينجو من هذه كلها بتلك الصفة السعيدة التي تجعلهُ غير قابل التألم . وهكذا الحاجة الى الكسوة والعافية الخاضعة لحوادث كثيرة وكوارث متعددة قد يتولَّد منها هموم واتعاب جزيلة . وقد نجا منها جميعها من هو غير قابل التالم . حتى لو دخل الجسد المجيد جهنم نفسها لم تحترق منهُ شعرة واحدة

وهكذا صفة الخفة خير عظيم ويمكن ان نفهم ذلك من جزيل اتعاب من يسافر سفرًا مستطيلًا . فما أكثر ما يكابد من المخاطر وما أعظم ما يحتمل من الاتعاب في كل مسافة وما اغزر الاشياء التي يحتاج اليها لحفظ صحتهِ من المرض . فالجسد المجيد يصل بلحظة عين الى حيث يشاء . ويكون لديهِ قطع ربوات من المراحل كقطع مسافة صغيرة او خطوة واحدة . اننا لنتعجب مما ذكر عن القديس انطونيوس البادواني . انهُ بساعات قليلة انتقل من بلاد ايطاليا الى مملكة برتوغاليا لينقذ اباهُ الذي كان قد حكم عليهِ بالموت . ولقد كنا نعد سعادة عظمى ان يمكننا في مدة ساعة واحدة ان نبصر كل عظائم مدينة رومة وفي ساعة أُخرى ان نصل الى القسطنطينية وفي ساعة أُخرى الى مصر ومن هناك الى الهند بمدة ساعة ايضًا . فنشاهد كل عظائم المسكونة بزمن وجيز . فماذا

تكون اذاً سعـادة القديسين الذين يقدرون بمدةٍ ما وجيزة من الزمن ان يجتازوا كل فضاء السموات ويطوفوا الارض كلها ويتفرسوا بكل ما فيهما

قد ذكر القديس غريغوريوس في محاوراتهِ ان رجلاً جندياً هجم على شقي مجرداً سيفهُ ليقتلهُ . فاذ رفع يدهُ ليضربهُ ورأى ذاك نفسهُ في خطر الموت صرخ ملتمساً العون الالهي قائلاً : يا مار يوحنا أَمسك يدهُ . وفي تلك الدقيقة مسكت يد الجندي ولم يقدر ان يحركها . فما اعجب هذه السرعة في استماع الاستغاثة وسير القديس لمساعدتهِ . فسرعة الاجساد المجيدة توازي سرعة الارواح . لقد تعجب الناس من ان القديس كبرينوس والقديس مورس والقديس فرنسيس بولا ساروا على الانهر والبحار بغير قارب ولا سفينة . والحال ان الاجساد المجيدة تجتاز البحار وتطير في الجوّ وتنفذ في النار بغير خطر ولا ضرر

الفصل السادس

في وجوب طلب الملكوت السموي وتفضيلهِ على جميع الخيرات الارضية

فليقابلنَّ المؤمن شقاوة هذه الحياة مع سعادة الحياة الاخرى وليشبه ضعف طبيعتنا في هذه الحال القابلة الموت بقوتها وخواصها في الحال المستقبلة الغير القابلة الموت . وليتأهلنَّ لاكتساب سعادة مجد لذيذ ابدي بتعب خفيف وجيز . ذكر عن كورش ملك الفرس انهُ لما خرج مع

جيشهِ ليحارب المادبين . أمر جنوده الفارسيين كلهم بان يأتوا بفوسٍ مشحوذة و يقطعوا اشجار حرش عظيم أشار اليهم بقطعهِ . فاصرفوا في هذا العمل يومهم ذاك جميعهُ بكدٍ وكدح جزيلين . ولما كان اليوم الثاني إصطنع لهم وليمة لذيذة فاخرة . وبعدها سألهم اي هذين اليومين أَحب اليهم فاجابهُ الجميع بصوت واحد آثرُ لدينا يوم الوليمة . هذا واذا نادى منادي الحرب والحملة على المادبين . أَخذ يشجعهم ويعدهم بانهُ اذا انتهت الحروب يضيفهم وليمة فاخرة نظير الاولى . فكفاهم هذا الوعد ليثبوا على المادبين لايعبأون بخطر الموت فحازوا فوز النصرة عليهم واستولوا مملكتهم . فهكذا يجب ان نقابل نحن ايضاً عظمة ملكوت الله ودناءة اعمالنا . خيرات السماء وخيرات الارض فنجد كل تعب راحة وكل عناء نجاحاً

ليت شعري ما هو مجد هذه الحياة الكاذب الوجيز الدني الحقير قبالة مجد السماء . ما الغنى الزائل الممتلئ خطراً وهماً بالنسبة الى الغنى الذي لايفنى ولايزول . اين سرور العالم ولذاتهُ المسمومة والمضرة بالصحة والمبددة الاموال والمهينة من يتمتع بها من سرور المجد الابدي الحاوي كل ما يجدي اكراماً ونفعاً ولذةً . اين حال جسدنا هذا القابل الموت من صفات الجسد المجيد بعد القيامة

خبرونا انهُ في ابتدا حرب غايوس الروماني للرومانيين نادى أبينيوس قنصل المدينة العظمى قال : ان كل من ياتيهِ برأس غايوس ياخذ مثقال وزنهِ ذهباً . فلما سمع هذا واحد من أهل المدينة يدعى

ستيمولسيوس . ذهب ليقتل غايوس ولم يبال بما فيهِ من الخطر والتعب .
بل افرغ وسعهُ في ذلك ولم يدع سبيلاً ولا حيلة الاَّ اتخذها حتى ظفر
بغايوس ونال الجزاء الذي تقدم الوعد بهِ . فلا نكوننَّ نحن اقلَّ شجاعة
ورغبة واجتهاداً في اكتساب ملك السماء باسرهِ مما كان هذا الجندي
في ربح يسير من تراب اصفر . وكل ما نفعلهُ او نعطيهِ لاجل اكتساب
هذا الملك لا يعدل مثقال ذرةٍ تبناً بازاء هذا الخير العظيم . ولذلك قد
رأى القديس اغستينوس ان احتمال جميع العذابات الجهنمية طمعاً بادراك
هذا الملك السموي زماناً يسيراً أمر يسير جداً . والحق اننا لو درينا ما عظمة
هذا السرور لاستحقرنا تقشفات القديس سمعان العمودي وصيامات
القديس روموالدوس وفقر القديس فرنسيس واهانات القديس اغناتيوس
ولرأينا ان هذه جميعها كتعب من يرفع من على وجه الارض قشة من
التبن لكي يحظى بملك العالم باسرهِ

وقد كشف الله عن فاعلية هذه الاعتبارات لحزقيال نبيهِ
لما اراهُ اربع حيوانات مختلفةً جداً بالطبع الاَّ أنها متفقة سيراً وعملاً
لانهُ رأى النبي في الجوّ نسراً وثوراً واسداً وانساناً يتطايرون كل
واحد منهم باربعة اجنحة . ويسيرون بسرعة البرق . فما ذا قوّى
هكذا طبيعة الثور وصيرهُ نظير النسر طائراً . وما الذي قهر تكبر
الاسد ووحشيتهُ حتى آنس الانسان وصار رفيقاً لهُ . فقد اوضح ذلك
النبي بقولهِ ان الحيوانات الرمزية كانت تحمل جلد السماء على رؤوسها

فلو كنا نمعن فكرتنا في الملك السموي لكنا نمارس اعظم الامور واصعبها برغبة وسهولة ولقد كان يمكن للانسان الهيولي ان يصير نظير ملاك . ولكان قد اعتمد تهذيب نفسهِ واصلاحها من كان على جانب من البداوة والوحشية ورايت من كان بليدًا كسلانًا كالثور يطير باربعة اجنحة ويرتفع من على الارض التي يدوسها وشاهدت آخر يكفر بملاذه العابرة الزائلة املًا بادراك التي لا تزول

الفصل السابع

في الشرور الابدية وعلى الخصوص في فقر الهالكين وعارهم

ولعمري انهُ يجب علينا ليس فقط ان تنزّل خيرات هذا العالم من خيرات السماء منزلة الاذلال والاحتقار . بل ينبغي لنا ايضًا ان نستصغر شرور هذه الحياة بالنسبة الى شرور جهنم . وذلك لان الشرور الجهنمية شرور حقيقية لا يخالطها خيرٌ بتةً . قد ذكر اليانوس المؤرخ انهُ في أقصى حدود بلاد ميروبي مكان يدعى انوستي تاويلهُ مكان لا يرجع منهُ . وكان هذا المكان وهدة عظيمة عميقة جدًا يجري فيها نهران احدهما يدعى نهر الفرح والاخر نهر الحزن وعلى ضفة هذين النهرين اشجار شامخة ذات اثمار مختلفة . فمن كان يأكل من اثمار نهر الفرح كان ينسى كل أمر محزن . ومن كان يأكل من اثمار نهر الحزن كان يشعر في قلبهِ بحزن هذا حد مرارتهِ . حتى انه لم يبرح باكيًا منتحبًا الى ساعة موتهِ . على ما يدلان هذان النهران . فالنهر الاول يدل على فيض اللذة والسرور

الجاري في مدينة الله • والنهر الآخر يدل على افراط الشقاء الجاري في سجن جهنم • ولهذا ارى الله ارميا النبي سلتين مملوئتين تيناً • وقد كان التين الذي في احدى السلتين ردياً • وليس ردياً على اطلاق اللفظ فقط • بل ردياً جداً حسبما يقول النبي (ارميا ٢٤ : ٢) • وذلك لانهُ كان رمزًا الى شقاء الهالكين الذين تحدق بهم جميع الشرور الابدية ولا علاج لها • ولعمري ليس هذا امرًا غريباً عند من يتامل عظمة الخطيئة المميتة • وقال القديس اغستينوس ان كان الكافر الوثني يستحق بالخطيئة جهنماً واحدة فالمؤمن المسيحي يستحق جهنمين • لانهُ أقدم على ان يخطئ • مع علمِهِ واعتقادهِ بان ابن الله تجسد وصلب حباً بهِ فحقاً ان الخطيئة شر عظيم جداً لانها شر غير متناهٍ ومن ثم يعاقب عنها عدلاً عقاباً ابدياً • ولما كانت أعظم الشرور معاً استوجبت ان تعاقب بجميع الشرور معاً • انهُ من عظمة قيمة الدواء يستدل على عظمة الداء • والحال ان الخطيئة قد استلزمت تجسد ابن الله وموتهُ دواء لها • فماذا يكون اذاً عظم شرّها • فان كان الله خيرًا وفيهِ كل خير فلا جرم ان الخطيئة التي هي افتراء عليهِ تعالى شرّ يستوجب كل شرّ

فاعتبر الآن افراط ما في جهنم من كل نوع من انواع العذابات • قال البرتوس الكبير ان العذابات الشرعية ثمانية • عذاب الخسارة وعذاب العار وعذاب النفي وعذاب السجن وعذاب الاسر وعذاب الجلد وعذاب الموت والعذاب المساوي الذنب • والى هذه الانواع

الثمانية مرجع بقية انواع العذابات . فهذه جميعها يجريهـا العدل الالهي على الذين أبوا في زمن حياتهم ان يستفيدوا من رحمتهِ

فاعتبر اولاً ان عذاب الخسارة لعظيم وصارم جداً في جهنم . فان الخاطئ بدقيقة من الزمن يخسر الله الى الابد . فيا لتفاقم فقر من يخسر ربهُ والههُ الى الابد . ان الذي يحكم عليهِ بموجب شريعة عالمية بخسران أموالهِ يستطيع ان يربح غيرها ما دام حيّاً . واعظم مشقتهِ في ذلك انهُ يرحل الى بلاد أُخرى غريبة يطلب فيها يساراً . اما الذي يخسر الله تعالى فلا يجد لهُ الاهاً آخر ولا يمكنهُ الفرار من جهنم والله هو الخير الاعظم فخسرانهُ ربهُ هو شرٌ أعظم ولما كان خسران الله ابدياً في جهنم كان عذاب الخسارة أعظم من جميع العذابات . فان كان فكُّ عضوٍ من الاعضاء يسبب المًا غير محتمل لان العضو يزيغ عن مركزهِ . فماذا يكون انفصال خليقة ناطقة الى الابد عن الغاية التي خلقت لاجلها وذلك فضلاً عن ان الهالك يخسر كل خير بل يخسر ايضاً كل رجاء خير معاً . اننـا نستغرب فقر ايوب الصديق منذهلين من ان رجلاً غنياً نظيرهُ اضطرَّ الى الجلوس على مزبلةٍ ولم يبقَ من جميع أموالهِ غير قطعة من الخزف كان يجرد بها القيح عن جراحاتهِ . وانما هذا العلاج عينهُ ليس للهالك في جهنم الذي لو كانت المزبلة فراشهُ لكان احتسب ذلك نعيماً عظيماً فراشهُ هو الجمر المتقد . فانظر الى ما حصل عليـهِ ذاك الغني المقول عنهُ في الانجيل المقدس انهُ كان يأكل ويشرب في الآنية الفضية والذهبيـة ويلبس افخر الاثواب الخزّية .

فما عتم ان صار على ما عظم من المسكنة والفقر في جهنم حتى غدا يطلب لا الخمرة اللذيذة بل قليلًا من الماء ولم يعطهُ . ولا يتمنى أن يشرب ذلك في اناء من ذهب او بلور بل يمتصهُ من اصبع لعازر الابرص ولم ينلهُ . فيا لعظم الشقاء المعد لاغنياء هذا العالم الذين يعلقون قلوبهم في غناهم وعليهِ يجعلون اتكالهم

اعتبر ثانيًا انهُ يقارن هذا الفقر الكلي وفقد كل خير في الخاطئ الهالك عار عظيم ايضًا . وفي هذا قال القديس يوحنا الذهبي فمهُ حقًّا ان جهنم شرٌّ لا يطاق وعذابها مخيف مرعب جدًّا . غير انهُ لو أراني احد الف جهنم لم اشفق خوفًا من ذلك ولا ارتعب كما اجزع وارهب من فقد المجد الابدي واستماع صوت السيد المسيح القائل لي بوجهٍ غضوب لست اعرفك . وتوبيخهُ اياي لاني لم اطعمهُ في حين احتياجهِ وجوعهِ ولم اسقهِ في حين عطشهِ . وييسر لنا فهم جسامة هذا العار من مثل ملك مقتدر ليس لهُ ابن يرث ملكهُ . فتبنَّى طفلًا غريبًا حسنًا . وجعل أمر تربيتهِ وتثقيفهِ الى اناس يهذبونهُ تهذيبًا يليق ببني الملوك كانهُ ابن لهُ . ثم اوصى قبل وفاتهِ انهُ اذا نشا ذلك الطفل وتخلَّق باخلاق حميدة لهُ حق بالجلوس على كرسي ملكهِ والقيام مقامهُ في ولايتهِ والَّا فان بقي على ما هو عليهِ من البداوة وفظاظة الطبع فيطرد كناكر الجميل وعديم الوفاء ومذنب ايضًا ويؤمر بهِ ان يرحل الى بلاد غريبة بغاية العار والهوان . فاذ لم يجد جدُّ المهذبين صدرًا بل ذهب سدًى ولم

يتسِ بحسن تربيتهم بل كان انساناً شريراً مسيئاً الادب وغير متمسك بعرى الفضيلة حكم عليهِ من ارباب الدولة بموجب وصية الملك فحطَّ عن الكرسي الملوكي ورُحّل عن وطنهِ يقضي حيـاتهُ في نوىً غربةٍ

فهل من عار افظع واهانة اقصى من هذا العار والاهانة اعني بهِ فقـد المملكة والاسر في الغربة . ان عار المسيحي المحكوم عليهِ بالخـلود في جهنم لاعظم من ذلك وافظع جدًّا لان الله نشـلهُ من هاوية الموت وصيرهُ ابناً لهُ بالذخيرة وعقد معهُ ميثاقاً وأَوعز اليهِ ان احفظ وصاياي تملك ملـكي السماوي والآن فان نكثت ميثـاقك وخالفت اوامري اخلفت بميثاقي وحكمت عليك بعقاب جهنمي . فما بالى بهذا ولا عباء بل تعدَّى شرائع الملك المحسن اليهِ وازدرى بمعلميه ومرشديهِ اعني بهم ملاكهِ الحارس والمعلمين الروحيين الرسوليين . فمن اجل ذلك يحكم عليـهِ في ساعة الموت بان يحطَّ عن الملك السموي ويلقى دحوراً في هاوية جهنم خالداً فيها . فهل من عار اعظم من هذا

ولما كان هذا العار الجسيم ابدياً فالى الابد تحتقرهُ الشياطين وكل سكان السماء والجحيم . محتسبينهُ رجلاً عاصياً متمرداً على ملـكهِ وخالقهِ ومخلصهِ وعلى وجههِ انواع هذا العـار الفظيع وسيماهُ كما كان يصنع قديماً بالعبد اللآبق من بيت سيدهِ . والى هذا اشار اشعيا النبي بقولهِ وجوههم وجوه محرقة (اشعيا ١٣ : ٨)

الفصل الثامن

في عذابي الهالكين الثالث والرابع وهما النفي من السماء والسجن في الجحيم

اعتبر الان عذابًا آخر مؤلمًا جدًا يتعذَّب بهِ الهالك وهو عذاب النفي وقد كان الرومان يعدون النفي عذابًا باهظًا وكان لا يعذَّب بهِ الاَّ من أثمَ اثمًا ثقيلًا . ولذلك ما دام اوفيديوس الشاعر منفيًا من رومة لم يزل حزينًا باكيًا . وشيشرون حين رجع من نفيهِ أحتسب يوم رجوعهِ الى وطنهِ كيوم دخولهِ الاول في العالم . وكان فرحهُ في ذلك اليوم يضاهي فرح من تسلَّط على العالم باسرهِ ولفرط سرورهِ هتف قائلًا : ما أعظم بهاء رومة ومملكة ايطاليا ما أكثر شعبها ما أبهج أراضيها ما أفخر مدنها ما أكيس نفس الرومانيين وأرقَّ أخلاقهم . فان كان الانسان يجد مثل هذا الفرق بين مدينة ومدينة وبين سكان وسكان ويحصل على ما علمت من الضيق والتوجع لمفارقتهِ ما هو أحبُّ لديهِ واشهى لسكناهُ . فكم يتعذَّب الهالكون اذا علموا ما بين السماء والجحيم من البون والخلاف . وخبروا ما الفرق بين السكنى في وطن الاحياء مسكن القديسين حيث يدوم السلام والمحبة والسرور حيث كل شيء يبهج وينير حيث تدوي سرمدًا اصوات التهاليل وبين السكنى في مقرّ الهلاك الابدي مسكن الشياطين حيث العذاب والرجز والحزن والتمرمر والعويل . ان النبي والملك داود كان يحزن حزنًا مرًّا بشخوصه

عن وطنهِ واقامتهِ بين البرابرة وتنائيهِ عن تابوت العهد (مز ١١٩: ٥).
وهكذا الشعب الاسرائيلي لما نفي الى بابل لم يبرح مذرفاً الدموع السخينة.
ولقد حكم اسكندر الملك على كانيسينوس بافرط الصرامة واشد العقاب
والقساوة لما امر بان تقطع أُذناهُ وانفهُ وشفتاهُ ويحبس مع كلبٍ في قفص.
فلقد كان يتمنى الهالكون ان يسجنوا لا مع كلاب فقط بل مع الاسد
والنمورة ايضاً. وقد استنبط اهل مملكة اليابون في القرن العابر عذاباً
للمسيحيين لم يرَ ولم يسمع بمثلهِ قط. فانهم كانوا يعلقونهم بخشبٍ من
ارجلهم منكسين منحدرين الى نصف اجسادهم في فم هاوية تفوح منها
نتانة كريهة مميتة وضمنها كل نوع من الضفادع والعقارب وما ضاهاها من
الحشرات. والسكنى بين هذه الحيوانات لا يوازي عذاب السكنى بين
التنانين الجهنمية. فيا ما اكثر الذين هم في هذه الهاوية العميقة غارقين
لا الى نصف اجسادهم فقط بل بكل اجسادهم. ان الرومان كانوا
يعذّبون من قتل والديهِ عذاباً مرهباً ليرهبوا بهِ الاولاد الجهلة ويصدوهم
عن هذا الاثم الجسيم. فكانوا يضعون من قتل اباهُ او امهُ في جولق
مع ديك وسعدان وحية. فمن ذا لا يرتجف فرقاً من جهنم. حيث
يسجن الخاطئ مع جميع الارواح الشريرة. والحال انهُ ما من احد يطيق
السكنى في مكان يظهر فيهِ شبح خيالي مفزع. فماذا تكون السكنى في
الحفرة الجهنمية حيث كل الارواح الخبيثة. وليس من يرضى بان
يسكن في محلة فيها ممنوٌّ بطاعون او تحدق بها جيران اشرار. ولهذا اذ

رام تيميستوكليس الفيلسوف ان يبيع داره اوصى المنادي ان يمدح جيرانه بانهم اناس فضلاء صالحون. فكيف نشتري نحن جهنم بثمن جزيل ثمن انفسنا الناطقة لنسكن بين جيران اردياء اشرار . حتى ان الاباء ان وجدوا هناك مع اولادهم هربوا من السكنى معهم نفورًا كما سيتضح من خبر الاتي

قد ذكر في كتاب الباتيريكون ان رجلًا كان له ابنان . وكان يدين في الرباء مع ولديهِ . فاتفق يومًا ان سمع أحد ابنيهِ عظة نفيسة في بيان شرّ خطيئة الرباء . فانتبه لذاتهِ وتاب تائبًا عن خطيئتهِ . واخذ ينصح أباه واخاه ويحثهما على التوبة وترك هذا الامر المهلك . وان يردا للناس ما ربحاه ظلمًا . فلم ينتصحا ولا ارتدعا عن هذه الخطيئة . فلذلك باينهما وذهب الى البرية فانضوى تحت راية رهبان صالحين . فبعد مدة مات ابوه واخوه ولم يتوبا عن خطيئتهما . فاذ علم بذلك الراهب البار . استحوز عليهِ حزن عظيم لخوفه عليهما من الهلاك لعدم توبتهما . فاخذ يطلب الى السيد المسيح ان يكشف له عن حالهما . وفيما كان مرةً يصلي ويتوسل الى الله بذلك ظهر له ملاك اقتاده بيدهِ الى قمة جبل عالٍ واراه هاوية عميقة جدًا مملوة نارًا فسمع صراخًا مريعًا منبعثًا منها . فتفرس بها واذا أبوه ملقٍ في هذه النار يتلظى وقودًا فيها . ثم رأى اخاه بحال من غرق في البحر يطفو تارةً على وجه ذلك البحر الناري ويغرق اخرى . وسمعه يقول لابيهِ لتكن ملعونًا الى الابد يا ابًا شقيًا لانك اهلكتني باكتسابك لي مالًا

كان محرماً علينا . اما ابوهُ فكان يجيبهُ قائلاً : بل لتكن انت ملعوناً يا ايها الابن الخبيث . لانني من اجلك ولكي اصيرك غنياً عملت ما افضى بي الى الهلاك . فبعد ان سمع الراهب هذا جيداً وابصر حالهما جلياً توارت الرؤيا فرجع الى ديرهِ خائفاً . واقام فيهِ ممارساً افعال التوبة الشاقة الى يوم وفاتهِ . (اه)

لعمري ان هذا مخالف جداً لحال المنفى العالمي لانهُ في كل منفى بعيد عن الوطن اذا التقى الاقرباء تهادوا واجبات السلام وشعائر التعزيات الوافرة وسر بعضهم بمشاهدة بعض . بل ان الاعداء انفسهم يسالم بعضهم بعضاً في المنفى ويصطحبون كما جرت العادة . فاما في المنفى الجهنمي فان الاصدقاء والاقارب يبغض بعضهم بعضاً ويخامر كلاً منهم من قبل قريبهِ ورفيقهِ حزن مميت

وضف الى ذلك ان المنفيين في المنفى الجهنمي لا حيلة لهم ولا حرية ولا سبيل الى ان يعملوا ما يريدون وفي هذا العالم في مدة نفيهم وغربتهم فلهم ان يفعلوا ما شاؤوا . لان هذا المنفى اعني بهِ المنفى الجهنمي سجن ايضاً . وفضلاً عن انهُ سجن سفلي نجس منتن في الغاية فالهالكون فيهِ ملتصقون باجساد ملتهبة وصورهم بشعة مرهبة بقدر خطاياهم . ثم عقيب الدينونة العامة تحزم اجسادهم بعضها ببعض ويلقون هكذا بعضهم على بعض ويداسون ويعصرون كالعنب في المعصرة . فحقاً ان العذاب الذي بهِ عُذّب ثلاثة رهبان يسوعيون في مدينة ماستريك

الجزيل القساوة اذ ان الاراتقة شدُّوا ايديهم وارجلهم بأساور من داخلها ابر حديدية مرهفة اذا تحركوا نخستهم نخساً حاداً. ثم اضرموا ناراً حولهم ليحترقوا. فكان حالهم في استشهادهم هذا حال من اذا تحرك تمزق واذا سكن تحرَّق. فماذا يكون اذاً عذاب الهالكين في جهنم حيث يحترقون ويستحيل عليهم التحرك. وماذا نقول عن نتانة السجن الغير المحتملة الصادرة منهُ ومن الاجساد الكائنة فيهِ

قد ذكر في التواريخ انهُ في احدى مدن فرنسا قُبر رجل في ناوس بشكل مغارة ووضع على بابهِ حجر. ثم بعد ايام قليلة رفعوا ذلك الحجر ليدفنوا رجلاً آخر توفي حديثاً. فانحدر الى المغارة رجل يقبِل جثة المدفون. فلم يتشمَّم رائحة الجثة حتى سقط على الارض ميتاً. فان كانت جثة واحدة تبعث مثل هذه الرائحة الخبيثة فاية نتانة تنبعث من اجساد في اسوإ حال منها ولا يحصى عددها. وذكر عن عازلين الظالم الجائر انهُ شاد حبوساً مختلفة كان يعذب فيها المسجونين بفنون العذاب منها ضيق المكان وثقل الاوثاق ونتونة الجثث المرمية هناك. حتى قيل عن ذلك المكان. ان الموتى فيهِ يقتلون الاحياء

وقد اخبر فيكتور المؤرخ في روايتهِ عن العذابات التي عذب بها البندليون الاريوسيون الشهداء القديسين قال: وكان أشدَّ هذه العذابات جميعها نتانة السجن وكان عدد المسجونين فيهِ اربعة الاف وتسع مائة وتسعين رجلاً. وكانوا لضيقة السجن يلقونهم فيهِ بعضاً على بعض ويضغطونهم ضغط القمح

في الكيل. فمن ثمَّ كان يصدر عنهم وعما تقذفهُ الطبيعة وعن جثث الذين يموتون هناك نتانة خبيثة تفوق كل عقاب. ولنا مثال اخر في سجن في بلاد اليابون موقعهُ على قمة جبل وعرضهُ ستة عشر قدماً في علو اثنتي عشر قدماً وطول اربعة وعشرين قدماً. وشكلهُ شكل قفص لان حيطانهُ من اخشاب متفرّق بعضهـا عن بعض بعرض اصبعين وسقفهُ من قرميد فيقاسي المسجونون فيهِ حرّ الصيف وبرد الشتاء. ففي الصيف يذوبون من حرّ الشمس وفي الشتاء ييبسون من شدة البرد. لان الحراس المحيطـين بهذا السجن لا يأذنون للمسجونين باثواب تقيهم شرّ البرد. فيهِ طرح الانبا كارلوس سبينولا الراهب اليسوعي الشريف الاصل وغيرهُ من رهبانيتنا ومن رهبانية القديس دومينيكوس والقديس فرنسيس. وكانو زهاء ثلثين راهباً ومكثوا فيهِ اربع سنـين عراة مضيقاً عليهم لم يكن لهم حيث يمدون ارجلهم وكان صومهم متصلاً وصارماً جداً. وكانوا لا يعطون الّا ما يدرأ عنهم شرَّ الموت لا ما يسد جوعهم. وقد كان مأكلهم الاعتيادي قليلاً من الارز الاسود العتيق العفن مطبوخاً بالماء فقط ومشربهم ماء مغلى بالحشائش المرة المالحة. الّا ان عذابهم الاعظم كان افراط نتـانة السجن وكان الحراس لا يدعون هؤلاء الشهداء ان يخرجوا من السجن لاجل قضاء حاجاتهم ولا ان ينزعوا عنهم قمصانهم وثيـابهم حتى نهأوا قملاً يرعى اجسادهم. وكثر في السجن القمل والدود والحشرات المتنوعة. فكان هؤلاء الشهداء يطيقون بعـذاب شديد والم قاسٍ ما

تطيقهُ الاموات بغير ألم اذ كانت اجسادهم مرعى للدود والحشرات .
فما ظنك يا صاح في ما قاساهُ عبيد الله في هذا السجن مدة اربع سنين .
فحقاً لقد تم فيهم قول الرسول اني اموت كل يومٍ (١ كو١٥ : ٣١).
لانهم كانوا يموتون كل يوم شيئاً فشيئاً موتاً متصلاً مستطيـلاً من الحرّ
والبرد والجوع والمرض والنتانـة وغير ذلك . الى ان أخرجوا من السجن
ودفعوا طعاماً للنار وأحرقوا رويداً رويداً في سنة الف وست مائة واثنين
وعشرين

وليس هذا السجن شيئاً في سجن الهالكين فليس فيهِ نار محرقة .
اما السجن الجهنمي فنار ملتهبة دواماً . هنـا يرجو المسجونون الخلاص
والنجاة . وثم فليس رجاء . هنا يعطى المسجونون قليلاً من المأكل والمشرب .
وثم لا يسدّ جوع الهالكين الكلبي بكسرة خبز ولا يطفأُ عطشهم المذيب
بقطرة ماء . فهذه حال شقـاء الارض السفلة الأسفة التي لا تنبت الّا
شوك الاوجاع وحنظل البلايا والالم

الفصل التاسع

في عذابي الهالكين الخامس والسادس وهما عذاب الاسر وعذاب الجلد في الجحيم

كان الاسر عند الرومان عذاباً شديداً . لانهُ كان عندهم بمثـابة
الموت نفسهِ . ولذلك كان ارميا النبي ينوح على أورشليم بعويل مذرفاً
دمعاً هتوناً . لان هذه المدينة التي كانت أُم المدن والاقاليم اضحت تحت

رق الاسر تؤدّي الخراج . فباي نوح وبكاء يجب ان نرثي اسر المسيحي الذي بعد ان كان وريثًا للملك السموي أمسى أسيرًا للشيطان وأهلًا بالعذابات الجهنمية المؤبدة . ملتزمًا بان يؤدّي جزية اسرهِ بكل اعضاء جسدهِ وحواسهِ وقواهُ . فلنتأملنَّ يسيرًا ما أشرس الشيطان واصرمهُ نحو الذين ليسوا تحت اسرهِ . كيف استعمل ما اباح له الله من الاذن في بلاء ايوب البار . فنرى انهُ ضربهُ ضربةً شديدة أصبح بها جسدهُ جرحًا واحدًا دَادَ وتقوَّح . وجعل فراشهُ مزبلة منتنة كان الصديق جالسًا عليها يجرد عن جسدهِ الدود والقيح بخرقة . حتى لم يبقَ لهُ من لحمهِ الَّا قليل في شفتيهِ ليمكنهُ النطق بهما . وكان يزيد على الامهِ واوجاعهِ ألمًا اخر فانهُ كان يمثل لهُ في الليل الذي انما جعل لراحة الانسان من الاشباح ما يرعب ويخيف . وبلغ في النتانة وخبث الرائحة مبلغًا عظيمًا حتى عادت امرأتهُ لاتستطيع ان تحتمل الرائحة الصادرة من احشائهِ بفمهِ وانفهِ . ولما عادَهُ ثلثة من اصدقائهِ يفتقدونهُ ويعزونهُ في بلواه وشاهدوا ما شاهدوا من حالهِ شملهم التحير والانذهال وابلسوا غمًّا لايستطيعون ان يفوهوا بكلمة (ايوب ٢ : ١٣) . فنجد في ذلك اولًا ما يدل على انهُ ان كان الله سمح بان يدرك مثل هذا العذاب الاليم ايوب البار القديس زيادةً لبرهِ وخزيًا للثلاب الرجيم . فعذاب الهالكين بعد الدينونة باذن الله عقابًا لاثامهم اعظم منهُ جدًا . ونرى ثانيًا ما يثبت انهُ ان سامَ الشيطان ايوب الصديق شرَّ العذاب حتى مناه بالبرص واثخنهُ بالجراح . وغدا

جسده جثة مستكرهة لم يرَ نظيرها قط . ودعا ذلك الكتاب المقدس ضربةً الهية ونسب الى الله ما فعلهُ الشيطان كما ينسب تعذيب الجلاد للحاكم . فما اعظم ما يكون عذاب الخاطئ المأسور في جهنم اذا انزل الله عليهِ ثقل يدهِ فيحس حساً من رجزهِ

فهات الان نتكلم عن عذاب الجلد . ونعني بذلك كل انواع الضربات التي يتعذب بها الهالك في الجحيم . وهذا قد كشفهُ الرب لارميا النبي لما اراهُ قضيباً من القضبان التي كان يضرب بها قديمًا المذنبين فابصر النبي بقرب هذا القضيب قدرًا موقودة . دليلًا على ان ضربات العدل الالهي تاخذ ملئها في نار جهنم الابدية . غير ان هذه الضربات لا تكون كضربات قضبان من خشب . بل تكون اقوى واثقل من ضربات المطارق الحديدية . ولهذا قال الحكيم : الحكم معدٌّ للمستهزئين والمطارق تطرق اجساد الجهال (أمثال ١٩ : ٢٩) . واحسن اذ دعا الهالكين جهالًا . لانهم لم يشتروا السماء المسومة لهم من الله بثمن رخيص . بل تساقطوا في دركات جهنم الخالدة من اجل لذة وقتية . ولا يهطل على الهالك طوفان العذابات فقط . بل يتعذب كل حس عذابًا خصوصيًا ايضًا . فالعين تتعذب بنار تحرق حدقتها والقوة الباصرة تعاقب بالاشباح المريعة والخيالات المفزعة

وفي هذا ذكر عن راهب انهُ لما ناهز الموت ابصر شياطين سجين مريعي المنظر فثار في نفسهِ من الخوف ما افقدهُ الصواب فصرخ

قائلًا : لتكن ملعونة تلك الساعة التي فيها دخلت الرهبانية . ثم سكت قليلًا ثم قال بوجهٍ بشوش وصوت خافت . لتكن مباركة الساعة التي دخلت فيها هذه الرهبانية ولتكن مباركة مريم العذراء التي احببتها دائمًا من كل قلبي . فاندهش الرهبان المحدقين بهِ . وشرعوا يفتكرون في سبب ذلك ويصلون عليهِ . فقال لهم الراهب لا تتعجبوا يا اخوتي من سجسي لان المنظر الذي رايتهُ لمرعب جدًّا . حتى انني اختار القرار في نار ملتهبة مستغرقًا في رصاص مذاب الى انتهاء العالم ولا ابصر ما ابصرتهُ ايضًا . فان كان منظر شيطانين اراع رجلًا فاضلًا فما يكون جزع من يبصر الوفًا وربوات من الشياطين كلٌّ منهم ارهب وارعب من رفيقهِ وجميعهم مستعدون برجز كلي الى عذاب الخطأة

انهُ لما تامل القديس غريغوريوس قول ايوب الصديق هذا . ارض الشقاء حيث الخوف الدائم قال هكذا : كيف يمكن ان يوجد خوف حيث تقاسي اعظم الاوجاع لان الوجع يصدر من شيء حاضر والخوف خاص بالمستقبل . فما الذي يخاف منهُ من قد حصل على اقصى حدود الشقاء . الَّا انهُ لسبب ان حال من يكون حصل على شقاء عظيم جدًّا حتى ينافي كل خوف . يكون بعد حاصلًا على خير ما ولانهُ ليس في جهنم خير ما اصلًا فلذلك كان شقاء الهالكين لا ينافي الخوف . لكن كما ان الموت الابدي يميت الهالكين مع بقائهم احياء ليذوقوا مرارة الموت في حياتهم المؤبدة كذلك العذاب يؤلمهم ويرعبهم معًا . ثم ان عقاب

النظر يكون مؤلماً جداً لان الاب يرى ابنهُ معذباً والابن امهُ والاخ اختهُ والصديق صديقهُ

خبرنا يوسيفوس المؤرخ عن اسكندر بن يركانوس . انهُ رام يوماً ان يعذب قوماً من المجرمين عذاباً صارماً مرّاً فسمر منهم ثمانمائة رجل على خشب ثم قبل ان يموتوا شنق اولادهم ونساءهم امام اعينهم وكان قصدهُ بذلك الا يميتهم موتاً واحداً بل ان يميت كلًّا منهم الف موتة بمشاهدتهم هذا المنظر المميت . وقد يتعذب بابلغ نوع من قِبل هذه المشاهدة أولئك الذين كان بعضهم لبعض سبب الخطيئة وحجر العثرة والشك وضف الى ذلك الظلام المريع الذي تقترن بهِ هذه المشاهدة المحزنة : قال المعلم نيقولاوس الليراني ان الظلام المصري دعي في الكتاب المقدس مخيفاً لان المصريين كانوا يبصرون في هذا الظلام خيالات واشباحاً مرعبة فتلك هي ظلمة جهنم . فانها تعذب اعين الهالكين بمناظر مرهبة وادلهام ليلةٍ ابدية

فاما الاذان فما خلا عذاب النار التي تنفذها تتعذب ايضاً باصوات رعود مهيلة وضجيج صراخ الهالكين وانتحابهم وندبهم ولعناتهم وتجاديفهم . قد ذكر عن سيلا والي رومة انهُ أمر يوماً بقتل ستة الاف رجل على النوع الآتي . وهو انهُ امر بان يأتوا بهم الى ميدان قريب من ديوانهِ وان تلتئم جميع القضاة والاعيان في هيكل قريب من ذلك الميدان لكي يتكلم معهم . وقد كان أوصى جنودهُ أن اذا أوشكت أن افتتح الخطاب

فاهجموا حالًا بسرعة عظمى على أولئك المجتمعين في الميدان واقتلوهم جميعًا شرّ قتلة . فلما فعلوا حسبما امرهم وكان هو يخاطب اهل الدولة لم يكن احد يسمع من خطابهِ كلمة واحدة وذلك لاجل شدة صراخ الشعب الذي وثبت عليهِ الجنود ولجزيل بكائهم وعويلهم . فماذا يكون اذًا عويل الهالكين ونوحهم

هكذا حاسة الشمّ تتعذب تعذيبًا خصوصيًا بواسطة الروائح المنتنة . ولعمري ان مكسنتيوس الملك قد اخترع عذابًا جزيل القساوة جدًا . لانهُ كما ذكر فيرجيليوس كان يربط جسد انسان ميت منتن مع جسد انسان حيّ ويتركهما هكذا الى ان يموت الحيّ من نتانة جسد الميت . والحال ان القديس بوناونتورا يقول . انهُ لو أُخرج من جهنم جسد واحد من أجساد الهالكين ووضع على وجه الارض لفسدت البسيطة باسرها من نتانة رائحتهِ . فماذا يكون اذًا عذاب الهالك المتحد الى الابد بجسدهِ المتصف بهذه النتانة والموجود فيما بين اجساد أُخر كثيرة منتنة نظيرهُ . قال اشعيا النبي قتلاهم مطرحون يفوح النتن من جيفهم (اشعيا ٣٤ : ٣)

وماذا اقول عن عذاب اللسان الذي بهِ نخطى . على انواع عديدة بالتمليق والترمر والنميمة والكذب وغير ذلك . فلذلك تكون حمة التنانين وسمّ الافاعي الذي لاشفاء لهُ خمر الهالكين . ولعمري ان عذاب الجوع والعطش الذي يعذب بهِ هذا العضو عظيم جدًا . قال كينتيليانوس

الفصيح ان الجوع هو عذاب عظيم جداً . حتى ان بلية الحرب او الطاعون بالنسبة اليهِ هي سعادة لا بلية . وقد رأينا جوع ايام قليلة قد اكره الناس على اكل لحوم الكلاب والقطط والفيران والحيات والضفادع حتى الزبل ايضاً . بل اضطرَّ الامهات الى اكل لحم اولادهنَّ . فماذا يكون اذاً الجوع والعطش الابدي

ثم ان اللمس بما انهُ اكثر استعمالاً من بقية الحواس . فيتعذب اكثر منها بالنار التي تأكل دائماً ولا تفني ابداً . فمن لا يرتجف فرقاً من مجرد ذكر ما صنع فالريس وغيرهُ من المغتصبين الذين كانوا يلقون اناساً أحياء عراةً في بطن ثور من نحاس محمى ليحترقوا فيهِ . الآن هذا العذاب لا اعتبار لهُ بالنسبة الى النار الجهنمية التي تحرق اخفى ما في الباطن واظهر ما في الخارج على حدٍّ سوى . وفي هذا خبرنا الانبا بطرس المكرم رئيس دير كلوني عن كاهن شرير . انهُ لما أشرف على الموت ظهر لهُ شيطانان شرسان جداً وبين ايديهما مقلاة وقالا لهُ انا سنقليك بهذه في جهنم . واذ كانا يخاطبانهِ بهذا الكلام تطايرت نقطة من الزيت الذي في المقلاة ووقعت على يد القس المريض وفي الحال نفذت اللحم الى العظام . وشُلَّت يدهُ وجُرِّدت من اللحم فانذهل الحاضرون من قوَّة النار الجهنمية . ولهذا قال نيقولاوس نيصص انهُ لو يكوَّم كل ما في العالم من الحطب وأُضرمت فيهِ النيران حتى يصير جذوة واحدة لم تكن شدة حرارتهِ توازي شرارة واحدة من نار جهنم

وقد كتب ايضاً الانبا كيصاريوس . انهُ كان لتاودوريكوس اسقف مدينة ماستريك خادم يدعى بيبرباش بلغ مبلغاً عظيماً من الخبث وغالى في اختلاق السيئات حتى عهد الى الشيطان في نفسهِ اذا ساعدهُ اللعين في ادراك ثاره من عدوه . فلم تمضِ سنين قلائل حتى ادركهُ مرض ادنفه وادناه من الموت فعرض لهُ بحران فخيل لهُ انهُ مات . الَّا انهُ في هذه الحال خطف بالروح وغرق في بحيرة نار متاججة . فاتاه ملك وقال لهُ : انظر ما اعدهُ الله للذين يخدمون الشيطان . فان رحمك وردّك حيّاً فهل تصرف بقية ايامك في افعال التوبة الشاقة . فاجابهُ المسكين قائلاً : اني ارتضي باحتمال اشق ما في العالم لانجو من حال هذا الشقاء . فرأف الله بهِ وبعثهُ من غشيهِ وابلَّهُ من مرضهِ فشرع يمارس اصعب التقشفات فكان يمشي حافياً على الاشواك والحجارة الحادة والدم يجري من اقدامهِ على الدوام . وكان يقتصر على اليسير من الخبز والخمر ووزع كل مالهُ على المساكين . فاستغرب كثيرون صرامة هذه السيرة واشاروا اليهِ بان ينتهي عنهُ قليلاً . اما هو فاجابهم : لا تتعجبوا من صرامة توبتي لاني قاسيت اكثر من ذلك في جهنم ولو اختبرتم ما اختبرتهُ لما استغربتم شدة توبتي . ثم كان يقص عليهم عن عظمة نار جهنم قائلاً : انهُ لو قطعت كل اشجار العالم وجمعت واضرمت ناراً واحدة لاخترت ان احترق في هذه النار الى يوم الدينونة ولا ان احترق ساعة واحدة في نار جهنم التي قد اختبرت شدتها . فليتامل هذا المؤمن الذي اجترح منكراً

وليقل في كل ضيقة وبليــة اني لقد استحققت عذابًا اشد من ذلك وليس لي ان اشكو مما اصابني

ولان الكتاب المقدس يدعو جهنم بحيرةً مملوةً نارًا فلنورد هنا خبرًا روي عن القديس بطرس داميانوس نفهم بهِ على نوع ما عظمــة هذا العذاب قال : كان في بلاد لومبارديا رجل دَرِب في سلوكهِ مع الناس حسن الخطاب يحب ان يتعرّف الى الجميع ويصادق كل احد ويدخل في كل امرٍ . وكانت تدابيرهُ واموره تُنجح غالبًا بحسن دربة عقله وان اتفق الّا يتم امر على مرامهِ فكان يصلحهُ بسهولة وسرعة . واقول على الاطلاق والاجمال انهُ كان خبيرًا بامور السياسة والدراية وكان مخرّجًا فيها فما انتهى اليهِ . وان بلغت بهِ حكمتــه وافضت بهِ درايته انهُ مات اخيرًا ونشبت فيهِ براثن المنون ولم تقهِ منها دربته ولم تكفهِ شر غائلتها . فدفن جسدهُ في الكنيسة ونفســهُ انتقلت الى حيث اراد الله . غير انهُ اتفق يومًا ان راهبًا ورعًا كان ماثلًا امام الله يصلّي فرأى بالروح بحيرة نار كان لهيبها يبلغ الى السماء وشرارها يتطاير بكثرة مع صراخ وضجيج حتى ان من كان يرى اويسمع ذلك ياخذهُ الخوف والزمع . فامعن الراهب القديس النظر في تلك البحـيرة واذا ذلك الخطيب الفصيح والثعلب الدرب يعوم فيها شرقًا وغربًا وحيات وتنانين مرهبة على حافة هذه البحيرة تحدق بهــا من كل جهة وتحول بينهُ وبين الخروج . فكان ذلك المنكود حظه يولول وينوح بين تلك الحيوانات السامة وفي وسط تلك النار الآكلة

مفرغاً جهدهُ بالوصول الى حافة البحيرة الّا انهُ اذ كان يدنو منها يشرإبّ اليهِ تنين عظيم فاغرًا فاه ليبتلعهُ • فيرتد في الحال متقهقرًا ويذهب الى حافة اخرى واذا دنا صدَّ عنها ناكصاً لما اصابهُ اولاً • فعلى هذه الحال كان يجول في البحيرة المحرقة ذاهباً من حافة الى اخرى ملتمساً لهُ منجىً فلم يجد كذلك لاصدَّ لهُ عن نيرانها ولا براح كذلك يكون الى الابد • وبعدل حُكم عليهِ كما يقول القديس المذكور وبعدل القضاء على من كان في زمن حياتهِ بحسن درايتهِ وحيلهِ العالمية ينجو من كل مصيبة ولاحرج على ان تسد دونهُ سبل القرار من هذه البحيرة المحرقة

ثم اعتبر كم يتعذب الهالكون في قوى انفسهم • واولاً في مخيلتهم التي تسعى في تعذيب بقية الحواس • فقد اخبرنا اسكندر ترليانوس عن امرأةٍ كانت تطوي ليلها ونهارها حزينةً باكيةً لانها توهمت وخيل اليها انها ابتلعت حية وكان يصور لها وهمها ان الحية تمزق احشاءها • فماذا يكون تصور الهالكين الحقيقي ونخس الضمير المقطع قلوبهم • وبلايا قوى النفس فتكون أشدَّ وامرَّ • وكان الارادة تميز من البغضاء الابدية لذاتها وللخلائق ولخالقها ايضاً • وتشعر بغيظٍ ورجز لا يطاق وتتسجس كل عواطفها • لانها تطلب ما لا يتيسر نوالهُ ويدركها اليأس من نيل مرغوباتها • قال القديس برردوس هل من عذاب أعظم من عذاب من يشتهي ما لا يصير ابدًا • ولا يريد او يكره ما سوف يكون دائماً • فالامل الذي من شانهِ ان يسهل على الفلاح احتمال الحر والبرد ويخفف على الجندي تعب السهر والم

الجراحات وعلى المعترفين والشهـداء الصوم والمسح والقيود وضربات الجلادين وبقصارى الكلام الرجاء الذي يذل صعاب الامور ويرد العسير يسيرًا تفقدهُ الهالكون الى الابد . فيالعذاب من يحتمل هذه الاوجاع القادحة من غير نفع ما اعظمهُ . وهو يعلم انهُ كان يقدر ان يربح السعادة الابدية باحتمال ما هو اقل منها جدًا . لان الانسان يستطيع الان ان يربح بقرعة صدر سعادة ابدية . اما في الحياة الاخرى فلئن تالم بكل اعضائهِ بالنار التي تحرق حتى اللب واعتراهُ جوع كلبي وعطش مذيب ومسهُ من اوجاع النفس والجسد ما يكابدهُ في جهنم فلا ينتفع بذلك شيئًا ولا يجني نفعًا . ولا يكون هذا جميعهُ كافيًا لان يخفف عذاب الهالك ولو بتحويله من جهة الى اخرى لكنهُ يستمر على الدوام معذبًا على حدٍ سوى والموت يهرب منهُ حسبما يقول الكتاب المقدس . فهذا انما اليأس العظيم الذي يكون اخرة الخطاة المتجاسرين الجاحدين الان رحمة الله . ان جهنم لمملوة من الذين كانوا يترجون في حياتهم الا يهبطوا في دركاتها ومن الذين قد قطع عنهم رجاء الخروج منها رجاهم السابق بانهم لا يموتون في حال الخطية . فعاد الان رجاؤهم باطلًا ولحق بهم ياس موءبد

وتكون القوة الذاكرة داعية لعذاب الهالك عذابًا شديدًا . لان كل ما عمله من الخير او الشر فعليه عقاب منهُ . اما عقاب الخير الذي صنع فمن خسرانهِ ثوابهُ واما الشر الذي عمل فلانهُ يكافأ عليهِ . سوف يذكر المثلث الشقاوة انهُ كان يقدر ان يربح السماء مرارًا ولم يشاء بل اختار جهنم .

فيقول لنفسهِ كم مرةٍ كان في طاقتي ان أُصلّي وفضلت عليهِ الملاهي الباطلة ولذلك انا اتعذب الان . كم مرة وجب عليَّ ان اصوم ونزغتني شهوة الحنجرة الى المآكل ولذلك انا اتعذب الان . كم مرة بذَّرت في سبيل اللذة ما كان يجب ان اصرفهُ في سبيل الصدقة وكان ذلك داعيةً لعذابي الان .
كم حرضني الناس على مصالحة عدوي ومسالمتهِ وبقيت مصرًّا على الانتقام منهُ حافظاً لهُ الضغائن ومن اجل ذلك أقاسي مرَّ العذاب . كم وجدت سبيلًا الى الصبر فملت عنـهُ الى بث سمّ الحلق والغضب فبعث بي الى حيث انا من العذاب . كم تيسر لي ان امارس افعال الاتضاع واظهر لقريبي حبي وأُخلص لهُ ودّي . واستحبيت عليهِ التكبر والتشامخ وها انذا اجرَّع كاس العقوبة والالم . كم تمكنت من مناولة الاسرار المبررة فأبيت ان اتعزَّل عن خطر الخطاء . فوقعت في موقع العذاب لم تعوزني قط وسيلة لاعبد ربي ولم تفتني فرصةٌ ولم افترصها ولذلك انا اتعذب الان . ثم يقول الهالك في نفسهِ تعلَّم الان ايها الشقي الملعون انك خسرت السماء لانك آثرت التنعم ولو أردت لربحت السعادة الابدية وكنت الان بين أجواق الملئكة وحزت فوز الافراح الدائمة ومخلصك خيَّرك فيها ورغبك اليها وخصصك الى اكتسابها . وانت ايها الغبي الملعون فصددت عن السماء وتخيرت خضرة الدمن بل المزبلة . فالذنب فيهِ لك ولك الان عذاب آبدٌ تكفِّر بهِ عن جريمتك

اما العقل فيتعذب بافكار مؤلمة محزنة جدًّا . فلا يلق حينئذٍ

ارسطوتاليس في حكمتـهِ لذةً ولا سينيكا في فلسفتهِ فكاهةً ولا جالينوس في عذوبة طبهِ ولا يستحسن من سواهم من العلماء في علومهم ومعارفهم طرفةً . وقد جاء في الاخبار انهُ ظهر لاسقف من اساقفـة باريس معلم ماهر كان قد هلك في جهنم . فسألهُ الاسقف هل بقي لك شيء من العلوم في جهنم فاجابهُ الشقي اني لست اعلم الان غير ثلثة اشياء . اولها انهُ قد قضي عليَّ حتمًا بالهلاك الابدي . ثانيها ان هذا الحكم لا يردُّ ولا يرجع فيهِ . ثالثها اني خسرت مشاهدة الله الى الابد طمعًا في ملذات العالم والجسد

ويتولَّد في هذه القوة العقلية شيء يعرف بدود الضميـر ويكون تعذيبهُ اشدَّ واقسى من عذاب النـار . وقد ذكرهُ سيدنا يسوع المسيح ثلث مرات في اواخر احدى عظاتهِ معلنًا ان دودهم اي دود الهالكين لا يموت ونارهم لا تطفأ . قال القديس اغستينوس عن الضمير في هذه الحياة انهُ مما يحزن النفس ويؤلمها ما يسومهـا شرَّ العذاب وهو ضمير من تدنس بالخطيئة . لانَّ لذات نفسهِ مجلبة لعذاب شديد لو أكرهَ أبٌ على الحضور حيث يشنق ابنهُ لكان ذلك عذابًا عظيمًا لهُ . واعظم منهُ ان يكون جلادهُ وامرَّ واقصى من هذا وذاك أن اضطرَّ الى ان يشنقهُ على باب بيتهِ ويبقى هكذا امامهُ مشنوقًا لكي يشهد هذا المنظر المحزن المميت كلما دخل وخرج . ويكون هذا الحكم في غاية من القساوة المفرطة لو اضطرَّ الاب الى ان يشنق نفسهُ او يمزق لحمانهُ باسنانهِ او يميزها

باظافرهِ • فهذا شان الضمير الشرير لان بهِ تمزق الخطاة ذواتهم في النيران المؤبدة ويزيد المهم هذا حسدُهم الذين اكتسبوا الملك السموي بتعب وجيز بينا هم قد خسروهُ لاجل خير ارضي دني او لذة وقتية • فقد ذكر في السفر الالهي عن عيسو انهُ لما عرف ان يعقوب اخاهُ حاز بركتهُ ختلاً صاح صراخاً عظيماً وجعل يزأر كالاسد من شدة الم يأسهِ • فماذا يكون اذاً عجيج الهالكين ورجز يأسهم اذا رأوا ان الصديقين اخلسوا منهم البركة وهم خسروها الى الابد لاجل مجرد غباوتهم

الفصل العاشر

في عذابي الهالكين السابع والثامن وهما الموت الابدي والعذاب المعادل الذنب

اعلم ان الكتاب المقدس يسمي الهلاك الابدي موتاً ثانياً • لان هذا الموت الروحي يكون بعد الموت الاول الجسدي • وهذا الموت الثاني يدرك النفس بعد فناء حياة الجسد وهو موت وحياة معاً وضعف الاول لان فيهِ عذاب الموت آبدٌ لا يزول • فكما انهُ ما من شرّ اعظم من الموت كذلك ما من موتٍ شرٌّ من هذا الموت الذي قال عنهُ القديس اغستينوس • انهُ لا موت شرٌّ من موتٍ لا يموت • وقال القديس غريغوريوس ان موت الهالكين في جهنم لا يدركهُ موت • والانتهاء لديهم خالٍ عن الانتهاء • لان الموت هناك حيٌّ والانتهاء يبتدئ دائماً ثم موت جهنم ضعف الاول لوجود موت المساءة وموت العذاب

لانهُ لا موت أَشنع من موت النفس • وهو الخطيئة التي لاينفكُّ الاشقياء الهالكون ملطخين بهـا الى الابد وهم بالغون من الشرّ أشدَّ مبلغ ومن الشناعة اعظمها ما لا مثيل لهُ وهو شناعة المساءة • لعمري ان هذا الحال شرٌّ من عقاب النار• ثم بعد شرّ الخطيئة ان من ضروب العقاب ما هو أشدَّ من جميعها وهو عقاب الخطيئة ولما كانت جهنم عقاب الخطيئة كانت عقاباً أعظم من الموت بل هي الموت الاعظم والاشرّ • فيا لعظم ارتفاع العدل الالهي على العدل البشري • فان عقـاب الموت اعظم عقاب يوقعهُ العدل البشري على المجرمين • وانما هذا أجلُّ ما يتوق اليهِ الهالكون ومعظم ما يتمناهُ من شجب خالدًا في جهنم • لانهُ ان كان الخبر عن عقاب لاانتهاء لهُ ولا زوال لمن عوقب بهِ يُرهب السامع ويُرعبهُ فما يكون مخبرتهُ الى الابد

قد ذكر في خبر القديسة ليدوفينـا البتول انهُ افتقدها في حين مرضها المستطيل العجيب رجل كاشفها بما في نفسهِ من المساوىء والاثام ولما لم تكن ندامتهُ كفارة عن ذنوبهِ فعهدت اليهِ القديسة بالوفاء عنـهُ للعدل الالهي بشرط ان يستمرّ ليلة واحدة كاملة راقدًا على فراشهِ على جنبهِ الواحد من دون ان ينقلب الى الاخر فتبسم ذاك وقال لهـا ان كانت هذه عقوبة خطاياي فاني قائم فيها سريعًا وباء بفرح الى بيتـهِ • فلما كان المساء وحان وقت الرقاد أعدَّ فراشهُ ومهدهُ ثم اضجع عليهِ كما شاء على جنبهِ فما مضت مدة من الزمن حتى سوَّلت لهُ نفسـهُ التحول من

جانب الى آخر وخال لهُ انهُ لم يضطجع قط على فراش أخشن من ذلك الفراش • فساءتهُ جدًّا هذه الحـال وضجر من المكث على جانب واحد • فاخذ يخاطب ذاتهُ قائلًا : ما سبب انزعاجي هذا وما داعيـة قلقي ولم يشقُّ عليَّ الرقاد على هذا الفراش بغير تقلب فالمهـاد وتير ناعم وانا صحيح الجسم • ولا يعوزني الَّا التحوُّل من جهةٍ الى اخرى • وهو دون كل الامور فادرأ عنك كل سجس واصبر على هذه الحالة الى الغد • فتطاير عن جفنهِ النعاس فاخذ يذكر الابدية متروّيًا في امرها مخاطبًا نفسهُ قائلًا : ما هذا الامر ألا تقدران تضجع على فراشٍ لين ليلة واحدة ساكنـًا بل لقد صار الرقاد والراحة لديك عذابًا • فكيف تكون اذًا حالك اذا اضطررت اليهِ ليلتين او ثلث ليال • لقد كنت تعدهُ موتًا بل شر منهُ • فما اوهن قوتي واقل اصطباري فانني اضطرب واتقلق من امر دون الطفيف • فماذا اصير اليهِ اذا عدمت النوم اسابيع كثيرة او بليت بداء المفـاصل والحال اني عارف ومتحقق انهُ قد اعدَّ لي عذاب اعظم من ذلك بما لا يحد في جهنم واليها تفضي بي خطاياي العديدة فاي فراش يمهد لي هنـاك وسوف أتلظَّى على جمر ملتهب ويكون لحافي الكبريت المتقد واستمر ملقى هناك على بساط من جمر متقدةٍ غير ليلة مدى الابدية • ولا اقدر ان انقلب جنبًا لجنب الى الابد • فحيَّ يا نفسي على احسـان سيرتي واصلاح سريرتي وهلمي نعبد الله خالقي كذلك تروى واطال الفكرة فنتجت لهُ رويتهُ وقال ما قال واصلح سيرتهُ

وعدا العذابات المتقدم ذكرها عذاب يعادل الذنب . ولهذا قيل في سفر الرؤيا (١٨ : ٧) . بقدر ما مجدت نفسها وتنعمت كافأوها عذاباً ونوحاً. وتسهيلاً لفهمهِ نورد خبراً جزيل الاعتبار مآلهُ ان الله يعاقب بالذنوب في جهنم قدر جسامتها . انهُ قد ذكر الانبا كانتيبراتي . انهُ في نواحي مملكة النمسا كان جنديٌّ شجاعٌ باسل وكان مولعاً في ركوب الخيل وكلفاً بسباقها في مضمار المباراة وكان متمرغاً في حمأة الفسق والفجور . فمات موتاً شقياً وكان لهُ امرأة سالكة في سواء السبيل سائرة في طريق التقوى والتورع فنقلت بالروح يوماً الى حيث رأت زوجها كانهُ لم يزل حياً في جسدهِ . ومن ثم استدلت على شقاء حالهِ . لانها ابصرت حولهُ جماً غفيراً من الشياطين وقد امرهم اركونهم بان يلبسوا ضيفهم الجديد ثوباً من حديد داخلهُ اشواك حديدية مسنونة وحسك حاد . ثم بعد ذلك امرهم بان يضعوا على راسهِ خوذة حديدية ويسمّروها بمسمار طويل ينفذهُ من رأسهِ الى رجليهِ . ثم يعلقوا بعنقهِ ترساً حديدياً ثقيلاً يرضض عظامهُ . فانجز الشياطين اوامر اركونهم بتدقيق واسراع . ثم قال لهم الاركون . ان هذا الرجل كان كلفاً بلهو ركوب الخيل والفراسة والاستحمام بحميم الماء واستنشاق الروائح الزكية والرقاد على الفرش الناعمة والتنعم بالملذات الدنسة فاتوهُ بما عندكم مما يناسب ذلك . فامسكتهُ الشياطين وطرحوه في وسط لهيب متقد . ثم بعد ان احترق هناك مدة اضجعوهُ على فراش من حديد محمى عليهِ ضفدعة لها اعين مرعبة جداً فامتدت

عليهِ وضمتهُ اليها ضمًا شديدًا . فهذا ما رأتهُ امرأتهُ الفاضلة وما تاملتهُ بحزن لايوصف طول ايام حياتها . فلنخافنَّ اذًا من العدل الالهي ولنتحققن غاية التحقق ان ما اخطأنا بهِ هنا باعظم استلذاذ نعاقب بهِ هناك باشد عذاب

الفصل الحادي عشر

في الفوائد الناشئة عن التامل بالعذابات الابدية

ان جميع ما اوضحناهُ عن العذابات الجهنمية لاقل جدًّا مما هي عليهِ حقيقةً لان بين الخبر والاختبار تفاوتًا وشتان ما بين الخبر والمخبرة . انهُ لما بلغ المكابيين خبر تدنيس الهيكل وهدمه حزنوا وبكوا وازدادوا حزنًا ونوحًا وبكاءً لما عاينوهُ مهدومًا خاويًا على عروشهِ ومذبحهُ مدنس وابوابه مكسرة جذاذًا . فاخذوا يمزقون اثوابهم وينتفون شعورهم ويذرون الرماد على رؤوسهم وانطرحوا على الارض يتنهدون الزفرات ويتنفسون الصعداء ويانون انينًا لا يقطعهُ عزاء . ويمكننا ان نجتني نفعًا جزيلًا من مجرد اعتبار الامر اعتبارًا دقيقًا . فلنتخذنَّ مشورة القديس برندوس اسوة بعملنا ونحدر الى جهنم ونحن احياء أحرى من ان نحدر اليها ونحن اموات . اما الفوائد التي يجب ان نجتنيها من تامل هذه العذابات الخالدة فخمسٌ على الخصوص

واولاها محبة عظمى لله تعالى واسداء الشكر الجزيل لهُ عزَّ وجلَّ بانهُ لم يلقنا وقودًا في عذابات جهنم وان استوجبناهُ مرارًا . فقل لي يا صاح

ما فضلك على ربك وقد اخطأت اليهِ اضعاف ما أخطأ اليهِ كثيرٌ من الهالكين وما مزيتك عليهم حتى قصدك بحسن المعاملة والرحمة وعامل أولئك بصرامة العدل . فلو نشل الله من وهدة جهنم احد أولئك الاشقياء الهالكين . ترى كيف كان يشكر احسان ربهِ ويفي بعهودهِ لهُ ويبرّ خالقهُ ويحسن سيرتهُ ما استطاع ويمارس رياضات التوبة القشفة بنشاط جزيل . وكيف كان يستخف باصعبها ويستعذب امرها . فان يقك الله شرّ الهبوط في جهنم ذلك منّة منهُ أعظم جدًّا من انقاذك منها بعد ان سقطت . ودليلهُ ان الدائن اذا راعى مدينهُ ولم يلحق بهِ هونًا ولم يودعهُ سجنًا ووهب لهُ ما لهُ عليهِ رحمهُ رحمةً جليلةً . وان الحقهُ بهِ وغلّهُ بالقيود واذاقهُ مرّ الجوع وغليل العطش وسمح لهُ بدينهِ قصدهُ بحسن المعاملة ايضًا والرحمة الاولى اعظم

الفائدة الثانية التي نجتنيها من تامل العذابات الابدية هي الصبر على مضض بلايا هذه الحياة احترازًا من أرزاء بلايا الحياة الاخرى وعذاباتها . وهذا اشار اليهِ التلميذ الحبيب في الاصحاح الرابع عشر من جليانهِ . فبعد ان قال ان دخان عذاب الهالكين يصعد الى دهر الداهرين قال ها هنا صبر القديسين . وذلك لانهم اذ يتاملون ان جميع ضيقات هذه الحياة تزول مع الزمن وان عذاب الحياة المزمعة يدوم الى دهر الداهرين . لا يبالون بمشقات العالم بل يحتقرون كل شدة زمنية . وعليهِ يحثنا الذهبي فمهُ على ان لا نشكو من الم بلوى زمنية صبرًا . والسبيل

اليهِ التامل في الرزية الآبدة واستشر ما تبلوهُ من حقير الشرور يصدقك خُبرك خبراً عن عظيمها . فان دخلت الحمام تستحمُّ ووجدتهُ في غايةٍ من الحرارة فاذكر حينئذٍ حرارة نار جهنم . واذا دهمتك حمى شديدة فوجّه فكرك الى اللهيب السفلي وقل متاملاً : ان كانت حرارة حمام او سخونة حمى تضائقني هكذا فماذا تكون حالي اذا هبطت وقوداً في جهنم

الفائدة الثالثة الواجب تحصيلها من ذكر بلايا الحياة المزمعة انما الازدراء بجميع خيرات هذه الحياة . لاننا ان دُفعنا بعد موتنا ذكوةً للنيران المؤبدة فلا يعود لدينا كل ما في هذه الحياة الّا خيالاً فات ولا غناها الّا زبلاً ولا كراماتها الّا هواناً ولا لذاتها الّا مرارةً . فلو دريت كيف انقضت حياة موريكيوس الملك وشهدت بنيهِ وامرأتهُ قد ذبحوا نحراً نصب عينيهِ ثم ذبح هو طوعاً لامر رجل خائن شرير كان من لفيف خدامهِ لكنت بلا ريب تقول هوان كل ما نالهُ هذا الملك من العزّ والمجد في مدة عشرين سنة باطلٌ بطلاناً وان كان عذابهُ هذا زمنياً فقط اذ مات موت الصالحين . فان كان سموم يوم واحد يذهب بيانع سعادة عظمى استمرت عشرين عاماً فاي امر في حرزٍ من سموم ابدية لا زوال لعذابها ولا حدّ لاتساعها . فلو كنت ترى اليغابلوس قتيلاً منحطاً من فراش تنعماتهِ الرفيع الى اقذار بالوعةٍ خائضاً في دمنها اما كنت تعدّ سعادتهُ شقاءً وغبطتهُ بلاءً . فما قولك اذا شاهدتهُ الان ملقىً في جهنم غريقاً في بحيرة كبريت تضبوهُ نارهُ الى ابد الدهور تسومهُ الشياطين شرَّ العذاب

وقابل تينك السنتين اللتين قضاهما على سرير الملك بالابدية التي يتعذب بها

والفائدة الرابعة ان تاملنا في العذابات الابدية ينكب بنا عن اسراف الزمن عبثاً لانخلو منهُ بطائل . فان في تامل ما يكابدهُ الهالكون من العذاب في جهنم بلا نفعٍ داعياً اليهِ وباعثاً عليهِ ومحرّضاً على الانتفاع من الزمن . خبرنا بطرس رجينالدوس عن راهب ورع كان يصلّي واذا بعويل ونواح طرق أُذنيهِ فقال من الباكي هنا فقيل احد الهالكين . فقال الراهب وما سبب عويلك وبكائك . قال الشقيُّ ما يبكيني ويوغر قلبي حزناً انما ذكر الزمن الذي اضعتهُ سدًى . واعلم ان مثل هذا الذكر مجلبةٌ للدمع الهتون عندنا قوم الهالكين . فما اشقى حال الذين خسروا ابدية سعيدة لاجل تضييعهم زمناً وجيزاً . فلا نتلفنّ الان بفساد اللذة ما لا نقدر فيما بعد ان نصلحهُ بكفارة النوح والبكاء بل فاسفوا على ما فات واقرعوا السنَّ ندماً على ما اجترحتم من السيئات انما الندم نافع الان حزراً من ان تندبوها في عذاب جهنم ضياعاً وخسراناً

خامساً ومن اخص المنافع التي تعود علينا من تاملنا في العذابات الجهنمية ان تمقت الينا الخطيئة ونمقتها أشدَّ المقت لانها مدرجة لذاك العذاب الجهنمي ومؤدية اليهِ . ليت شعري هل من شرّ أعظم من شرّ خطيئة وان خفيفة اذ ان احتمال عذاب ابدٍ في نار مؤبدة لايصلح كفارة عنها . ولما كان هذا المضمون لا يستوفى بقصير العبارة ولا يقتصر بهِ على الايجاز بل يستلزم قولاً مسهباً قصدنا ايرادهُ في الفصل التالي

الفصل الثاني عشر

في عظم شر الخطية المميتة الغير المتناهي الذي يعزلنا عن نعيم السماء الابدي الى عذاب جهنم السرمدي

فانعم يا صاح النظر واعلم ان شرّ خطيئة مميتة تقترحها باسرع من طرفة عين وتشتري بها شقاء ابدًا لغاية في الشر والمقت اذ انهُ يستوجب عذاب جهنم الهائل الى ابد الابد. بل اجمع علماء اللاهوت على ان هذه العذابات الابدية نفسها ليست كفوءًا لعقاب الخاطئ مليًّا بما اجترح وعللوهُ بان وزر الخطيئة لاثقل من هذه الشرور الغير المحدودة فكان عذاب الخطيئة ظلًّا لها والخطيئة بمنزلة الجسم. ولذلك كان بين الخطيئة المميتة وما يلحق صاحبها من المحن في جهنم تفاوت كما بين الانسان وظلهِ من التفاوت والتباعد. فالخطيئة اذًا وحدها شرّ محض والنار الجهنمية بالنسبة اليها ليست الَّا بمنزلة ظلّ لضحٍ. ولما كانت هذه النار تنجز قضاء العدل الالهي فلا سبيل الى تسميتها شرًّا بل لنا ان ندعوها خيرًا. وكما يستدل على عظمة الاجساد من ظلها كذلك شر العذاب الجهنمي الذي هو كظل الخطيئة يُشعِر بعظم شرها. فان الخطيئة تلحق بالله عظيم الهوان وقبيح الاحتقار ولا يخفى ان الاهانة بقدر فضل المهان وسموّهِ فما تسامى المهان وتعالى شانهُ تتجاسم الاهانة ويقبح الافتراء. فلما كانت العزة الالهية اللاحق بها احتقار الخطيئة غير متناهية كان الاحتقار اللاحق بها غير متناهٍ

ولعمري ان الاهانة التي تختلق افتراءً تقع عند الجميع أشدَّ موقع من الكرامة التي تحق وتلزم . فلو أقدم أكَّارٌ على شريفٍ ولطم خدهُ ضربةً بغير عدل لحقَّ لهُ ان يلتهب عليهِ غيظاً فوق ما يخامرهُ من السرور والفرح عند تكريم الشعب واحترامهم لهُ . ومن ثم فلا غروَ من ان خطيئة مميتة اختلقتها خليقة الى الهٍ لا يتناهي جلال عزتهِ تكون اعظم في نوعها من كل اكرام الملئكة والقديسين كافةً . وعليهِ فشرّ الخطيئة غاية في العظم حتى يستحيل على خليقة ان تفي عنهُ باستحقاقها وفاءً تاماً وتنال عنهُ الصفح . فلو لم تكن خطيئة ادم تعثو في كل نسلهِ مفسدةً ولم يخطئ داود النبي ولا اساء فعلاً بولس الرسول ولا أثم إثماً القديس اغستينوس ولا اجترحت جرماً مريم المجدلية ولا جاءت نكراً مريم المصرية بل ولو اعتزل عن وجه البسيطة كل اثم مختلق من البشر والملئكة ولم يبقَ من اوزار الخطايا المميتة الّا خطيئة فكر سوءٍ ارتضى بهِ ادنى الناس لكان شرّ هذه الخطيئة عظيماً جداً حتى لا تستطيع خليقة من الخلائق ان تعطي عنهُ للعدل الالهي كفارةً وافية موازية . ولو ان الله لقاء هذه الخطيئة امر بان تنشق السموات وتتساقط الكواكب وتزلزل الارض زلزالها وتجف البحار وتتقلّب العناصر وتدك راسيات الجبال وترمَّ البشر وتتحوَّل الى رماد وتحطّ الملئكة عن كراسيهم ويعود كل شيءٍ الى العدم لما توفَّى عدل الله حقهُ . ذلك لان تهدم السموات واضمحلال البشر واعادة الملئكة الى العدم لا يخترق حدَّ المتناهيات . والله المهان فوق كل محدود ودونهُ

كل متناهٍ ولاقياس ولامناسبة بين الغير المتناهي والمتناهي وتصدع بهِ ادلة القياس و بالتالي انهُ لا مناسبة ولاشبه بين عذابات جميع الخلائق والاسية الى الخالق. فلو تكلف الشهداء اوجاعهم الحادة وتحمل المعترفون صعاب تقشفاتهم واذرفت والدة الله المجيدة دمعاً هتوناً حياتها كلهـا كفارة عن هذه الخطية ونذرت لله مالها عندهُ من الاستحقاق تبرعاً وتطوعاً لقصر كل ذلك عن نيل مغفرتها ولاوفى بهِ ولاوازاه فاستحـال التكفير عنها على غير ابن الله. فتلك مسـاآتك وهذه مقدرتك على ان ترمّ شانها ايها الانسان ذاك فعل أساءتهُ وهذه كفارتك عنهُ فسبيلك ان ترتعد فرقاً عند ذكرك انهُ لايستحيل عليك ان تجترح اثماً مثل الذي اجترحت

ولكي يتضح لك جلياً ما اجسم شر الافتراء على الله فاعلم وتروَّ لا في كنهِ الفعل فقط بل في اعراضهِ ايضاً وهي سبعة كما رواهُ القديس توما اللاهوتي واجمع عليهِ جمهور العلماء اللاهوتيين. قالوا يتكيف كل فعل خطية مميتة بسبعة اعراض تعرف بظروف الحدوث فكل فعل حادث لايخلوان يتخلق بها. والاول هو ما يلحق الفعل المميت من قبل فاعلهِ. والثاني ما يلحقهُ من قبل الشيء المفعول. والثالث ما يلحقهُ من قبـل المكان الذي يفعل فيه. والرابع ما يلحقهُ من قبل الوسائط التي يُفعل بها. والخامس ما يلحقهُ من قبل الغاية التي يُفعل لاجلها. والسادس ما يلحقـهُ من قبل النوع الذي يتم بهِ الفعل. والسابع ما يلحقهُ من قبل الزمن الذي

يكمل فيهِ الفعل • وضاف اريسطوتاليس اليها عرضاً اخر وهو ما يلحق الفعل من قبل الشخص المفعول ضده ذلك الفعل

واذ تقرر ذلك نقول ان الظروف المذكورة تكسب الخطية جرماً ومقتاً • واولاً من يرتكب الخطية فان هو الّا انسان مظنة الاحتقار ومالف الازدراء يبارز بمعصيتهِ الله ربه ويجترئ بقبيح فعـالهِ على باريهِ فلو اقدم على ذلك اله مثل الله لكان فعله نكراً وجاء اداً • فما اذا اقدم عليهِ من اخذ من حماةٍ وجُعل من طين

ثانياً فلنعتبرنّ ما يفعل الخاطئ اذا اخطأ • قال القديس انسلمس ان فعل من يخطئ كفعل من يريد ان ينزع عن الله تاج ربوبيتهِ فيتتوج بهِ وعند القديس برنردوس انهُ كمن يروم ان يقتل الله • اما الرسول الالهي فينزلهُ منزلة من يحاول ان يطرح ابن الله تحت رجليهِ ليدوسهُ او يصلبهُ ثانيةً (عب ١٠ : ٢٩) • فلو اجترأ احدٌ بمثل ذلك على بعض الملوك اما كان ذلك كافياً لان ترضض عظامهُ وتمزق احشاؤهُ وتهدَّم بيوتهُ وتستـاصل ذريته • فهذا عين ما يفريه الخاطئ بخطيتهِ على الله الضابط الكل ورب الارباب وملك الملوك فلا ريب ان مجرد التفكر في هذا الامر يوعب المتامل خوفاً ورعبة • ايهـا الاله القدوس من ذا يستطيع ان يفسر ما يجترئهُ الخاطئ عليك وعلى نفسهِ ايضاً انهُ يتناهى في احتقار عزتك الالهية ويدوس ناموسك الاقدس ويستهزئ بعدلك ويضحك من مواعيدك ويجاهر برذل مجدك المعد له فيصدُّ عنك ويستاسر للشيطان الى الابد •

فيتوخى رضى عدوك وعدوه الالد ولايترضاك ايها المحب السماوي الخلوص فيرغب الى مهلكه عنك ياموئل الخلاص ومحتد كل خير فكانما آثر لديه ان يموت بئس ميتة في جهنم وساء القرار من ان يحيي حياة ابدية في السماء بخدمته عزتك وطاعته لنواميسك

ثالثًا فلنعتبرنّ اين لاينصح الخاطىء بعهده بل يخون ربه انه ياتي نكره هذا في عالم الله تعالى وبمرأى منهُ عزّ وجلّ ويحيط علمًا بان ربه وخالقه الذي يخطىء اليه بجرأة شاهد لما يجترح فهو عليم بذات الصدور ولاتخفى عليه خافية . فان امكن الانسان ان ياثم حيث لايبصره الله لكانت مع ذلك خطيئتهُ عظيمة جدًّا فما اذا ركب اثمًا في منزله تعالى وبمرأى منهُ . فاية جهنم لايستوجب مثل هذا النكر الفظيع ومن ثم فما كان يذرف النبي من الدموع السخينة ويشعر به من الم دونهُ رشق القلب بحاد السهام لم يكن عن غير داع . فكان يقول لله نائبًا هائدًا اليه الشر قدامك صنعت . بل لايختلق الخاطىء شرًّا في بيت الله ونصب عينيه فقط بل يجترئهُ عليه والله يحملهُ على ذراعيه ايضًا ويحفظهُ بقدرته الضابطة . فلو قام عقوق يلطم امهُ ويخدش وجهها وينهش ذراعيها ويطعنها بسكين بينما هي تلاطفهُ وتضمهُ الى صدرها مما وقر فيها من حبه اما نزل عند الناس منزلة شيطان متجسد بل شر منهُ . فتلك حالة الانسان وذاك شانهُ اذا اساء الى الله بينما هو رقيبهُ يحتاط عليه ويحفظهُ بين ذراعي عنايته الضابطة

رابعاً فاعتبر كيف يختلق الانسان الخطية وبمَ انهُ يسدد نحو خالقهِ أسنة اهانته لهُ فانهُ يقنط نعم ربه ويتخذ أحساناتهِ مدرجةً لاحتقاره ويردعليهِ افضالهُ تعالى عن كل وصم . فان كان الجحود بالنعم والكفران بها عند الناس شيناً وشائبة وعدم وفاء يعيفهُ الجميع ويأباه فما ظنك فيما اذا رد الاحسان على المحسن واساء اليهِ استعمالهُ وما ظنك بخيانة جندي يشرع على قائدهِ سنانهُ ويجرد عليهِ سيفهُ الذي قلدهُ بهِ فهذا انما يعملهُ الانسان ويكون على ربه ضداً. لان النطق الذي رزقنا الله عزت قدرتهُ وباقي قوى الجسد والنفس يستخدمها الخاطئ . لاقتراء المعصية ولا يقف عنده بل يغالي في اجترائهِ واتقاحهِ الى ان يستنجد الله في فعل السوء كبُر الله عن كل سوء ويستظهر بهِ عليهِ وهذا ما يشكو منهُ تعالى بلسان اشعيا نبيهِ قائلاً : انك استخدمتني في خطاياك اش ٤٣ : ٢٤) . فان الانسان لا يقدران يحرك يدهُ او يباشر عملاً مادياً طبيعياً الّا بمعاونتهِ عزَّ وجل وتوفيقهِ فاذا هو حرك لسانهُ بالتحرم اويدهُ للسرقة اذا هو يستعمل الله في اساتهِ الى الله اجارنا الله من كل امر منكر

خامساً والغاية التي يقصدها الخاطئ . بخطيتهِ تزيد اثمهُ اثماً وخطيتهُ قباحة . فاعتبر لِمَ يجترح الخاطئ اثماً فيحرك عليهِ حفائظ ربهِ وما يبعث بهِ على احتقار خالقهِ وخيانة ربهِ ومالك ارقاب العباد وما يحملهُ على ان يدوس ابن الله برجليهِ ويصلبهُ ثانيةً وما يوسوس اليهِ ذلك أ لعلَّ ما يحركهُ الى هذا النكر الفظيع قصدهُ ان يلاشي العالم او ينقذ بشراً

من الهلاك ويطوّقه منّة الخلاص او يتخذ قبح فعله مدرجةً للتألُّه كلّا ثم كلّا . بل انما نزغه الى ذلك لذةٌ دنية دنسة وما سوَّله لهُ غرض ألمي . وعلى الاطلاق انهُ يفعل ذلك لانه يشاءُ لا لداعية اخرى . فيا لهُ من اجتراء فظيع واتقاحٍ قبيح بليغ . يا لهُ من نفاق ردي وممقوت فكيف لا ترجم السموات من يهين الله خالقهُ بصواعقها . وتلاشي من على وجه الارض يتجاسر بمثل هذه الجسارة على بارئها جلت عزتهُ

سادساً فلنعتبرنَّ نوع ارتكاب الخطيئة الذي يزيدها ثقلاً . فان الانسان يخطي . بعد ان سمع وشهد شدة انتقام الله من الخطاة بعد ان عرف ان ابهى الملائكة الذين كانوا في السماء قد استحالوا الى جمر اسود جهنمي لفكر واحد ردي . وان والدينا الاولين طُردا من فردوس النعيم ودُحرا في هذا الوادي وادي الدموع لمجرد تناول ثمرة قد نُهيا عنها . وبعد ان رأى السموات هاطلة طوفاناً عرمرماً على الارض كلها ومنزلةً ناراً محرقة على مدن كثيرة لاجل الخطيئة لا غير . وبعد ان ابصر الارض فتحت فاها وابتلعت اناساً كثيرين مع كل ما يملكونهُ لتمردهم على موسى . وبعد هذا وهذا كيف يجاسر الغبي الوقح على ان يخطي . وذلك لامر يليق ان يذكر بل لمراضاة ساطانائيل وايثارهُ على الله ربهِ ونصر الرجيم على السيد المسيح الذي يودُّ التملك على انفسنا

سابعاً فلنعتبرنَّ الزمن الذي ترتكب فيهِ الخطيئة . فالمسيحيون الان يخطئون بعد ان رأوا سيدنا يسوع المسيح مسمراً على الصليب دفعاً للخطيئة

عنهم يخطئون بعد ان رسم تقدس اسمهُ الاسرار المقدسة دواء لهم ولا سيما سرّ جسدهِ ودمهِ الاقدسين وذلك لم يفعلهُ تعالى لاجل الشيطان قبل ان يخطئ . أفلسنا اذ ذاك اشرّ من الشياطين انفسهم . أفما كان يجب كما قال القديس اغستينوس ان الله يخلق جهنماً اخرى لاجلنا . اذ اننا حزنا من الجود الالهي نعماً اوفر من تلك التي حازتها وتحوزها الامم في الناموس الطبيعي . أفلسنا لذلك نستوجب عقاباً اعظم من عقابهم

وقد قرره بما جرى للقديس مكاريوس وهو انه اتفق يوماً ان هذا القديس كان ذاهباً في البرية فوجد في طريقهِ جمجمة فحوّلها من الطريق بطرف عصاهُ . فطفقت الجمجمة تتكلم فسألها حينئذٍ القديس قائلاً : من انتِ فاجابهُ صوتٌ خرج منها . اني كنت كاهناً للوثنيين الذين كانوا قدماً يقطنون هذه الامكنة والان انا معهم في قلب نار محرقة فقال لها القديس : هل ثم من مكان اكثر عذاباً من الذي انتم فيهِ قالت : اعلم ان في جهنم تحتنا مكاناً اكثر عذاباً من مكاننا بما لا يوصف . وفيهِ يتعذب الذين عرفوا الله وجحدوه وأبوا الرضوخ لاوامرهِ . اخيراً نقول ان الخطيئة تزداد ثقلاً وسماجةً من قبل الشخص المفعولة ضدهُ . والحال انهُ فضلاً عن ان الله كامل وحكيم وبهي وقادر بما لا يتناهى فاننا مع ذلك نسيء اليهِ وهو يحبنا حباً غير متناهٍ ويحتملنا ويسبغ علينا نعمهُ الكثيرة . ولعمري ان الوحوش بمعزل عن ان تلحق أذى بمن

يحبها ويحسن اليها. فانظر يا هذا ما الذي تفعله اذا اسأت الى من انت احب اليه من حياتهِ وأغظت من يمنّ عليك بكل خير لكيلا تسيء فعلاً. فخف اذاً هذا الرب العظيم واحترم عزتهُ الالهية واحبب جودهُ الفائق ولا تغظهُ بخطيئة ولا تختلق عليهِ نكراً

ولقد يجب ان نعلم ايضاً ان الخطيئة من حيث ذاتها امرٌ شنيعٌ مكروه وفي مكانة من السماجة حتى لو فرضنا عدم وجود الله وهو فوق كل كمال لوجب ان نبغضها بغضاً لا يحدّ وهذا ما اجمع عليهِ الفلاسفة الوثنيون. ومنهم سينيكا وشيشرون وارسطوتاليس الذي تفوه بهذه الكلمات العسجدية قال: خيرٌ لنا ان نموت من ان نقدم على امر يضرّ بالفضيلة. ويثبت هذا القديس اغستينوس بقولهِ: لو كان في وسعنا ان نبطل يوم الدينونة للزمنا مع ذلك ان نحيد عن الشرّ ونصنع الخير. وقد كشف الله على نوع عن شناعة الخطيئة بحادثة نادرة الوجود

خبرنا فيلانكوس المؤرخ انهُ لما كانت سنة الف ومائتين وثمان وتسعين خرج كاسانوس ملك التتر الوثني على بلاد سورية بجيش جرار وكانوا زهاء مائتي الف خيال. فاستولى على البلاد المذكورة وعظمت صولتهُ ودبّت منهُ في قلوب الملوك الرعبة حتى اضطرّ ملك ارمينية الى ان يزفّ له ابنتهُ زوجةً وان مسيحيةً. فلم تمضِ مدةٌ حتى حبلت الملكة فولدت ولم يكن على مولودها لوائح بشرٍ لما افرغ فيهِ من السماجة والقباحة فحار الملك في امرهِ ثم غضب على الملكة. وانكر ان المولود من

زرعهِ وظنَّ بها انها زانية فحكم عليها بالموت . اما الملكة البارة فرفعت الى الله اكف الضراعة وعاذت بهِ من هذه المحنة فاوعز الله اليها أن استأذني الملك بتعميد المولود منكِ قبل ان تموتي فاذنها الملك بهِ فما عُمّد المولود حتى تحوَّل من حال القباحة الى حال الجمال والبهاء فدهش الملك من هذه الاعجوبة وامن بالسيد المسيح الذي اظهر بهذه الاية جمال النعمة وقباحة الخطيئة . ولم يكن هذا الطفل الذي ولد بهذه البشاعة المستكرهة ملطخاً بادران خطيئة فعلية بل مشيناً بشائبة الخطيئة الاصلية ليس غير . فما حال الذين باختيار ارادتهم يرتكبون خطيئة مميتة وما بشاعتهم . لقد ذهل بلينيوس الفيلسوف من ان بعض الصواعق تذيب السيف في غمدهِ ولا تثلم الغمد اصلاً بل يبقى سالماً صحيحاً كذلك الخطيئة فانها تتلف النفس المحجوبة تحت ستار الجسد ولا يمس الجسد منها اذى فكانها صاعقة من جهنم بل اضرّ من جهنم نفسها

وماذا نقول عن الشرور التي تتولَّد من الخطيئة فلو كانت الخطيئة افضل ما في العالم لوجب لما يتفرع عليها ان نبغضها اكثر من الموت وذلك لانها تعدمنا النعمة وتبعدنا عن الروح القدس وتسلبنا حقنا في الورث السموي وتنزع عنا جميع استحقاقاتنا وتصيرنا غير اهل للعون الالهي وتدحرنا بعد الموت في دركات الجحيم وقوداً لنار آبدة . وفي هذه الحياة تجلب علينا بلايا لا تحصى . فما من طاعون ولا حرب ولا جوع ولا مرض الَّا سببهُ الخطيئة . ومن ثم يجب على الذين يحزنون ويبكون مما احاق

بهم من المصائب الزمنية ان يحزنوا ويبكوا على مصدرها وعلتها اي على الخطيئة وانما من هذه الشكوى لا من تلك لان هذه ولو واحدة لجديرة ان نذرف عليها كل دموعنا بل دموع اهل المسكونة باسرهم . والبكاء على غيرها ضرب من الحماقة

ولعمري ان ما يمهد الطريق لهذا الوحش الشنيع اعني بهِ الخطيئة انما محبة الاشياء الارضية . كما ان ما يسد دونهُ الطريق انما الارتياح الى الاشياء الابدية

فلينظرنَّ اذًا الانسان الى اية جهةٍ يجب عليهِ ان يميل بعواطف قلبه وليصغِ الى مشورة الحكيم القائل : قلب الحكيم من عن يمينهِ وقلب الغبي من عن يسارهِ (جا ١٠ : ٢) . فان الرجل الحكيم يعلق قلبهُ وعواطفهُ بالاشياء الابدية والغبي الجاهل ينيطها بالامور الزمنية . وعليهِ كما قال القديس ايرونيموس في تفسيرهِ نصّ هذه الاية سوف تحزن الجهال محبوا العالم في يوم الدين اذ يكرهون على الوقوف من عن يسار الله ويحكم عليهم بالهلاك الابدي . فاما الحكماء محبوا السماء فيفرحون اذ يقامون من عن يمين ابن الله ليفوزوا بالمجد الابدي . فلنستأصلنَّ اذًا من قلبنا محبة الخيرات الزمنية التي من شأنها ان تمهد الطريق للخطيئة . انهُ لما انقذ المكابيون مدينة أُورشليم من ايدي الامم ودخلوا الهيكل المقدس وجدوا مذبح المحرقات مدنسًا فحاروا في ما يجب عليهم فعلهُ وتردَّدوا بين ان يُقيموا الخدمة لله على هذا المذبح اذ خصَّ اولًا بعبادتهِ وبين

أن يهدموهُ لانهُ قد تدنس بعد ذلك بما ضُحّي عليهِ من الذبائح للشيطان قال الكتاب المقدس فاختاروا بين الامرين احسنها وهو الثاني فهدموا المذبح المدنس وشادوا مذبحًا اخر من حجارة جديدة (١ مكا ٤: ٤٧). فلنقتدين اذًا بهم لنستمسك بالذي هو احسن ولنقم بمنجاة من اسباب الخطيئة بل ولنستأصل شأفتها. لانهُ ان كفى المكابيين لهدم المذبح واقامة مذبح غيرهِ خصّ بالله ان يكون اناس غيرهم اخطأوا ودنسوهُ فلِمَ لا نتجنب الاسباب التي افضت بنا لا بغيرنا الى الخطء. ولاجرم من ان محبتنا الاشياء الزمنية أوقعتنا مرارًا في ورطة الخطيئة فيلزمنا اذًا ان نزيل من قلوبنا كل انعطاف لا يتجه الى ما هو ابدي. ولا يكفي ان نقلع عن كل ميل الى الخيرات الارضية فقط بل يجب علينا ان نحذر من هذه الخيرات الخداعة الختالة ونكون منها على منجاةٍ واجتناب على الدوام



المقالة الخامسة

في ما بين الزمني والابدي من الفرق من حيث الوسائل
التي منحنا الله تعالى لاكتساب الخيرات الابدية
والنموذجات التي قدمها لنا لاحتقار
الاشياء الزمنية

وهي تسعة فصول

الفصل الاول

في ما بين الابدي والزمني من الفرق من حيث ان الابدي
هو الغاية والزمني هو الواسطة الموصلة اليها وفي الغاية
القصوى التي خلق الانسان لاجلها

فلنتكلم الان قليلاً عما بين الابدي والزمني من عظيم البون من كون الابدي غاية والزمني واسطة مؤدية اليها. فاعلم ان الله جعل الابدي غاية الانسان وجعل الانسان غايةً لكل زمني. وقد خُلق الانسان لاجل الابدي لكي يربح كماله الغائي ويفوز بغبطتهِ السرمدية. وخُلق الزمني من اجل الانسان لكي يستعملهُ بقدر ما يتيسر لهُ ربح الابدي. فامعن اذاً النظر جيداً ايها الانسان واعقل حسناً الغاية التي خلقت لاجلها واياك والحيد عنها. تعلم ان المجد الابدي ليس امراً يحقّ لك طبعاً لان الله انما خلقك برحمتهِ الغير المتناهية لكي تفوز بهذا المجد ولما كان تعالى قادراً ان يبدعك لاجل كمال طبيعي لم يفعل

بل دعتهُ رحمتهُ العظيمة الى ان يخلقك لاجل سعادة ابدية ولاجلك ذرأ بقية الخلائق . واما انت فلِمَ يخلقك الّا لاجل ذاته فقط . فمن حيث هذه الغاية ما من احدٍ من الملئكة والشاروبيم والساروفيم يفوقك شرفًا فاستشفّ اذًا ما يجب عليك . فان الله خلقك فانت لهُ تعالى بكليتك وكل ما تفعلهُ فعليك ان تفعلهُ لاجلهِ عزَّ وجلَّ فان الزارع اذا غرس شجرة فلهُ حقُّ التصرف بكل اثمارها . ثم ما من سلطةٍ اعظم من سلطة الغاية على كل ما هو منتظم اليها ومرسوم لاجلها كما ارتآهُ المعلمون اللاهوتيون الفلاسفة . فان كنت انت مدينًا لله بكل ما لك من حيث كونك وذلك لانهُ تعالى هو علة وجودك وكل ما انت حاصل عليهِ فانت تحت دين لهُ يفوق ذلك باضعاف لكونهِ علتك الغائيـة لانك بالعلة الاولى اتخذت كونًا محدودًا وبالعلة الثانية أهَّلك الله الى كون الهي غير متنـاهٍ ومكنك من امتلاكهِ

والحال اننا نرى كل شيء يميل طبعًا الى غايتهِ ويطلب ما استطاع الوصول الى مركزهِ كالنار والحجر مثلًا . فبهذا العزم والاجتهاد بل باشدّ منهُ جدًّا كان ينبغي ان تلتمس الهك واليـهِ وحدهُ يجب ان ترتاح واياهُ يجب ان تبتغي بكل قوى نفسك وقدرة جسدك وعواطف قلبـك . ان الحجر اذا سقط يكاد لا يبالي بالوقوع في الماء ام في النار او لا يعبا بالانكسار والتسحق وكأنَّ حسبهُ البلوغ الى محورهِ ومركزهِ كذلك انت اذا اثرت الوصول الى الله غايتك فلا يجب ان تبالي بخسارة المـال او

تكترث بالكرامة والشان او تعباء ببعض اعضائك ايضاً . واذ قد تحقق ان الاشياء المخلوقة لاتجد بها راحة ولا قراراً طبيعياً الّا في مركزها . فلا ينخدعنَّ اذاً قلب الانسان برجاء انهُ يجد راحة وسلامةً خارجاً عن الله خالقهِ

فكل عمل لايطابق غايتهُ عمل انسان جاهل غبي لانهُ ان اراد احدٌ أن يتحرَّز من البرد في اَبان الشتاء فيخلع عنهُ ثيابهُ ويبتعد من النار اما كنت تعدهُ انساناً غبياً احمق . والحال ان هذه الحـال حالتك انت الذي تبتغي خيرك بالابتعـاد عن الله وعدم طلبك اياهُ في كل شيء . فهذا هو الضلال الفظيع المتوغل فيهِ بنو البشر كما لحظ القديس اغستينوس . انهم يشتهون السعادة ويحصلون اشقياء لانهم يجهلون نوع التماسها

ان قوَّة العلة الغائية لعظيمة جداً حتى ان الاشياء المنظومة اليهـا تكتسب منها اعظم ثمن ولو كانت تلك الغاية دنية حقيرة . ولم تكن تحصل على تلك القيمة لو نُظمت الى شيء اخر ليس بغايتهـا وان جزيل الثمن . كسكة الفلاحة مثلاً فهي شيء معتبر عند الفلاح ويشتريها بدراهم منقودة فاذا وهبتها لمصور يستعملها في صنعة التصوير فيأباها ويلقيها عنهُ بعيداً . كذلك الدواء مهما كان مرّاً فهو شيء معتبر عند المريض ويشتريهِ بثمن . اما اذا كان متعافياً صحيحاً فيحتقرهُ وينبذهُ كارهاً بل الاناء الدنس المستعمل لخدمة الجسد اذا وُضع في مكان خفيّ مختص لهُ فهو شيء

نافع وتطلبهُ الناس الا انهُ اذا ما وُضع في موضع ظاهر وبين آنيــة فاخرة فتشمأز الناس منه وتسحقهُ . فالاشياء اذاً يجب ان تقع طبقاً لغايتها وان تكون منتظمة اليها . ان الاشياء الخسيسة تكتسب اعتباراً من غايتها وان فاتها هذا الانتظام والمطابقة تكون محتقرة ولو تسـامت الى سحب السماء .
فانعم اذاً النظر ايها المسيحي وتامل انك منظوم الى غاية سامية جداً واسمى ما يمكن ان يكون وهي مجد الله جلَّ جلالهُ فلو خلقك الله لكي تخدمهُ بدون ان يعدك بمجدهِ لوجب عليك ان تعتبر ذلك اعتباراً عظيماً . الَّا انهُ تعالى بجودهِ الغير المتناهي احبَّ ان تكون غايتنا لا خدمتهُ فقط بل التمتع بهِ ايضاً والاشتراك بمجدهِ . وبهذه الغاية السامية قد اشبهنا لا الملئكة فقط بل الله نفسهُ ايضاً فكما انهُ تعالى ليس لهُ سعـادة ولا غاية سوى ذاتهِ الغير المتناهي فضلها هكذا اراد الَّا تكون غايتنا وسعادتنا غير غايتهِ تقدس اسمهُ وسعادتهُ

ومن ثم فاعلم كم يجب عليـك ان تعتبر الابدي اعتباراً سامياً من حيث انهُ متعلق بغايتك . وبعكس ذلك فتعلم كيف لا يجوز لك ان تعتبر الزمني بذاتهِ بل من حيث هذا الاعتبـار فقط وهو لانهُ يمكن ان ياول بك الى اكتساب الابدي . فلا شيء اذاً في الزمني يستحق ان يحب ويرغب من الانسان الَّا من جهة اننا نصل بهِ الى الله وخلا هذه فهو بذاتهِ دون الطفيف . فكما ان المسـافر المتقصد الوصول الى مكان لا يبالي بتشعب الطرق واختلافهـا بل يسلك سبيلاً يوديهِ الى المكان

المقصود ولا بعنيهِ ان يكون الطريق يمنةً او يسرةً سهلًا او جبالًا وعرًا او
وديانًا هكذا يجب ان نتصرف بالزمنيات ونتقلب فيها تقلب متجرد من
كل ميل اليها فلا نحبُّ ولا نكره شيئًا زمنيًا الَّا بقدر ما يتقرب بهِ الى
الله او يبعد بهِ عنهُ سبحانهُ . فان كان الفقر يقودك الى الله فاعتنقهُ بكل
عزم قوتك واحببهُ فوق كل شيء . وان كان الغنى او الفخر العالمي يبعدك
عنهُ تعالى فاحتقرهُ وارذلهُ والقهِ عنك بعيدًا وان كان تغافل الناس عنك
واحتقارهم اياك يسديك الخلاص فافرح بهِ وان كانت الكرامات العالمية
تصدك عن خدمة خالقك او تحول دون مرضاتهِ فابغضها اكثر من
بغضك الموت . وان كانت الاتعاب والالام تبلغك الى معرفة مخلصك
فهنئ بها نفسك . وان كانت اللذات تصيرك عديم الوفاء نحو ربك
المحسن اليك . فباين جميع تنعمات هذه الحياة ولذاتها كيلا تعدم تنعم
الحياة العتيدة . فمن هذا يفهم ما رواهُ القديس اغستينوس وجمهور المعلمين
اللاهوتيين من الخلاف بين الاشياء . وهو ان بعضها يجب ان نتمتع بها
وبعضها ينبغي ان نستعملها فقط . فالاشياء التي ينبغي ان نتمتع بها هي
ابدية واما الاشياء التي يلزمنا ان نستعملها فقط ولا يجوز لنا ان نتمتع
بها على وجهٍ ما فهي زمنية . فيسيء الانسان تصرفًا في حياتهِ كما قال
القديس المتقدم ذكرهُ اذا استعمل الاشياء استعمالًا رديًا وتمتع تمتعًا
رديًا . وبخلاف ذلك يحسن الانسان تصرفًا في حياتهِ اذا استعمل
هذا العالم استعمالًا جيدًا وتمتع بالله تمتعًا حسنًا

وقد يجب ان نعتبر هذا الامر جيدًا وهو ان استعمالنا الخلائق المنتهي بنا الى الخالق هو احتقارنا اياها . لان الله رام ان يسهل لنا الوصول الى غايتنا تسهيلًا هذا حدهُ حتى انهُ لا يمكن ان تعوزنا واسطة لبلوغها فعوز كل شيء يقدر ان يعيننا على الوصول الى غايتنا . فما هي اذًا المصيبة والضرورة التي تقدر ان تحزننا ان كان لا يمكن ان تعوزنا واسطة موصلة بنا الى الخلاص حينما يعوزنا كلُّ شيء . ولعمري ان كون الشيء واسطة موصلة الى الخلاص الابدي فخرٌ عظيم جدًا حتى ان ربنا والهنا الذي هو البدء والغاية لكل شيء مخلوق احب ان يكون لنا واسطة لنيل الخلاص . وذلك بتجسدهِ وموتهِ وسرّ جسدهِ ودمهِ الاقدسين . فان كان الله اختار هذه الواسطة العظيمة الامينة لكي تبلغ بها غايتك فكم يجب ان تحذر من ان ترذل واسطة مفيدة للوصول الى هذه الغاية ولو كانت شيئًا مستصعبًا تنفر منهُ الطبيعة . لانهُ يكفي ان يكون هذا الشيء مما يسهل لك الخلاص ولو قليلًا ويزيدهُ ثباتًا ولو يسيرًا فان كان هذا الشيء مرضًا او اهانةً وما يشبه ذلك فيستحق ان تعتبرهُ وتقبلهُ لاجل ربح الملك السموي

ان الذي يسافر في البحر الى الهند يختار لنفسهِ سفينة جديدة امينة لا عتيقة خطرة . فانت الذي تطلب الوصول الى السماء ينبغي لك ان تسير في الطريق الايمن وان تعتقد ان هذا الطريق الايمن الموصل الى السماء هو طريق صليب سيدنا يسوع المسيح واتضاعهِ وميتوتتهِ .

واذ كنت في كل شيء تشتهي الافضل فاعلم ان افضل الامور صلاح السيرة . فاصلح اذًا سيرتك وزدها صلاحًا . واعتقد انك لا تستطيع ان تزيدها صلاحًا الّا بالاقتداء بحياة مخلصك اي باحتقارك الامور الزمنية . ضع نصب عينيك غايتك على الدوام لانك كل مرة تصرف عنها نظرك تضل وتزلُّ قدمك

ولعمري ان الجميع لفي هذا الخطر . لان هذه الحياة تشبه جسرًا عاليًا ضيقًا ليس عرضهُ اكثر من قدمين وتحتهُ وادٍ عميق جدًّا مملوء تنانين وحيات وافاعي فاتحة افواهها لتبتلع من يسقط فيهِ . وفي اخر هذا الجسر مغارة صغيرة ينبعث منها قليل من الضيا من خلال الظلام الدامس . فمن يمشي على جسر كذا ليلًا وليس لهُ من يقودهُ اما كان يحذر جدًّا من ان يصرف نظرهُ دقيقة واحدة من الزمن عن ذلك الضياء اليسير الذي بهِ يرتشد وينقل خطواتهِ . فلو عرف انهُ بتحويل نظرهِ لحظة واحدة يحصل على كنوز الارض كلها فهل يفعل ذلك او يخطو خطوة واحدة الّا محدقًا الى ذلك الضياء الطفيف . فهذه حالنا لان حياتنا جسر ضيق جدًّا ونجتازهُ في ظلام ليلة هذا العالم . فلا يمكن ان ننجو من خطر الزلل والسقوط الّا بملازمة النظر الى غايتنا التي هي النور الالهي الذي يضيء لنـــا في ظلام هذه الحياة . ولنعتقدنَّ ان راحتنا وسلامتنـــا تتوقف على ان لا نطلب شيئًا اخر سوى الله او لاجل الله وبهِ قائمة حرية بني الله الحقيقية . على ان احتقار العالم هو راحة النفس والفطنة الحقيقية هي المطابقة الارادة

الالهية . واخيراً ان اس كل فضيلة هو ذكر هذه الحقيقة بلا انقطاع وهي انا خُلقنا لكي نعبد الله خالقنا وليس غير

الفصل الثاني

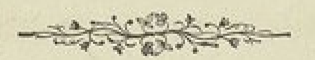
في ان الانسان بمعرفتهِ ذاتهُ يقدر ان يعرف كيف يجب عليهِ ان يستعمل الاشياء الزمنية الحقيقـة بالازدراء

ان الطبيب الحكيم لايكتفي بان يعقل صفات الادوية وغايتهـا فقط بل يجتهد في ان يعرف طبيعة المريض ومزاجهُ ايضاً . فهكذا يجب على الانسان الَّا يكتفي بمعرفة ماهية الاشياء الزمنية وغايتهـا فقط بل يلزمهُ ان يعرف ذاتهُ ايضاً ولهذا قال الذهبي فمهُ : ان من لايعرف ذاتهُ لايستطيع ان يتصرف بذاتهِ تصرفاً واجباً . فيجب اذاً ان نعتبر في الانسان ما هو لهُ من ذاتهِ وما هو لهُ من الله . فالذي لهُ من الله جيدٌ كلهُ الَّا انهُ ليس للانسـان ان يفتخر بهِ لانهُ قد قبلهُ من الجود الالهي . اما الذي للانسان من ذاتهِ فقد اوردهُ مجمع اورانج قائلاً : انـا لسنا شيئاً بالذات غير الكذب والخطيئة فهذا هو العدم الذي كنا فيهِ فيما تقدم . هذا هو الشرّ الذي نحن حاصلون عليهِ الان فدع عنك جانباً كل ما اقتبلتهُ من الله فترى انهُ لايبقى لك سوى الكذب اي العدم . وانك قد كنت هذا العدم والذي بناه الله على ذلك فليس هو من قبلك بل قد قبلتـهُ منهُ وهو بكليتهِ لهُ تعالى . ومن ثم لايجوز لك ان تستعملهُ كحسب

غرضك بل بحسب مسرة الله . فانظر ما اكثر ما يجب عليك ان تتضع من اجل انهُ ليس لك شيء بالذات سوى العدم . قالت الفلاسفة ان ما بين العدم والوجود بعداً غير متناهٍ . فاذ كنت انت عدماً لم يكن لك بالذات امكان الوجود لان هذا الامكان اعني امكان وجودك هو شيء مختص بقدرة الله . فلك اذاً هنا وسيلة عظيمة للاتضاع . لان كونك عدماً هو بئر عميقة جداً مع ان هذا كلا شيء بالنسبة الى كونك خاطئاً . فهذا اذ تاملهُ القديسون جمد دمهم في مفاصلهم وقوم منهم اذ اراهم السيد المسيح حال كونهم في الخطيئة فكادوا ان يموتوا من افراط رعبهم وخوفهم لو لم تعنهم يد الله القوية

فاعلم اذاً انك بعد فعل الخطيئة تكون قد صرت شراً نظير شرّ الخطيئة . فشخص في ذهنك شر الخطيئة الغير المتناهي الذي تكلمنا عنهُ في ما سبق وكل ما تحويهِ من العيب والسماجة والقباحة فان هذا جميعهُ في مرتكبها . فكما ان الشيء الاسود يوازي بسوادهِ سواد ما صيرهُ اسود هكذا الخاطئ يكون سمجاً قبيحاً شنعاً نظير شناعة الخطيئة . فليتامل الانسان الخاطئ . هل يليق بهِ ان يستعمل الاشياء المخلوقة كما كان يجوز لهُ ان يستعملها لو كان في حال البرّ نظير من لم يرتكب خطيئة ابداً . فليعلم من ذلك هل يجوز لهُ الان وهو على حال هذه الخباثة والشر ان يستعمل الاشياء المخلوقة لاجل لذتهِ وجاههِ وافتخارهِ . هل يليق للخاطئ الاكرام . فكيف يسوغ لمن خان ربهُ وخالقهُ وقد استحق

عذابًا ابديًا ان يطلب كرامة وتنعمًا وكيف لايحتمل بصبر مرضًا وجيزًا يمكنهُ بهِ ان يربح خلاصًا مؤبدًا. تامل ما فعلهُ ابن الله نفسهُ فانهُ اذ تردى بظاهر الخاطي. مع كونهِ القداسة بالذات لم يستعمل خيرات هذه الحياة وملاذها. لكنهُ اعتنق كل ما وجد فيها من المرائرِ والاتعاب. فكيف يجوز لمن هو خاطي. حقًا ان يبتغي الكرامات والملذات. فتعلم الان الوسائط التي يلزمك ان تستعملها وقد رسمها السيد المسيح وهي التوبة والاماتة والصليب. ان القديس فرنسيس بورجيا الذي احتقر العالم ونفسهُ ايضًا احتقارًا عجيبًا كان يلقي في هذه الاعتبارات سرورًا وافرًا ما بين اتعاب هذه الحياة ومرائرها. وكان يهرب من كل راحةٍ وملذةٍ ويلتمس ما يؤلم الجسد ويضيق عليهِ. حتى ان كل من كان يشاهد جزيل تعب هذا القديس ونصبهِ من الفقر في سفرهِ كان يأخذهُ التحير والذهول. فساله يومًا احد اشراف دولة اسبانيا قائلًا : كيف يمكنك ايها الاب ان تحتمل هذه الاتعاب. فاجابهُ البار : لا يفجعنَّ قلبك عليَّ لاني في سفري ارسل امامي دائمًا الى المكان المقصود مني واحدًا يهيِّئ لي كل شيء حسنًا. وهذا المرسل المتقدم امامي هو معرفتي ذاتي التي تصير لي كل ضيقةٍ وضرورة تنعمًا ولذةً



الفصل الثالث

في ان تجسد ابن الله يوضح لنا كم يجب ان نعتبر الاشياء الابدية

ان ما بين الابدي والزمني من عظيم الخلاف يتضح لنا جلياً من تجسد ابن الله ايضاً . فان اكتساب الابدي واحتقار الزمني هما شيئان جزيلا الاعتبار والضرورة ولذلك احبَّ الله ان يتجسد ويتألم . ولعمري اننا لانجد شيئاً يوضح لنا عظمة الابدي وخساسة الزمني نظير هذين المعلمين الالهيين . ولذلك يجب ان نتكلم عنهما قليلاً . واولاً عن سرّ التجسد الذي يجب ان نتأمل فيهِ اربعة اشياء . اولها عظمة العمل ثانيهما كيفية تكميلهِ ثالثها الشرور التي صدرت منا رابعها الخيرات التي اتتنا بهِ

فقبل ايراد عظمة العمل يجب ان تعلم ان الجنس البشري الذي كان لسبب الخطيئة اسيراً للشيطان ومهاناً ومداناً ومحكوماً عليهِ بالعذاب الابدي ومبغوضاً من الله . كان قد بلغ اقصى غاية من الشقاء ولم يعد له رجاء النجاة من ذلك . لانهُ لو مات بنو البشر جميعهم الف مرة وقدمت الملئكة باسرهم ذواتهم لله ذبيحة واختاروا ان يحتملوا جميع العذابات الجهنمية لما استطاعوا بهذا كلهِ ان يكفِروا عن خطيئة واحدة مميتة تكفيراً تاماً . فلم تتمكن اذاً خليقةٌ قط من الوفاء عن الخطيئة وكذلك لم يكن ممكناً ان نرجو ذلك من الخالق لانهُ تعالى كان المفترى عليهِ والمهان . فلو يكون ما لايمكن وجودهُ وما نرجو من الله ان يأذن انا بافتراضه لكي نفهم على

وجهٍ ما عظمة هذا السرّ الغير الموصوف . اي لو يكون حفظ حياة الله ولاهوته متعلقًا بفعل التجسد لكان يمكن ان نرجو منهُ تعالى ان يتجسد لاجل خلاص البشر . مع ان ذلك شيء حقير وان يتجسد الله لاجل حفظ عبدٍ خاينٍ ولاجل مجد عدوهِ . فمن ذا الذي كان يرجو ذلك ولو كان الانسان خدم الله كعبدٍ امين فالقى نفسهُ في حال هذا الشقا الذي هو عليهِ وذلك لاجل حفظ مجدهِ تعالى وكرامتهِ لكان ربما يجوز لنا ان نعذر من خالج فكرهُ هذا الظن المنحرف عن الصواب . وهو ان الله حملتهُ حميَّة الوفاء ومعرفة الجميل على ان يتخذ كل احتياط لينقذ بهِ الانسان من حال شقائهِ . ولما احبَّ تعالى ان يتضع ويتلاشى بصيرورتهِ انسانًا وذلك من اجل الانسان الذي اختلس مجدهُ واحتقرهُ جاء امرًا لا يخطر لبشر ببال ولم يخالج فكر انسان . فهذا هو الجود الالهي الذي بجزيل احسانهِ يفوق كل ما نرجو . ويصنع لاجلنا ما لو فعلهُ لاجل نفسهِ لما امكن ان يفعلهُ بنوع اعظم من الذي فعل . فيالمحبة الله العجيبة ويالسخائهِ الغير الموصوف اذ اراد ان يفي عن عدوهِ بثمن غير محدود . وان يحسن بتكلف لا يوصف وباعظم الخيرات الى من كان فعل اليهِ اعظم الشرور والحق بهِ اقبح الاهانات

فتامل الان اولًا عظمة هذا العمل الالهي الذي قال عنهُ القديس اغستينوس : ان الله لم يقدر ان يصنع اعظم منهُ ولا ان يخترع احسن منهُ . على انهُ لمن المعلوم انهُ لا يمكن ان يوجد عمل اعظم من العمل الذي يصير

بهِ الانسان الهاً. فالله اذاً اذ رأى ان الانسان بفعل الخطيئة صنع ما لا يمكن ان يصير شراً منهُ. رام هو جل جودهُ ان يصنع ما لا يمكن ان يصير احسن واكثر جوداً منهُ اقترح عملاً فائقاً ذا جودٍ غير متناهٍ نظراً الى جوهرهِ واعراضهِ. لانهُ من المستحيل ان يوجد عمل اكثر جوداً وصلاحاً من العمل الذي بهِ اتصف الانسان بكل جود الله وصلاحهِ. او اعظم خيراً من الذي بهِ اشرك الله بلاهوتهِ ادنى الخلائق الناطقة وانتصر بجودتهِ على شرّ غير متناهٍ. وانقذ الانسان الخاطي. مما كان يستحقهُ من العذاب الابدي. اي نعم ان هذا العمل لجيد بما لا يدرك حدهُ. لانهُ بهِ اتضح ميلهُ تعالى الغير المتناهي الى الرحمة وتجلّى كمال عدلهِ الغير المحدود. وذلك بتحملهِ ما كان ملتزماً بوفائهِ رجل شرير اثيم وباتضاعهِ حتى الموت موت الصليب لخلاص من كان قد حكم عليهِ بموت ابدي. اللهمَّ انت متسربل بكل كمال وصلاح وكل من كمالاتك وصلاحك لا حدَّ لهُ. لقد اكملت كل ما كان يقتضيهِ عدلك الالهي واظهرت مع ذلك جودك الفائق على نوع عجيب لانك عاملت ذاتك بغاية الصرامة لكي تعاملنا باعظم مراحمك

تامل ثانياً كيفية هذا العمل الكلي جودهُ والمستحق كل حبنا. انهُ لمحبة جزيلة مفرطة ارتضى الله بان يخلص الانسان بواسطة انسان. وان تحتَّم لذلك انهُ هو تعالى نفسهُ يصير انساناً لا ملاكاً حتى اذا ما خلص الانسان من شقائهِ يكون ممجداً مكرماً. فما اعظم هذا الاكرام الذي لم يُعط

للملئكة حيث ان الله الذي لم يغفر للملئكة مع انهم بالطبيعة أسمى منا شرفاً وكمالاً أحبَّ ان يفعل العظائم ليغفر لنا . وما عدا ذلك فانهُ اذا اخطأ الانسان وهبط الجنس البشري باسرهِ منحطاً عن سعادتهِ لم يبقَ منهُ صديق يستطيع ان يتحنَّى عليهِ ويقدم عنهُ صلواتهِ وابتهالاتهِ . خلافاً للملئكة الذين اذا اخطأوا بقي منهم كثيرون في حال البر يشفقون على هلاكهم . ومع هذا فقد احبَّ الله ان يمنَّ بهذا الاحسان على الانسان لا على الملئكة

تامل ثالثاً ان كثرة الشرور المفعولة منا في الزمن الذي أنجز فيهِ الله هذا الفعل الكلي الرحمة توضح لنا جلال الجود الالهي نحو الجنس البشري لانهُ حينما كان العالم نسي الله بالكلية . وكانت الناس تجتهد في ان تكرم كالهة . والذين لم يبلغوا اربهم هذا الردي كانوا يسجدون لاناس اكثر شراً من الشياطين . ففي هذا الزمن الكلي الشقاوة نفسهِ اي حينما كان الانسان يريد ان يصير الهاً عنوةً عن الله اراد الله ان يصير انساناً من اجل الانسان

تامل اخيراً ما نشأ عن هذا العمل الالهي العجيب من الخير لانهُ لو ان الله لم يصنع بنا خيراً لكفانا انهُ انقذنا من شرورنا . حيث انهُ بواسطة تجسدهِ الالهي نجانا من عار الخطيئة ومن اسر الشيطان ومن العقاب الجهنمي . ثم انهُ لو كان الله لم يجد عند تجسدهِ شراً ينقذنا منهُ ولم يهب لنا تعالى خيرات جديدة جليلة فقد كانت صيرورتهُ سبحانهُ ابناً لطبيعتنا

وصير ورتنا انسباء الله احسانًا لا نظير لهُ

قد خبر يوستينوس المؤَرخ الوثني عن اسكندر الملك انهُ لما ابصر ليسيكوس مجروحًا في رأسهِ ويجري من جراحهِ دم غزير نزع عن تاجهِ منديلًا ملوكيًا وبهِ مسح دم الرجل المحبوب منهُ وعصب جراحهُ. فتعجب الحاضرون من محبة اسكندر لاحد عبيدهِ مع ان فعلهُ هذا كان مع رجل لم يُسئ اليهِ قط بل كان عين الملك سبب هذا الجرح. فاما الانسان فقد كان بالخطيئة جرح ذاتهُ واسأ الى الله باريهِ. ومع هذا فتقدم تعالى ليداوي الانسان ويشفيهُ وبفعلهِ هذا لم يمنحهُ شيئًا مما يمتلكهُ في الخارج. لكنهُ منحهُ تاجهُ الالهي اعني بهِ لاهوتهُ. فيا لفرط هذه المحبة ما اعظمها ويا لعدم ادراك هذا الاحسان ما اوفرهُ

الفصل الرابع

في ان دناءة الاشياء الزمنية تتضح لنا من الام سيدنا يسوع المسيح وموتهِ

حقًا انهُ ما من شيء يظهر لنا خساسة الاشيا الزمنية ووجوب احتقارها بأجلى مما يوضحهُ الام ابن الله وموتهُ. فانظر الان كيف انهُ تعالى آثر بلايا هذه الحياة واحتقر كل خيراتها وذلك لا بالكلام فقط حينما دعا الغني شوكًا واخص المساكين بالغبطة والطوبى بل بالفعل ايضًا. لانهُ لم يوجد خيرٌ زمني الّا لحقهُ منهُ بعض الاذى فثلم صيتهُ وعُدَّ شريرًا

منافقاً . وسأهُ الغني والمقتني لانهُ فسلب كل ما له حتى اثوابهُ وذاق من الملذات مرارة علقم ولم يروَ عطشهُ المذيب بقطرة ماء ولوفر اوجاعهِ وعظمتها دُعي من اشعيا النبي رجل الاوجاع (اش ٥٣ : ٣). ولم يبقَ عضو من اعضاء جسدهِ الّا تالم بالم خصوصي ولذلك اوصانا تعالى بان نتذكر الامهُ على الدوام لاجل المثال الذي قدمهُ لنا بها

قد ذكر عن تيغرانس ملك الارمن انهُ لما قهرهُ كورش ملك العجم في الحرب وتغلب عليهِ واسرهُ وزوجتهُ . واتفق ان كورش آكلها يوماً على المائدة ورأى جزيل حب تيغرانس لزوجتهِ سألهُ قائلاً : ما تجود بهِ من البذل اعتاقاً لزوجتك . قال : فدى لها مملكتي ودمي وحياتي . فرق حينئذٍ قلب الملك كورش وعتقهما ورد عليهما ملكهما . فلما رجعا الى مملكتهما سأل يوماً تيغرانس زوجتهُ قائلاً : ما الذي اعجبكِ في كورش الملك ودولتهِ . فاجابتهُ الملكة مكافئةً محبتهُ لها بمحبة نظيرها قالت : لم يرقني منهُ شيء اصلاً ولم ألو منهُ على امر بل سددت نظري وقصرت فكري وميلي على من فداني بمملكتهِ ودمهِ وحياتهِ فاخرجني عن الرقّ . فان كانت هذه الملكة اظهرت حسن الوفاء ومعرفة الجميل نحو زوجها المجرَّد عزم حسن لم ينجزهُ . فما الذي يجب على عروس الملك السموي التي لاجلها ولاجل افتدائها لم يعزم تعالى على بذل دمهِ وحياتهِ دونها عزماً فقط بل بذلهُ فعلاً ايضاً

قال الانبا البرتوس الكبير والمعلم اللاهوتي المعظم ان فكراً

واحداً مقدساً في الام سيدنا يسوع المسيح يسدينا نفعاً اعظم مما نجنيه من المنفعة بصوم سنة كاملة نقتصر فيه على الخبز والماء مع جلد اللحم الى اهراق الدم كل يوم وتلاوة الزبور كله . وقد ذكر ايضاً ان السيد المسيح ظهر للقديسة جرترودا ليثبتها في عبادتها لآلامه المقدسة . فقال لها : انظري يا ابنتي ان صليبي لاجل انهُ حملني بعض ساعات معلقاً عليه بلغ مبلغاً عظيماً من الشرف وامتلاء العالم من مجده فماذا يكون اذاً شرف النفس التي تحملني في ذهنها سنين كثيرة

ولكن لكي ننتفع من هذا الذكر المقدس ذكر الام ابن الله فيجب ان نعتبرها نظراً الى الاعراض السبعة المعروفة بظروف الحدوث وقد سبق ايرادها حسبما نصها القديس توما اللاهوتي . فتامل اذاً من هو الذي يتالم فهو الذي ما من احدٍ يباريه براً بل وهو البرّ نفسهُ هو الاقنوم القدوس نظير الروح القدس فيتألم البار لئلَّا يتالم المذنب . يتألم من هو رب الخليقة كلها وسيدها الذي تسجد لهُ الساروفيم وتهابهُ جميع الطغمات السموية . قال الرسول الالهي : تذكروا ذاك الذي احتمل من قبل الخطاة ضد نفسه مضادة مثل هذه (عب ١٢ : ٣) . لان الجالس من عن يمين الله الاب هو الذي نراهُ الان معلقاً على الصليب بين لصين . فتامل اذاً من هو هذا الذي سمر على عود ولم يكن لهُ منزل على الارض . واذكر انهُ هو ديان الاحياء والاموات . اعتبر من هذا الذي مات على الصليب فترى انهُ الحياة الابدية نفسها . لاحظ

من ذا الذي قبض عليهِ اعداؤُهُ وجلدوهُ وصلبوهُ . فتعلم انهُ هو الذي من مقدسهِ اخرج نارًا احرقت مخالفي ناموسهِ

ثم تامل ماهية عذاباتهِ تعالى التي لم يحتمل نظيرها احد قط . فقد اتصلت الى هذا الحد من العظمة والافراط . حتى ان الاشياء العديمة الحسّ ارتجفت لها . لان الصخور تصدعت والارض تشققت والعناصر انذهلت والسماء اظهرت الحزن والاكتئاب واظلمت الشمس والقمر وبكت ملائكة السلام لانهُ لفرط عظمة هذه الاوجاع وقساوتهــا عرق تمجد اسمهُ دمًا من قبل مجرد تفكرهُ فيها . وقد اخبرت القديسة جرترودا بعدد قطرات عرقهِ هذا الدموي حسبما عرفت ذلك برؤيا ظهرت لها انها كانت سبعة وثمانين الف وثلث مائة وخمس نقطــات . وفي حال مكابدتهِ هذه الاوجاع ذرفت عيناهُ من الدموع اثنين وستين الف ومائتي دمعة . كما ذكر بطرس كاليتينوس . اما عدد الجلدات التي احتملها فقد سمع يومًا القديس برندوس في رؤيا ظهرت لهُ انها كانت ستة الاف وستمائة وست وستين جلدة . والانبا لانسبرجيوس يذكر ان رجلًا عابدًا سمع صوتًا من السماء يقول هكذا : لو صلّى احد الصلاة الربية مائة مرة في كل يوم الى مدة عشرين سنة اكرامًا للجلدات التي احتملها سيدنا يسوع المسيح في الامــهِ لكان عدد تلاوة هذه الصلوات في المدة المذكورة موازيًا عدد نقط الدم الذي خرج من جراحاتهِ . فعلى موجب هذا الحساب يكون عدد نقط الدم الذي خرج من جســد يسوع في مدة الامهِ سبع ربوات

واثنين وثلثين الف نقطة . فاما اكليل الشوك فقال عنهُ القديس انسلمس انهُ دخل منهُ الف شوكة في رأس يسوع الاقدس . ومن يقدر ان يصف شدة الامهِ تعالى بتعليقهِ على صليب بيديهِ ورجليهِ . فهذا لما تاملتهُ القديسة ليدوفينا بكت بكاءً دماً . فلا جرم من ان مريم العذراء الجليلة لو لم تقوها نعمة الله لكانت قد ماتت من شدة حزنها عند مشاهدة ابنها مصلوباً . قال القديس برنردينوس السياني انهُ لو توزعت احزان البتول المجيدة على بقية الخلائق لماتوا جميعهم لشدة ما يلحق كل واحدٍ منهم من الحزن . فماذا تكون اذاً اوجاع ابن الله الفائقة على اوجاع والدتهِ

واذا ما نظرنا الى مكان الامهِ فنرى انهُ كان مدينة أورشليم حيث بعد دخولهِ فيها بشرف عظيم واحتفال ملك منتصر قبض عليهِ وقيد خارجاً منها باهانة عظمى ليصلب كرجل اثيم . واما الذين كانوا يسعون في تعذيبهِ وموتهِ فقد كانوا اناساً من ملتهِ قد انعم عليهم باغزر البركات واعظمها وهم افرغوا وسعهم في تعذيبهِ . ولهذا شبههم الكتاب المقدس بكلاب هائشة واسود زائرة وذئاب خاطفة . واما نوع عذابهِ فلم يرَ افظع منهُ . والزمن الذي احتمل فيهِ هذا العذاب كان الزمن الذي فيهِ تجتمع اليهود من كل بلدٍ وقطر ومكان . وفي حال عذاباتهِ هذه القاسية لم تجد نفسهُ تعزية البتة لانهُ لم يتعزَّ برجائهِ ان تكون الامهُ جزيلة النفع . لانهُ تعالى كان يعلم بعلمهِ السابق ان الذين

ينتفعون من الامهِ قليلون . ولم يتعزَّ من قبل تلاميذهِ بحفظ الامانة له والوفاء . لان احدهم باعهُ والآخر جحدهُ والجميع تركوهُ وولوا عنهُ مدبرين حتى لم يحصل على تعزيةٍ من قبل والدتهِ ايضاً . لان مشاهدتهُ حزنها كان لديهِ تعالى بمنزلة صليب آخر نظير الصليب الذي كان مسمراً عليهِ . وهكذا لم تكن لهُ تعزية من قبل ابيهِ الازلي لانهُ أمسك عنهُ فيض هذه التعزية ولذلك صرخ نحوهُ قائلاً : الهي الهي لماذا تركتني (مز ٢١ : ١)

وزد على ذلك انهُ تقدس اسمهُ احتمل جميع هذه الالام والاوجاع من اجلنا نحن الخليقة الحقيرة . مع انهُ لم يكن يضطرهُ الامر الى ان يتالم هكذا لكي يخلصنا من اسر الخطيئة . لكنهُ رام ان يكابد جميع هذه الاوجاع ليظهر لنا جزيل محبتهِ . ويضطرنا الى الاقتدا بهِ ويحملنا الى احتقار خيرات هذه الحياة وكل سعادة زمنيــة . فمن اجل هذا تكلف وفاء ديننا باحتمال هذه العذابات القادحة . فلننظرنَّ اذاً الى انفسنا في هذه المرآة الجليلة لنثقف بها سيرتنــا ولنظهر نحوهُ عزَّ وجلَّ عواطف الحنو والاشفاق ومعرفة الجميل . ولنتمزَّق قلبنا حزناً وندماً لاننا اسخطنا مثل هذا الاله الصالح الذي احتمل لاجلنا جميع هذه العذابات واحسن الينا بمثل هذه الخيرات ليصيرنا اخياراً . ولنتعجب من عظمة جود الله الذي احبَّ ان يتلاشى من اجل خليقة حقيرة . ولنحب من احبنا هكذا ولنتكل على من صنع لاجلنا اكثر مما كان يمكن ان نبتغي بل اكثر مما يمكن ان نتصورهُ . ولنقتدين بهذا المثال الالهي المقدم لنا من الاب

السموي على جبل الجلجلة لنصير حياتنا شبيهة بموته . وذلك بالاتضاع واحتقار كل خير زمني . حتى اذاما اتضعنا امامهُ يرفعنا واذا ما تالمنا حباً بهِ نكتسب الغبطة الابدية . وبعد شرب مرائر هذه الحياة نذوق لذات الحياة السعيدة السموية وبعد دموع قليلة وجيزة نتمتع بالافراح الدائمة

الفصل الخامس

في ان الابدي جزيل الاعتبار من حيث ان الله اراد ان يكون الواسطة لربحهِ ورسم سر جسده ودمهُ الاطهرين عربوناً عن ذلك

ان ربح الابدية لامر باهظ معتبر جداً . وانهُ تعالى يشتهي ان نربحهُ اشتهاء جزيلاً حتى انهُ بعد ما صنع لاجل ذلك عظائم مذهلة العقول اعني بها تجسدهُ والامهُ . ضاف اليهِ فعل محبة مفرطة مذهلة وهو انهُ سبحانهُ اراد ان يكون لنا الواسطة لنيل الخلاص في سرهِ الاقدس سر الاوخارستيا . فمن ذا لا يرى في هذا سمو الجود الالهي الغير المتناهي على ان الله القادر على كل شيء ومصدر جميع الاشياء وغايتها القصوى ارتضى بان يكون لنا واسطة ايضاً . مع ان هذا شيءٌ مختصٌ بالخلائق وليس يدل على كمال . وكذا اخضع الله ذاتهُ لاختيار الانسان ليستعملهُ واسطة لخلاصهِ . ولكمال فهم هذا الامر الفائق اعلم ان وسائط خلاصنا يمكن ان تُلاحظ نظراً الى الله ونظراً الى الانسان لان الله والانسان يسعيان في هذا الامر . فان كان حبٌ عظيمٌ عجيبٌ لا يدرك في ان الله جعل ذاتهُ

في التجسد الالهي واحتمال الآلام وسيلة لخلاص الانسان . فكم يكون من الامور المذهلة التي تفوق كل افراط المحبة ان يرتضي الله بان الانسان يستعمل اقنوماً الهياً اي الله عينهُ واسطة لاجل الغاية المذكورة اعني بها خلاصهُ . وذلك لان ابن الله بصيرورتهِ واسطة للانسان ساوى نفسهُ مع الماء والزيت والبلسم . لانهُ كما ان الناس يستطيعون ان يستعملوا الماء في المعمودية لكي يتبرَّروا والبلسم في سرّ التثبيت ليتقدسوا والزيت في سرّ المسحة الاخيرة ليتطهروا . كذلك في سرّ القربان المقدس يقدرون ان يستعملوا السيد المسيح ليربحوا زيادة النعمة والصحة الروحية . فكم يجب اذاً على الانسان ان يجتهد في ان يبلغ غايتهُ الاخيرة حيث ان الذي هو الغاية الاخيرة جعل ذاتهُ واسطة ليبلغ بها الانسان الى هذه الغاية . فلست ادري هل من مبلغ أسمى منهُ يستطيع الجود الالهي ان يبلغ اليهِ . هذا وهل يجب ان تعتبر شيئاً ما زمنياً نظراً الى ربح الابدي وان كان السقوط عن كرامتنا او ترك لذاتنا او توزيع أموالنا على المساكين واسطة مسمّاةً لربح الخلاص فهل يجب ان نستصعب ذلك ونستعظمهُ بعد ان صير نفسهُ رب المجد واسطة لنا ومنحنا لذلك ذاتهُ بغير التفات الى عظمة كونهِ التي هي اكثر ثمناً من كل شيء

اما اخص الاسباب التي من اجلها رُسم هذا السرّ العجيب هو لكي يكون لنا ذكراً لالام السيد المسيح ومن حيث انها المحجة الجزيلة الفاعلية في احتقار الاشياء الزمنية رام تعالى بانواع كثيرة ان نذكرها على

الدوام . لانهُ طبع في كفنهِ صورة جسدهِ المتالم . وطبع صورة وجههِ في منديل قدم له ليمسح بهِ عرقهُ حينما كان حاملاً الصليب ومسوقاً الى جبل الجلجلة وطبع صورة يديهِ ورجليهِ وركبتيهِ في الحجر الذي صلّى عليهِ في بستان الزيتون . وهذه الصورة عينها طبعها ايضاً في حجر اخر في وادي قدرون حينما كان الجنود يسحبونهُ . فسقط على الارض وابقى بعده إثر يديهِ ورجليهِ وركبتيهِ والحبل الذي كان يسحبهُ بهِ الجنود فبكل هذه الانواع من الايات اظهر ابن الله كم يرغب ان يستمر فينا ذكر الامهِ المقدسة

وما عدا ما ذكرناهُ فقد وجدت اثار الامهِ على حجار أُخر كثيرة . لانهُ وجد في بلاد الشرق حجر من يشم وعليهِ تمثال وجه السيد المسيح مكالاً بالشوك . والقديس لويس غونزاغا اذ كان يتمشّى يوماً على شط البحر رأى حجراً صغيراً عليهِ رسم جراحات سيدنا يسوع المسيح الخمسة . وقد رسخ الله هذه الخمسة الجراحات في حجارة كثيرة وفي اشياء اخر عديدة مختلفة . وقد شهد القديس انسطاسيوس السيناني انهُ وجدت زهرة تمثل المسامير والعمود واكليل الشوك . وفي ثمرة الشجرة المدعوة موسى ترى تشخيص صليب وعليهِ مصلوب . وفي ايامنا هذه يُسجد في مدينة غان لصورة الصليب وعليهِ مصلوب على اصل زهرة نبتت في أورشليم . ولكي تستطيع العناصر ايضاً ان تفتخر بهذا الرسم الشريف أرى الله الفونسوس الاول ملك برتوغاليا في الجوّ ترساً وعليهِ رسم جراحات ابن

الله الخمسة . هكذا أرى الله قسطنطين الكبير صورة صليبهِ المقدس في الجوّ ايضاً الآن اجل الادلة على ان مخلصنا يرغب كل الرغبة في ان نردد في ذهننا عذابات الامهِ هو انهُ جعل رسم جراحاتهِ في اجساد كثيرين من عبيدهِ منهم القديس فرنسيس الكبير والقديسة لوسيا الفرادية والقديسة جرترودا ولاسيما الطوباوية لوسيا التي كان يجري دم من جراحاتها الخمسة كل يوم جمعة . وما اعجب الرسم الذي شوهد على قلب القديسة كلارا . لانهُ بعد موتها وجدوا على قلبها الطاهر صورة السيد المسيح مصلوباً والعمود والسياط والحربة وبقية الات الامهِ المقدسة . ولو اوردنا كل الاشياء التي عليها رسم الام المسيح وصورتهُ مطبوعة لطال بنا الشرح جداً . وهذا كلهُ جعلهُ تعالى ليديم فينا ذكر الامهِ بمشاهدتنا رسومها . الآن الدليل الاعظم على ذلك هو سرّ الاوخاريستيا . لان هذا السر الاقدس هو صورة موتهِ المقدس صورة حيَّة . وبهِ يوضح لنا تعالى انهُ لمستعد ان يتألم ويموت لاجلنا كل مرةٍ تقدم ذبيحة القداس في العالم باسرهِ ولما لم تمكنهُ حال جسدهُ المجيد من ان يصلب ثانيةً اقترح جودهُ الغير المدرك ضرباً من ضروب الاختراع فيهِ ذبيحة الصليب ويعيد علينا نفع الاقتداء من غير ما يجدد الم ولا اهراق دم

فاعتبر اذاً ايها المومن قبل تناولك سرّ القربان المقدس من يقبل عليك ومن انت وتامل جزيل عبادة الجليلة مريم العذراء حينما كانت تستعد لحلول الكلمة الازلي في احشائها الطاهرة . ولا ترتب في انهُ

تعالى نفسهُ يلج فؤادك وابذل ما فيك من الجهد في ان تتقدم بروح
عبادةٍ مساوٍ لعبادة تلك العذراء الكلية النقاوة فادنُ منهُ بروح المحبة
والتهيُّب والشكر على هذا الاحسان الجليل. بل لو امكن الامر لكان يجب
عليك ان تقبل اليهِ بافضل من عبادة الطوباوية المذكورة لانك انما نلت
من جليل احساناتهِ الالهية في سرّ الام ابن الله وموتهِ ما لم يتفضل بهِ
تعالى حينئذٍ على والدتهِ المجيدة ولا منَّ بهِ على بشرٍ غيرها. وكن على يقين
من انك لمزمع ان تتناول من هو جالس من عن يمين الله الاب من
بيدهِ مقاليد السلطان المطلق على السماء والارض خالقنا وفادينا ومن
مزمع ان يدين الاحياء والاموات وهو الالهُ الذي لا نظير لهُ ولا قياس
لحكمتهِ وقدرتهِ وبهائهِ وجودتهِ وبقية كمالاتهِ الالهية. ترى ما ذهول
النفس وتهيبها ورعبها وخجلها اذا ابصرت السيد المسيح كما ابصرهُ الرسول
فعمي من بهاء نورهِ الساطع. فلا ريب في انهُ تعالى هو في سرّ القربان
المقدس بهذا المجد الالهي باسرهِ. ومن ثم ينبغي ان تدنو من هذا السرّ
كدنوك اليهِ تعالى وهو جالس على منبر مجدهِ. ان يوحنا البشير الحبيب
لما دخل عليهِ ملك من السماء ورأى كمال جمالهِ وعزهُ كاد ان يقضى عليهِ
من شدة تهيبهِ وذهولهِ. فانت عتيد ان تستقبل في منزلك لا ملكًا بل
ربَّ الملائكة كلهم

ويتجلَّى سخاء جود الله افضل جلاء مما تقدم اذا لاحظنا لا عظمة
الاقنوم الذي يمنح ذاتهُ فقط. بل حقارة الاقنوم الذي يقتبلهُ ايضًا.

فمن أنت لست الّا خليقة دنية مجبولة من طين عرضةً لكل شقاء وجهل وشرّ وضعف . فان كان قائد المائة عدَّ نفسهُ غير أهل لان يدخل السيد المسيح بيته . وهامة الرسل بطرس المعظم اذ رأى هذا الرب على الارض طلب ان يبتعد عنهُ لانهُ رجل خاطئ . والقديس يوحنا المعمدان أحتسب ذاتهُ غير أهل لان يحلّ سيور حذائهِ . فكم يجب عليك انت ان تحسب نفسك غير أهل لان يحلّ فيك الجالس بمجدٍ عظيم من عن يمين الآب الازلي والملئكة لا يجدون طهارتهم كفوءًا تجاه عزتهِ . فكم ينبغي ان تكون نقاوتك لكي تاويهِ في قلبك . ان سليمان الحكيم اصرف سبع سنين في بناء الهيكل ليضع فيهِ تابوت العهد . فانت اذ تروم ان تعدّ نفسك هيكلاً لله فكيف لا تصرف في ذلك نصف ساعة . وموسى الكليم لما أراد ان يصنع تابوتاً ليضع فيهِ لوحي الناموس اختار خشباً ثميناً وطلاه بالذهب . وانت يا دودةً حقيرة كيف لا تهيّئ ذاتك وتزينها لتقبل واضع الناموس نفسهُ

اما كيفية منح الله هذا الاحسان العظيم فمن شأنها ان تذيب القلب بالمحبة . واشير بذلك الى شوقهِ تعالى الكلي الجود الى ان يتحد بنا وتواضعهِ العجيب الذي بهِ يهب لنا ذاتهُ الالهية ويجعلها مأكلاً . ولهذا يحلّ راسخ الشرائع الطبيعية ويجترح معجزات أعظم من التي اجترحها على يد موسى في مصر . فتأمل انت بعد تناول القربان المقدس ما الذي يجب عليك ان تفعلهُ . واحتسب ان السيد المسيح الجالس في غرفة قلبك يسال نفسك كما

سأل رسله بعد ما غسل أرجلهم قائلًا: اتعرفين ايتها النفس ما الذي صنعت بكِ. أتفهمين عظم إحساني اليكِ وجلال عزة من يتخذكِ مسكنًا له. فاعلمي انهُ الهكِ وربكِ ومخلصكِ الذي يرغب خيركِ غاية الرغبة فابلي احسانه بشكران الجميل وحسن الوفاء. ولاتحبي شيئًا على الارض سواه لانهُ هو خيركِ الاعظم والابدي

الفصل السادس

في انهُ ينبغي ان نلتمس في صلواتنا الخيرات الابدية

انهُ يفيدنا جدًّا لفهم الفرق بين الابدي والزمني ان نعلم ان منح الخيرات الزمنية ليس في مكانة من الاعتبار عند الله. لانهُ جلَّ ثناؤهُ يهبها أحيانًا للاشرار بطريق النقمة والعذاب. ولهذا قد شكَّ كثيرون من العلماء في جواز طلب الخيرات العالمية من الله فذهب المعلم الملكي ماري توما انهُ لايجب ان نلتمس من الله باطلاق الطلب غير الاشياء الروحية والابدية. واما الاشياء الزمنية فلا يجوز ان نطلب منها سوى ما يفضي بنا الى اكتساب الاشياء الابدية. فالصلاة التي بها تطلب الخيرات الروحية والابدية هي الغصن الرمزي المدعو في سفر النشيد غصن بخور يستلذهُ الله. وقد أحسن القديس غريغوريوس اذ قال: ان هذه الصلاة تدعى غصن بخور. لانها اذا طلب بها السمويات فقط تصعد متسامية فلا تزال طالبة الابديات

ولهذا قد لحظ المعلم بالودانوس ثلث نقائص في طلبة ام ابني زبدى.

النقيصة الاولى هي انها في طلبتها لم تحفظ النظام الواجب . النقيصة الثانية هي ان نيتها لم تكن نقية خالية عن عاطفة لحمية . النقيصة الثالثة هي ان موضوع طلبتها كان شيئاً باطلاً . والحال ان هذه الشوائب الثلث توجد في صلاة من يطلب الاشياء الارضية بغير نظر الى الاشياء الابدية وخلواً عن الرغبة لنيلها . فاولاها عدم النظام لانهُ ليس من يضاد النظام مثل الذي يطلب الدني القليل مهملاً العظيم الكثير . والذي يطلب لا الشيء الغير الضروري فقط بل الشيء المضر ايضاً . ويتغافل عما يحتاج اليهِ اشدّ الاحتياج . ان النفس تحتاج الى نعمة الله اكثر من احتياج الجسد الى القوت . وبالنتيجة انها اكثر احتياجاً منهُ الى العون السموي لان قوات الجحيم لا تزال متسلحة لمحاربتها ظاهراً وخفياً . فالذي يهمل طلب العون الالهي على ذلك ويوجه صلواتهِ الى طلب الاشياء الزمنية فيكون جهلهُ كجهل رجل اضناهُ ظماء مميت في برية قفرة في حرّ الصيف ووقت الظهيرة فصادف رجلاً مجتازاً باناء مملواً ماء صافياً بارداً . فبدلاً من انهُ يلتمس من فضلهِ بضراعة الطلب ان يروي ظمأهُ المذيب يطفق يلتمس منهُ ثوباً من صوف لا يغني عنهُ الّا في ابّان الشتاء

ثانياً وفي طلب من يطلب الاشياء الزمنية على النوع المذكور شائبة عدم نقاوة النية . لان مثل هذه الطلبة لا ترافقها غالباً نقاوة النية والامانة الروحية اللتين تصيران صلواتنا مقبولة لدى الله تلك النار التي كانت تستعمل لاحراق البخور كانت تؤخذ من مذبح المحرقات دليلاً

على انه لكي تكون صلواتنا مرضية لله يجب ان تكون صادرة عن قلب مضطرم مقدم للعزة الالهية كمحرقة . وذلك بواسطة تقدمتنا له تعالى كل حركات قلوبنا واشواقها . فالذي يطلب شيئاً زمنياً على نوع آخر سبيله أن يخشى من ان يمنحه الله مطلوبه بغضب وانتقام كما منح الاسرائليين السلوى . ولذلك اذ كان الطعام في افواههم طلع عليهم رجز الله وقتلهم . ولعمري انها المجاسرة قبيحة وقحة شنيعة معاملة الانسان الله ربه واستعماله اياه وسيطاً لنيل ما سيكون او يمكن ان يكون سبباً للتباعد عنه تعالى الذي هو غايتنا الاخيرة . لاننا بالخيرات الزمنية نحيد عن الانعطاف نحو الاشياء الابدية . ونتغاضى عن محبة الباري تعالى الذي هو غايتنا القصوى ونستنجده في بلوغ اغراض اخر مضادة له نعوذ بالله من هذا النفاق . فلنطلب فقط ما يجدي نفوسنا نفعاً ويسدي الله سروراً ومجداً لنطابن الاشياء الروحية الابدية ونعمة الله ومعرفته والاقتداء بابنه الوحيد واحتقار العالم ورغبة كل ما يطابق ارادته الالهية . فهذا ما ينبغي ان نطلبه لانه خيرنا الحقيقي . ولا جرم في انه تعالى يمنحناه حقاً

ثالثاً وفي طلب الخيرات الزمنية شائبة بطلان الاشياء المطلوبة . لان كل سعادة وعظمة زمنية تستحق ان تحقر لكونها دنيـة وجيزة كاذبة وسريعـة الزوال . ولذلك تلك المرأة الرمزية المقول عنها في سفر الرؤيا احبت ان تتكلل بالشمس التي هي رمز الابدية لاجل كمال دائرتها (رؤ ١٢ : ١) . فاما القمر الذي هو رمز الى الاشياء الزمنيـة لتغييره المتصل

فكانت تطأهُ بارجلها . فلنتعلمنَّ اذًا كيف يجب ان نصلّي ولا نضلُّ في هذا الامر الباهظ على ان الضلال يزداد بقدر الامر الذي نضلُّ فيهِ . وبالنتيجة ان الضلال في الصلاة يكون ضرره ُعظيمًا جدًّا وذلك لانهُ امر الهي قد اوصانا الله بهِ وواسطة ضرورية للخلاص . وقد وعدنا السيد المسيح اننا بها ننال منه كل شيء . فلا نطلبنَّ اذًا باسم مخلصنا يسوع المسيح ما لم يرد ان يموت لاجلهِ بل لنطلبنَّ خيرات السماء خيرات الخلاص الابدي التي اشتراها لنا بثمن دمهِ وجاد بنفسهِ بدلًا عنها

الفصل السابع

في ان الذين جحدوا الخيرات الزمنية ليربحوا الخيرات الابدية لفي مكانة من الغبطة وعلى جانب عظيم من السعادة

لا ريب في ان جحد الخيرات الزمنية امر يليق بالاعتبار لان ابن الله يحثنا على ذلك بمواعيد عظيمة بقولهِ : من ترك ابًا او أُمًّا او اخًا او أُختًا او بيتًا أو حقولًا لاجلي فانهُ ينال في هذا العالم عوض الواحد مائة وفي الاخرة حياة الابد (مت ١٩ : ٢٩) . فما أعظم ما بين الزمني والابدي من البون والفرق في هذه الحياة ايضًا . مع ان رجاء الخيرات الابدية ولو مجردًا من كل خير زمني يغني عنا ما لم يغنهِ امتلاك جميع الخيرات الزمنية . فيا لعظم سعادة الذين فهموا هذه الحقيقة وبدلوا من الارض السماء . وهذا الوعد الالهي يتمُّ حقًّا في الرهبان كما قال عنهم الانبا ابراهام

اب واحد تركوهُ في العالم يجدون في الرهبنة مائة ابٍ وبدلاً عن اخٍ واحد يجدون مائة اخ يحبونهم محبةً اخوية مسيحية . وعوضاً عن حقلٍ اوبيت واحد يجدون مائة حقل ومائة بيت . وذلك كما قال الرسول الالهي لاشيء لهم وهم لكل شيء مالكون (كو ٦ : ١٠)

حتى وان لم يحصلوا على ما ذكرنا فلهم ضعفهُ بل اضعافهُ ولهم وفور فيض التعزيات الالهية التي يمنحهموها الله لتركهم خيرات هذا العالم ولنسكهم وتقشفاتهم . وهذا قد ذكرهُ القديس برندوس عن رهبانهِ الذين كانوا في دير الوادي المضيء . انهم كانوا يجتنون من صياماتهم وتقشفاتهم تعزيات عظيمة حتى اوجسهم ذلك خيفة من ان الله اراد ان يثيبهم جزاهم وأجرهم في هذه الحياة وانهُ تعالى اعطاهم هنا فردوساً على الارض لانهم مزمعون ان يعدموهُ فيما بعد

وقد ذكر عن واحد من هؤلاء الرهبان يدعى ارنولفوس . انهُ اذ سمع يوماً وعظ القديس برندوس اضطرم قلبهُ بنشاطٍ عظيم جداً فترك اموالاً غزيرة ومعها ترك لذات العالم وكراماتهِ . واعتنق فقر الرهبانية وصرامة مذهبها وسار في الدير المتقدم ذكرهُ سيرة مقدسة ولما عظم فيهِ من النشاط في ممارسة التقشفات دهمتهُ امراض اليمة جداً حتى كان من شدة المهِ يغشى عليهِ مرات كثيرة . وحينما كان يرجع الى ذاتهِ ويستفيق من غشيهِ كان يصرخ قائلاً : حقاً قلتُ يايسوع الصالح : فظنَّ بهِ يوماً بعض الحاضرين انهُ يقول هذا على غير هدًى . ولذلك قال لهم

المريض ان الذي قلتهُ يا اخوتي فقد قلته بكمال الانتباه. ان السيد المسيح وعد في انجيلهِ المقدس ان من يترك لاجلهِ ابًا او امًّا او ثروةً ينال في هذه الحياة عوض الواحد مئة وبعد هذه الحياة القصيرة ينـال حياة ابدية (مت ١٩: ٢٩). وها هوذا انا الان مختبر صدق وعدهِ الالهي بنفسي. لان رجاءي المجد الابدي قد ردَّ لي كثرة اوجاعي هذه لذيذةً جدًّا حتى انني لست ارتضي بازالتها ولا بنقصها. وهي عندي الذ واجل من كل ما تركتهُ في العالم بل أجلَّ مما يفوق عليـهِ مائة الف مرة. فان عاملني الله بمثل هذا وانا الخاطئ الكسـلان وصيَّر اوجاعي الذَّ من تنعمي القديم. فما الذي يصنعهُ مع راهب مجاهد نقيّ صديق

ولعمري ان الذين يفتقرون لاجل السيد المسيح يمتلئون فرحًا لسببين. اولهما هو عين الفقر الذي كما قال سينيكا الفيلسوف ينزع عن محبيـهِ حمل الهموم الثقيل ويصير لهم النوم على الحضيض بغير فراش الذَّ جدًّا من النوم على الفرش الناعمة الفاخرة. ثانيهما هو نعمة خصوصية يمنحها الله من شانها ان تفيض لذات السماء على الذين تركوا لذات الارض. ثم انهم يجتنون نفعًا جزيلًا من احتقارهم خيرات العـالم. وهذا يوازي ايضًا المئة الضعف. لانهُ لو يعطى العالم كلهُ لدرء خطيئة واحدة فقط لم يكن الثمن موازيًا. والحال ان الفقر الانجيلي واحتقار العالم يمنع خطايا لا يحصى عددها. لانك ان سددت باب الغنى سددت معًا باب الفخر والصلف والكبرياء وبقية الخطايا التي تصدر منهُ كصدور الدخان من

النار . وما عدا ذلك فان الفضائل من عادتهـا ان ترافق الفقر الانجيلي كالاتضاع والقناعة والادب . ولا ريب ان هذه الفضـائل لافضل ثمناً من جميع كنوز الملوك . واما شرف السلطـة الحاصل عليها المساكين بالروح فهو اضعافهُ . لان اسر الاغنياء لشهواتهم وتعبدهم لاشياء دنيـة ارضية هو عار عظيم عليهم وبعكس ذلك القاء المساكين بالروح عنهم نير هذا الاسر الثقيل وتسلطهم على اشياء هذا العالم بفقدهم اياها الامر الذي يجتهد الاخرون باطلاً في امتلاكهِ هو شرف واكرام عظيم لهم . ولذلك أحسن القديس يوحنا كليمكوس اذ قال : ان الراهب المسكين سلطان العالم باسرهِ . لانهُ بتوجيه افكارهِ كلها الى الله يصبح رب هذا العالم ويضحي الناس بمنزلة خدام لهُ . فيا لعظم سمو حكمة هذه المشورة الالهية التي بها جعل الله الفقر ثمناً لربح مجدهِ ومهد الطريق لكل احد لاكتسابهِ

الفصل الثامن

في ان كثيرين احتقروا الاشياء الزمنية كلها وجحدوها

ان دناءة الاشياء الزمنيـة وما يمسُّ هذه الحيـاة من الضرر منها لامر واضح حتى وقف على حقيقتهِ واحاط بهِ علماً فلاسفة الامم الذين كانوا بمعزل عن نور الايمان . ولذلك اريستيدوس احد اشراف مدينة اثينـا لم يكن يلبس سوى خلقان رثة ولم يسد جوعهُ ابداً واذ قدم لهُ احد الاغنياء كثيراً من الذهب فنبذهُ ولم يرد ان يقبلهُ

منهُ . وقد خبرنا القديس غريغوريوس النزينزي عن زينون الفيلسوف الوثني . انهُ لما بلغهُ ذهاب كل امواله قال : اني منذ الان فصاعدًا يسهل عليَّ السلوك طبقًا لمبادىء الفلسفة . وهكذا انا كسغراس اذ سمع بذهاب امواله قال : لقد كانت اوبقتني لو لم تهلك هذه . واما كراتس الفيلسوف فقد القى مبلغًا عظيمًا من المال في البحر قائلًا : انني اغرقك يا أموالي لئلَّا تغرقيني . ونظيرهُ بدد ديوجينس امواله كافة ولم يبق لهُ سوى زبدية واحدة . ولما رأى انهُ يمكن ان يكون له عنها غناء القاها عنهُ ايضًا . واسكينس الفيلسوف لما سخر بهِ احداغنياء مدينة رودس قائلًا لهُ : انني اقسم بالالهة اني اذ اراك على حال هذا الفقر يتفجع قلبي عليك . فاجابهُ الفيلسوف قائلًا : اني اقسم بالالهة اني لما أراك غنيًا هكذا يتمزق قلبي وجعًا وتاسفًا عليك لعلمي بالمرائر المسببة من الغنى . فان كان مثل هؤلاء قد كفاهم نور فلسفة طبيعية ليزدروا بالغنى ويرفضوهُ هكذا . فما الخجل الذي يجب ان يشملنا نحن المسيحيين اذ لا يكفينا لذلك نور ديانتنا الفائق الطبيعة وهو جزيل التاثير . حتى ان الذين اضاء لهم قليل من أشعتهِ عزموا عزمًا عجيبًا وعقدوا قلبهم على صعاب الامور وعددهم يفوق الادراك . وها نحن نورد هنا اخبار البعض منهم

قد ذُكر انهُ في دير الصفوف الذي كان على شط بحر النيل وكان يضمّ اليهِ مائتي راهبة كانت راهبة منهنّ اسمها يسيدورا يحتسبها الجميع ساهية فاقدة العقل . ولذلك كانت الراهبات يزدرين بها ويسخرن

بها ويلطمنها محتقرات كانها كلبة . اما هي فكانت بصبرها افضل من حمل .
لانها كانت تخدم جميعهنَّ باتضاع عجيب كانها آمة وتمارس جميع الوظائف
المتعبة المحتقرة وتمشي حافية على الدوام بثياب رثة وعلى رأسها منديل وسخ بالٍ
يأباهُ الجميع . فاحب الله ان يظهر سمو قداستها لواحدٍ من متوحدي ذلك
العصر وكان ابًا شهيرًا ذا سيرة حسنة وقشفة وقداسة عظيمة يقال لهُ الانبا
دوبيني . فظهر لهُ مِلَكٌ وقال لهُ : انهُ ليس لك ان تفتخر بحال سلوكك
هذا وان كنت تسير سيرةً مقدسة منذ سنين عديدة لان في دير
الصفوف راهبة اسمى قداسة منك . فقم واذهب الى الدير المذكور
تجد هناك ابنة على رأسها تاج تلطم نهارها كلهُ وتحتقر وتهان وهي مع
ذلك لاتضطرب ولا تسجس البتة ولاتزال تذكر الله واياهُ تبارك . واما
انت فمع كونك متوحدًا تدع افكارك تجول في العالم كلهِ . قال هذا
الملَك وتوارى عنهُ . فنهض حينئذٍ ذلك الابُ المذكور وذهب الى الدير
المعين . وطلب ان يخاطب الراهبات جميعهنَّ . فاتينَ كافة ليشاهدنَ
الرجل القديس المشتهر بالفضل والقداسة . فلما حضرنَ امامهُ اخذ ينظر
اليهنَّ ليرى تلك الراهبة المشار اليها . فلم يجد تلك العلامة على واحدة
منهنَّ فقال لهنَّ : هل بقي واحدة منكنَّ لم تحضر اليَّ . فاجبنهُ ان جميع
راهبات الدير ماثلات امامك . اما الاب القديس فقال لا بل منكنَّ من
لم يكن امامي لاني لست اجد هنا الراهبة التي اخبرني عنها الملك . فحينئذٍ
قلنَ لهُ ان واحدة ليست بحاضرة امامك وهي ابنة مجنونة تخدم

في المطبخ. فقال الانبا ايتيني بها حالاً فاتين بها غصباً وسحبنها اليهِ قهراً.
فلما حضرت عرفها الاب القديس من المنديل الرث الذي على رأسها
المدعو من الملك تاجاً. وللوقت جثا الشيخ المحترم على رجليها قائلاً: اسألكِ
ايتها الام المباركة ان تباركيني وتصلي عليَّ. فاستحادت الراهبات وقلن له:
لقد اخطأت يا ابانا لان هذه الراهبة مأفوكة وعديمة العقل بالكلية.
فقال الشيخ لهنَّ: انكنَّ انتنَّ الجاهلات الساهيات العقل لان هذه الراهبة
المحسوبة منكنَّ مجنونة هي افضل حكمة منكنَّ جميعاً. ولينعم الله عليَّ في
يوم الدينونة بان يكون حظي نظير حظها

خبرنا ايضاً القديس غريغوريوس نيصص عن فيلسوف مسيحي يدعى اسكندر
انهُ كان حسن الهيئة وبهي المنظر جداً فخاف من ان يصير جماله سبب
عثرة لهُ او لغيرهِ. فتغرب وذهب الى مدينة كومانا. واخذ هناك يشتغل
بصناعة الفحم واستقام في ممارسة هذه الصناعة سنين كثيرة لم يظهر
امام الناس الَّا باثواب مخزقة ووجه مشوه بسخام الفحم حتى كان يحسب
من الناس احقر اهل المدينة وادناهم. فاتفق ان توفي اسقف مدينة كومانا
فاتى القديس غريغوريوس الملقب بالعجائبي يقيم عليهم اسقفاً جديداً
فقدم لهُ الشعب اشرف من كان بينهم بالاصل والعلم. اما القديس
فقال لهم: انهُ لا يجب ان تقتدوا بتعليم العالم وحكمتهِ فقط. بل ينبغي
ان تلاحظوا الفضيلة ايضاً. ثم امرهم بان يقدموا لهُ اناساً فضلاء ولو كانوا
من أحقر الشعب. فلما سمع هذا البعض منهم اجابوهُ بهزء قائلين: ان

كان يمكن مثل هولاء ان يصيروا اساقفة فلنقدم لقدسكم اسكندر الفحام الذي ليس احقر منه في هذه المدينة . فاذ سمع القديس بهذا الاسم امر بالهام الهي بان يحضروه . فلما مثل امامه انفرد به القديس وساله اولاً عن قضايا خارجة فلما سمع اجوبته استدلَّ منها على علمهِ وعظم فطنتهِ . فشرع حينئذٍ يستخبره عن شان نفسهِ وسيرتهِ وطلب منه باجتهاد الّا يخفي عنه شيئاً . فلما عرف امره اعتنقه بمحبةٍ والزمه بقبول الاسقفية فارتسم اسقفاً لتلك المدينة . ولم يسمح الله بان لايكون مكرماً من العالم من قد احتقر نفسه هكذا حباً بهِ تعالى . وليس المرؤسون من الانام فقط محتقرين هذا العالم بل العظماء والامراء والملوك ايضاً قد احتقروه ورغبوا في الفقر الانجيلي المقدس . ومنهم كارلوس ملك النمسا الذي لافراط حبهِ وشوقهِ الى الاشياء السموية تنزّل عن سدَّة مملكتهِ لاخيهِ الصغير وذهب الى رومة بزي رجل فقير وترهب . ولما رأى هناك الناس يفتقدونه ويكرمونه انطلق سرّاً الى دير جبل كاسين . وباشر هناك وظيفة رعاية الغنم . ولما اتفق يوماً ان غنمة من رعيتهِ انكسرت رجلها حملها على منكبيهِ الملوكية واتى بها الى الدير

ولكيلانسهب الكلام في ايراد اخبار كثيرين من الذين جحدوا غنى العالم وفخره ليربحوا خيرات السماء ومجدهِ . فنقتصر على نموذج واحد يغني عن ايراد اخبار كثيرة . ذكر الانبا توما الكانتبراتي الذي كان معاصراً القديسة ماتيلدا ابنة ملك سكوسيا . انه كان لهذه

القديسة اربعة اخوة وكان اولهم اميرًا متزوجًا . فترك امرأته على رضى منها ونبذ امارتهُ وخرج من وطنهِ ليقتدي بفقر السيد المسيح . والاخر كان في اقليم من مملكة ابيهِ واليًا فهجر ايضًا العالم وقضى حياتهُ في كوخ متوحدًا . والثالث كان اسقفًا فترك ايضًا العالم وترهب في رهبانية سيتو . اما الرابع وهو الاصغر المدعو اسكندر فاذ بلغ من العمر ست عشر سنة جعل اليهِ ابوهُ امر سياسية المملكة . فاذ علمت بذلك اختهُ القديسة ماتيلدا وكانت اذ ذاك بلغت من العمر عشرين سنة انفردت بهِ سرًا واخذت تخاطبهُ قائلةً : يا اخي العزيز اسكندر ما بالك مرتضيًا بمباشرة امور العالم . الا تنظر الى اخوتنا الذين بانوا ليربحوا السماء اما تفتكر انهم تركوا لك ملكًا سوف يلقيك في خطر هلاك نفسك وخسارة الملك السموي . فقال لها اسكندر وهو سخين العيون . فما الذي تشيرين بهِ اليَّ يا اختي العزيزة . انني مستعد لان اتمم كل ما تطلبينهُ مني . ففرحت القديسة من عزم اخيها وبمشورتها تنكر كلاهما وسافرا معًا الى مملكة فرنسا . واذ وصلا الى هناك أدخلت القديسة أخاها في دير من رهبنة سيتو ليكون هناك خادمًا على مائدة الضيوف . فلما وجدتهُ الرهبان خبيرًا في عمل الجبن لان اختهُ المذكورة كانت علمتهُ ذلك فافرغوهُ لهذا العمل واخيرًا مع تمادي الزمن قبلوهُ راهبًا ليكون خادمًا للاخوة . فقالت لهُ حينئذٍ اختهُ ماتيلدا . لاشك يا أخي في ان الله يكافئنا ثوابًا عظيمًا لاننا حبًا لهُ تركنا والدينا ووطننا . الا ان أجرنا سيكون أعظم

جدًّا اذا ما افترق احدنا من الاخر بقية ايام حياتنا. وجدنا تعزية معاشرتنا
لكي نجعل كل سرورنا في الله وحدهُ. فلنؤجّلنَّ مشاهدة بعضنا بعضاً الى
حين نلتقي في ملكوت السماء. فاذْ سمع اسكندر هذا الخطاب شرع
يبكي بدموع سخينة وشقَّ عليهِ جدًّا مفارقة أُختهِ. الَّا انهُ ظفر بكل مانع
وافترق كلاهما عن الاخر حتى لم يعد احدهما يرى الاخر على الارض.
فانصرفت القديسة ماتيلدا وتخفت في كوخ بعيد عن دير اخيها تسعة
أميال. وقضت هناك حياتها عائشة من تعب يديها وممارسة رياضات
الصلاة والتقشفات الجزيلة وكانت مرارًا في صلاتها تغيب عن حسها
وتخطف روحها حتى لم تكن تسمع صوت الرعود ولم ترَ ضياء البروق.
واما اسكندر اخوها فلم يتعرَّف لاحدٍ في كل زمن حياتهِ ولم يكشف
لامرءٍ انهُ ابن ملك. وبعد موتهِ تراءى لراهب كان مبتليًا بدملةٍ ردية في
صدرهِ اذ كان قد جاء الراهب يومًا الى قبر الشاب القديس ليصلّي.
فظهر لهُ القديس ممجدًا منيرًا كالشمس مكللًا باكليل بهي وقابضاً على
اكليلٍ اخر في يمينهِ. وحينئذٍ أُخبر ذلك الراهب بسيرتهِ وعرفهُ بحالهِ وقال لهُ
ابن من هو. فسالهُ الراهب ما هذان الاكليلان. فقال لهُ القديس
ان الاكليل الذي في يدي هو الاجر الخاص الذي نلتهُ لاجل تركي
اكليل مملكة ابي والاكليل الذي على رأسي هو الاجر المعتاد ان يُعطى
للقديسين في السماء ولكي تحقق هذه الرؤيا. فها انك تجد جسدك بريًّا
من الداء الذي يؤلمك. فانتبه الراهب ورأى انهُ قد شُفي بالكلية. فاخبر

الاخوة بما كان فشكروا جود الله الذي يكلل بالمجد من اختار الاحتقار اكراماً لاسمهِ القدوس

الفصل التاسع

في ان محبة الله تقتضي ان نصدَّ انفسنا عن محبة الاشياء الارضية

انا قد أوردنا حججاً وادلة كافية لان تحملنا على احتقار كل الاشياء الزمنية والاقلاع عن حبها. وذلك لانها حقيرة ذاتاً وعابرة وقابلة التغير ودنية وخطرة ولان سيدنا يسوع المسيح مخلصنا كثيراً ما تجشم من الاتعاب والمشقات لكي يعلمنا هذا الاحتقار والان نختم هذا الكتاب بدليل اخر وحجة اخرى توجب ذلك فنقول: انهُ لو كانت الاشياء الزمنية أهلاً بذاتها لبعض الاعتبار لم يجز لنا مع ذلك ان نحبها البتة. وذلك لان التزامنا بمحبة الله لعظيم جداً حتى لا يجوز لنا ان نميل بقلبنا الى محبة شيءٍ اخر سواه. ولما لم يكن بين الحجج التي تلزمنا بمحبتهِ تعالى حجة واحدة الَّا وتلزمنا بان نحبهُ من كل قلوبنا. كانت الحجج التي تلزمنا بذلك لا يحصى عددها. فما الذي اذاً نحن ملتزمون بهِ. فقد كان النبي والملك داود يهتف قائلاً. بمَ أُكافئ الرب عن كل ما اعطانيهِ (مز ١١٥: ١٢). وهذا انما كان علة اهتمامهِ على الدوام. مع ان الله لم يعطهِ جسد ابنهِ الوحيد ودمهُ الاقدسين ولم يكن تجسد ومات من اجلهِ. فنحن الذين صنع الله هذا لاجلنا فيضطرنا الامر بالاحرى الى ان نفتكر ونهتم دائماً في ان نكافئهُ تعالى ما استطعنا اليهِ سبيلاً عن مراحمهِ هذه الفائقة كل وصف

وادراك

اعلم ان المحبة قائمة بالعمل والصبر واشتراك الخيرات . فانظر اذاً اولاً الى افراط محبة خالقك لك واستدل على عظمتها من عظمة ما فعلهُ لاجلك . اعني بهِ تجسدهُ الالهي وفداك . انظر ما يصنعهُ لاجلك في جميع الخلائق . تامل كيف يعطي الوجود للعناصر والحياة النامية للنبات والاشجار والحياة الحاسية للحيوانات والحياة العاقلة للملئكة وهذه كلها التي يعملها الله بخلائق جزيلة العدد والشرف فانهُ تعالى يصنعها فيك وحدك . لانهُ يحفظ وجودك وحياتك وحواسك وفهمك كذلك يصنع بك وحدك كل ما يفعلهُ لنحو بقية المخلوقات . فحقاً ان الله اثبت لنا محبتهُ بالفعل على نوع عجيب جداً من حيث انهُ صنع عظائم مذهلة من اجل من كان يستحق ان يزول ويتلاشى . لاحظ ثانياً محبتهُ تعالى لك في صبرهِ وطول اناتهِ . لانهُ لاجلك احتمل الاماً وموتاً لامثيل لاوجاعها وبمثلهِ يعاملك سبحانهُ في احتمالهِ خطاياك . فان كانت المحبة تعرف بالصبر فما أعظم ما تكون المحبة المقترنة بهذا الصبر العجيب . فلم يسمع قط مثلاً ان ملكاً ضربهُ احد عبيدهِ بسيف وبالغ في ضربهِ ولم يبالِ الملك بمثل ذلك بل لم يزل يحسن الى عبدهِ هذا ويغنيهِ بهبات وافرة فلو اتفق ذلك فمن لم يكن يتعجب منذهلاً من محبة هذا الملك . بل من ذا الذي لم يكن يظن بهِ انهُ أوفك وأسحر . فيا لتفاقم صبر الله تعالى لانهُ بعد ان صلبناهُ باثامنا الف مرة يحتملنا صابراً ويحسن الينا منعماً . تامل ثالثاً

محبته سبحانهُ اذ يشركنا في جميع خيراتهِ لان الاب الازلي اعطانا ابنهُ الحبيب والابن منحنا لحمهُ ودمهُ وارسل كلاهما الينا الروح القدس الذي يصيرنا بواسطة نعمتهِ شركاء الطبيعة الالهية . فانظر الان هل يمكن ان يوجد او يتصور حب يوازي حب الله لنا الذي يشركنا في كل ما لهُ . فان كانت المحبة تكافأُ بالمحبة وتقابل بالحبّ . فباية محبة يجب ان نكافئ هذه المحبة

واذا تاملت بعد ذلك بهاء الله وكمالهُ الغير المتناهي فترى انهُ تعالى اهل لان يحب حباً غير متناهٍ ولما كان أهلاً بمحبةٍ غير متناهية لزمنا ان نحبهُ بمحبةٍ غير متناهية . ومن ثم لو كان قلبنا صالحاً لان يحبّ حباً غير محدود لكان يجب ان يفرغ كل قوتهِ الغير المحدودة في حب هذا الموضوع الكامل المحبوب على نوع غير محدود . والحال ان قلبنا محدود وضيق جداً فكيف اذاً نخصص جزءًا منهُ لشيء ما ارضي . ولعمري ان الجود الالهي يجب لهُ الحب الجزيل حتى كان يجب ان نهمل حب ذاتنا لكي يزداد حبنا لله التهاباً . فان كان اذاً لا يجب ان نحب ذواتنا فكيف يجب ان نلتفت الى حب الاشياء الارضية . فيا ايها الاله الغير المتناهي جلال عظمتهِ . ما اكثر ما تسرّ وتبتهج نفسي بانك جزيل الصلاح وفائق البهاء والكمال بل مصدر كل خير وعلة كل كمال وبهاء . فيجب ان تكون محبتي لك مجردة لا من الخلائق فقط بل من ذاتي ايضاً وذلك لكي اضع ذاتي فيك انت الذي منهُ استمددت كل وجودي

وكمالي كما يستمد الشعاع صدوره من الشمس والماء من الينابيع ولهذا اذا ما اعتمد الانسان على ذاتهِ يسقط وبحبهِ نفسهُ يهلكها . اما بتجردهِ عن ذاتهِ وببغضهِ اياها فانهُ يربحها ويخلصها كما قيل في الانجيل المقدس

ومن ذلك ينتج انهُ يجب على الانسان ان يلاحظ نفسهُ لا كشيء مختص بهِ بل كشيء متعلق ومختص بكليتهِ نظرًا الى الوجود الروحي والجسدي بالله وحدهُ البحر العظيم الذي هو محتد كل وجود وكمال . ومن ذلك ينتج ايضًا انهُ يجب ان يكون روحنا محررًا معتوقًا غير مرتبط بشيء ليستطيع ان يرتقي الى الله بكل قوة نيتهِ وحبهِ اذ لا يجد شيئًا آخر يستحق ان يحبهُ . ويجد فيهِ تعالى كل ما وجد من الخير في الخلائق بل وأفضل من ذلك بغير قياس . فاذا ما بلغ الانسان الى هذه الحال فانهُ وان خالفت افعالهُ فتكون نيتهُ وقصدهُ واحدًا لا غير ولا بد من ان يبلغ مرادهُ هذا دائمًا وهو ان يرضي الله وحدهُ . ولما كان من يبلغون هذا المبلغ لا يفتكرون الَّا في ان يتموا مشيئة الله على الارض بالكمال الذي بهِ تتم في السماء غدوا لا يرغبون شيئًا اخر سوى ان يخرجوا من هذه الارض ويلجوا السماء لكي ينجوا من النقائص التي تصدر منهم على الارض في تكميل ارادة الله . ولهذا حينما يدعوهم الله لا يجدون شيئًا يصدهم او يعيقهم عن فتح الباب لمن يقرع . فلنجتهدنَّ نحن ايضًا في البلوغ الى هذه الحال مجردين محبتنا من كل شيء زمني لنلصقها بخالقنا محبينهُ حبًا قويًا شانهُ ان يجعلنا ان نحتمل اثقل الاحمال وننتصر على اشد

الصعوبات ونرذل اشهى الارضيات افضل من ان تنفصل عن محبتهِ تعالى ونخالف اوامرهُ ونأسي اليهِ بادنى شيءٍ . فلتكن اذاً محبتنا قوية كالموت فلا تفرّ منهُ بل تمضي الى لقائهِ حباً بالمحبوب منا وليكن لهيبها مضطرماً جداً حتى لا تستطيع جميع مياه التجارب الشديدة ان تطفيهِ بل تزيدهُ اضطراماً

وهذه المحبة القوية من شانها ان تبعثنا على حب الفقر والارتياح الى الجوع والعرى وافراط الحرّ والبرد واحتمال الافتراء والاهانة بحلم ودعة والصبر على الامراض والاضطهادات والتجارب واسعاف القريب في ضرورتهِ . والا نشمئز من اخلاقهِ ولا نتمرمر من تغافلهِ عنا وعدم وفائهِ وفي حال القيظ الروحي لا نهمل شيئاً من رياضاتنا الاعتيادية لكي يمكننا ان نقول مع الرسول . ما الذي يمكنهُ ان يفصلنا عن حب المسيح (رو ٨: ٣٥) .

اللهم انزل علينا نعمتك لنقوم بذلك باستحقاقات ابنك لك العزة والكرامة والمجد الى ابد الابدين آمين

فهرس الكتاب

المقالة الاولى

في التمييز ما بين الزمني والابدي وهي ثلثة عشر فصلاً

المقالة الثانية

في ما بين الزمني والابدي من الفرق بالنظر الى نهاية الحياة الزمنية والزمن مطلقاً وهي تسعة فصول

المقالة الثالثة

في ما بين الزمني والابدي من الفرق من حيث تغير الامور الزمنية ودناءتها ومخاطرها وهي عشرة فصول

المقالة الرابعة

في الفرق بين الزمني والابدي من حيث عظمة الخيرات والشرور الابدية وهي اثنا عشر فصلاً

المقالة الخامسة

في ما بين الزمني والابدي من الفرق من حيث الوسائل التي منحنا الله تعالى لاكتساب الخيرات الابدية والنموذجات التي قدمها لنا لاحتقار الاشياء الزمنية وهي تسعة فصول

